



رواية

أحمد سلامة

الزعرانة

موعد مع السيدة الجميلة

دار دؤن

أحمد سلامة

الزعفرانة

موعد مع السيدة الجميلة

رواية

دُون



للنشر والتوزيع

إهداء

إلى السيدة الجميلة : مایة عبد الرحمن

«عندما تفرح، أفرح. وعندما تحزن، أحزن. وحين تكون،
أكون أنا أيضًا.
لأنني أنت، وأنت أنا»

(١)

يحيى

لم يكن عليها سوى أن تبسم، ليتغير التاريخ كله بعد ذلك.

أمام باب غرفتي الصغيرة في كامب (وادي) حيية، طلبت وهي تبسم أن تدعوني إلى القهوة لأنها لا تعرف أحدا هنا.. وكيف كان لي أن اعتذر رغم أنني اعتذرت؟ وهل كانت «زينب» لتساعني على هذه الذلة؟ وهل كانت الذلة الأولى في ردة الابتسام بابتسام؟ أم في نصتي على باسمنا منذ البداية وهي تتشاجر مع بائع التماثيل الفرعونية في البازار؟

سقط قلبي بين قدمي وهرب مبتعدا بعدها.. ربما لهذا السبب ظلمت ألفليف في غرفتي بالكامب بعد أن تحدثت معها لتلك الدقائق القليلة.. كنت أهرب منها.. أو أنني كنت أهرب من عيني زينب الحزيتين. الأمر المؤكد هو أنني كنت أبحث عن قلبي الذي نطق منذ صمت طويل بين جبال هذه المدينة الصغيرة جارة البحر.

في السنوات الثلاث الأخيرة لم أكن أتحمل جدران نفس الغرفة لفترة طويلة. أصبحت الجدران تضغط أنفاسي وتحبس صدري، حتى صرتُ أحنى أن أسكن العمراء للأبد.. لكن غرفتي الأخيرة في

كامب وادي حبيبة كانت الأكثر لطفًا مما سكنت سابقًا.. الغرف
معظمها من الخشب المضغوط خفيف الحمل، تشعرني أحيانًا أنها
قابلة للتمدد مع ضيق نفسي.. جدرانها قابلة للفك والتركيب في أي
لحظة كجميع عُرف الكامب المترابطة ببعضها البعض.. كرافانات
متراسة ومتنصفة ببعضها.. خفيفة الحمل وغير مكلفة.. الكامب
كله تقريبًا كان معدًا للفك والتركيب للانتقال في أي لحظة.. كان
أشب بغرف عمال التنقيب والחקر في شركات البترول المترامية طيلة
الطريق بين الغردقة وطريق السويس.. وكانت غرفتي تقريبًا هي
أكثر الغرف اتساعًا.. وكان هذا طبيعيًا جدًا؛ فأنا الوحيد الذي كان
يقضي الليل هنا في قلب الصحراء ولا يعود مع العاملين بالمكان إلى
نزل عامل الفندق التابع له الكامب بالغردقة، بعد انتهاء أنشطة
الكامب المسائية.. ورغم أن الغردقة لم تكن تبعد أكثر من عشرين
دقيقة بالسيارة.. إلا أنني كنت أحب البيت هنا في الصحراء وبين
الجبال.. خاصة في ليالي الشتاء الباردة، حيث يندر الزبائن من
السائحين العرب والأجانب الذين ينظم لهم الفندق بالغردقة
رحلات السافاري وتلج الجبال والسهر في الوديان المحيطة.

في ليالي الشتاء الباردة تحديدًا كان الجميع يعود للسكن بالغردقة
باستثناء حارسين عجوزين يسهران طوال الليل أمام خزان المياه
الرئيسي جوار بازار الكامب.. يشعلان النار للتدفئة ويستمعان إلى
أغاني بدوية بديعة ويظللان يدخان الحشيش ويطلقان النكات البذيئة
على السائحين وحتى مطلع الفجر.

أما أنا فكنت أترك نفسي إلى الليل والصحراء.. أحيانًا أقضي الليلة
وحدي وأحيانًا أخرى أستضيف وجهًا ما للمسامرة.. تارة أزينب

ونارة «سباستيان».. ليلة أستضيف وجه جدي «سليم» للسمر ونارة
أستضيفه للاعتذار.. وفي أحضان قليلة جداً كانت «ميريت» تقنم
السهرة بوجوها اللعوب لشكر من الليلة ما بقي منها.. فأنام مبكراً
قبل أن تزور الشمس الجبل، واضطر إلى الاستيقاظ مبكراً رغم ندوة
العمل.. مثلما حدث هذا النهار.

صحت كدراً ناقماً على وجه «ميريت» الذي أفسد سهرة
البارحة.. لعنتها في سري مرة وبصوت مسموع مرأت أخرى، بعد
دقائق وجدت اتصالاً من الشيخ «ياسين» لم أسمعه وأنا نائم، أعدت
الاتصال به وكانت التغطية سيئة للغاية، فعلمت أنه بقرية الجبل.
القيت على كتفي غطاءً ثقيلًا اتقاءً للبرد الممارب من ليلة البارحة،
وخرجت من الغرفة لأسمعه بوضوح، إلا أن التغطية كانت لا تزال
سيئة، ربما أصبحت أكثر سوءاً.. أنهيت الاتصال يتسأ ودخلت
لأغسل وجهي بأحد الحماض المشتركة، فعاد الهاتف يرتعش في
جيبى، ووجدت الشيخ «ياسين» يتصل ثانية.. رددت عليه سريعاً
ويدي ما زالت مبتلة وكنت متوقفاً نفس التغطية السيئة للشبكة، إلا
أن صوته جاء واضحاً وعالياً أيضاً.. كان يؤكد على موعدنا المسائي
عند بقرية الجبل مساء اليوم.. وظل يؤكد أن الأمر هامٌ وضروريٌ.
رفض بالطبع أن يعطيني أي تفاصيل متعللاً بسوء التغطية عنده..
نظرت إلى ساعتى وأنا أحدثه فوجدت أنه ما زال أمامى وقت كافي
قبل الموعد.. أخبرته أنني سأحضر، ثم عدت إلى الغرفة لأجفف
وجهها لم أغسله بالكامل.

ما زال أمامى ساعتيان لأتناول أي إغطار أجده في كافيتيريا الكاسب،
ثم أبحث عن سيارة دفع رباعي بالأجرة قبل أن تقلني إلى قرية الجبل.

انتملت حذاء ذا رقبة عالية انقضاء للعقارب التي بدأت تظهر
مؤخرًا وعلى استحياء في محيط الكامب الذي أقطنه منذ تركت
طابا.. ثم ارتديت المعطف الوحيد الذي أملكه تحببًا لبرودة الجبل
لوخائنا المودة في خيمة المجلس مع الشيخ وطال الحديث لأخر
الليلة.

عند باب الغرفة وقبل خروجي مباشرة لمحت حركة خفيفة في
المرأة المعلقة بباب الغرفة، أجفلت لحظة ثم انتهت إلى أنه انعكاسي
في المرأة.. لمْتُ نفسي للمرة الألف على عدم تغطية المرأة لكرهي
الشديد للمرايا.. لم أعد أطبق المرايا منذ رحلت زينب.. وكان هذا
بالضبط ما حدث.. عندما اعتدلت كنت قد رأيت وجهها كاملاً
في المرأة مكان وجهي وقد رعدت عمدة على الفراش أمامي بدموعها
الصامتة التي لم تفارق وجهها أبداً.. ابتسمت لها في المرأة محبباً لياها
حتى بدأ طيفها يختفي رويداً إلى أن غاب وعاد وجهي الذي أكرهه
في المرأة ينظرني في لوم.. فعلمت أن اليوم لن يكون عادياً أبداً.

خرجت متجهاً إلى الساحة.. ربما أجد سيارة أحد العرب تقبل
أن تنقلني داخل الجبل قبل أن يحل الليل.. وفي طريقي لم تفارق عينا
زينب الدامعين رأسي.

غمشت قليلاً إلى أن وصلت لنافورة صخرية خربة تتوسط الساحة
جوارها الجساراج خالٍ تماماً.. ولم أجد أيًا من العربيات بالطبع..
الوقت ليس موسماً لأنشطة الكامب، ومعظم السائقين إما لم يأتوا..
وإما أنهم بالجبل الآن مع من التقطوهم من فئات السائقين.

وقفت قليلاً أتلفت حولي.. يبدو المكان كأنه مهجوراً للرحلة
الأولى.. فقط سائحان يتحشيان إلى الكافيتيريا.. تذكرت الإفطار الذي

لم أتناوله بعد، ثم قررت أن أدخل أولاً إلى بازارا «عارف» الملحق
بالكامب أسأله عن إمكانية طلب سيارة ذات دفع رباعي لتوصيلة
داخل الجبل.. عارف بالتأكيد أحد أقرباء الشيخ ياسين، كلهم أقرباء
بعضهم هنا، ربما يهتم بطلبي إن عرف بنية ذهابي إليه.

كان مدخل البازار بجبل فسيًا صغيرًا من سور الكامب.. سُكِّل
على هيئة كهف صخري صغير تحلّ قسمه العلوي يافطة زرقاء
عريضة مكتوب عليها «بازار عارف - تحف - هدايا - مستلزمات
سafari».. وُقِّشَت عليه رموزٌ لاتينية وفرنسية بشكل مبهر.

عندما قدمت هنا للمرة الأولى منذ ولحت هذا البازار جريت
قراءة بعض الكلمات الفرنسية المبعثرة على مدخل البازار.. وأذكر
أنني لاحظت من بينها كلمات مكتملة فعلًا وتشكّل معنى مفهومًا
مثل «سيد- عظيم- معبود» وكلمات أخرى كثيرة وأحرف أخرى
لا تشكّل أي معنى رسمت على صيل الزينة.. إلا أنني أذكر جيدًا
أنه من بين التجميعات كانت توجد كلمة «أحق» وفكرت أن أخبر
صاحب البازار بذلك.. لكنني لما تخيلتني وأنا أخبره لم أعلم هل
سيشفع لي كوني كنت أقوم بدراسة تلك اللغة المصرية القديمة حتى
يرعت فيها؟ أم إنه سيقتني أسخر منه؟

بحثت عن الكلمة فوق اللافتة ووجدتها بسهولة.. نرى سن
السخيف الذي قام بتركيب هذه الأحرف ليضع مُبةً مصرية قديمة
على لافتة بازار قمبر في قلب الصحراء بين الجبال؟.. وهل كان
يقصد ذلك، أم أنه فعلها جهلاً بمعناها؟

تذكرت سياستين وقتها.. وجالت يذاكرتي أيام كنت أعلمه كلمات
الغزل المصرية القديمة كي يرسل بها الخطيبته في لبنان قبل أن يفصلا..

وقبل أن يسافر إليها ليستعيدها.. ليتك لم ترحل أبدًا يا صديقي..
لشدة ما احتجتك بعدها.

قررت بيني وبين نفسي أن أخبر عارف صاحب البازار، أو من
يعمل به حاليًا بهذه المعلومة القيمة إن كان قريبًا معي ودبر لي سيارة
لتنقلني إلى قلب الجبل، وقد بات من الواضح أني ربما أناخير على
مواعيدي مع الشيخ ياسين.

دفعت الباب الخشبي بيدي ودلفت إلى البازار فأصدر صوت
موسيقى أجرام الأطفال.. والتقطت أذني صوتًا عاليًا وكأنه شجار
صمت فورًا عند دخولي.. لكنني كنت قد التقطت الجملة الأخيرة
من صاحبها التي كانت تقول في عصبية:

- Fifty dollars! For such poor quality?!

كانت صاحبة الصوت توليني ظهرها وأمامها عارف نفسه وقد
أحمر وجهه وبدأ أنه كان ينصب على إحدى السائحات في سلعة ما
ولكنه فشل في ذلك.. وكانا يقفان في ركن البازار.

أريكني صحتها المفاجئ.. فتركت الباب ينسحب من يدي
ودخلت أقلب في البازار بعيني مبتعدًا عنهما.. التفت إلي عارف بينما
هي ما زالت توليني ظهرها فوجدت مساحة أكبر للفضول إلا أن
عارف بادرنى بالسؤال هربًا من مواجهة واضح أنه لن يربح منها
شيئًا:

- اتفضل يا دكتور يحيى.. تحت امرك.

اضطرتني سؤاله للاستراب منهما فوضعت كلتا يدي في جيبي
معطفي وقلت:

- أين ذهبت العربات جميعها؟ أريد توصيلة ضرورية إلى الجبل
حاليًا.

وقبل أن يحاول الهروب من مساعدته لي سارعت محاولاً توريطة:

- عندي موعد هام مع الشيخ ياسين.

فرّد متيها:

- آه... نقصد الشريف ياسين... للأسف يا دكتور.. العربات الأربع

كلها بالجبل الآن.

خبطت بأطراف أصابعي في سرعة فوق زجاج الفاترينة التي
أمامي مبدئًا استياثي، ثم اقتربت منها خطوتين معلنًا عدم
استسلامي لتنهؤته مني بسهولة وقيل أن أبدي المزيد من غضبي
النفطت رائحة عطر قوية جدًا تفوح منها.. رائحة غلبت على
رائحة البازار، وهزمت عبق البخور المعنق الذي يستخدمه عارف
دومًا، هربت عيني تتفحصها وهي ما زالت لم تمنحني وجهها بعد،
بينما خرجت نبرة صوتي أقل حدة مما اتويت.. احترامًا لهذا العطر:
- من فضلك يا عارف، تصرف بأي طريقة، الأمر هام جدًا، لقد
أكد عليّ الشيخ ياسين وهو ينتظرني الآن، أعلم أنك تستطيع مساعدتي.
تابع عارف متهربًا:

- بعلم الله يا دكتور أني أريد مساعدتك لكن ما باليد حيلة.. ربما
بعد ساعة.

عندها استدارت صاحبة العطر وهي ما زالت تسبه متكئة
على البازار أمامها ورمقتني بعينها الواسعتين اللتين احتلتا البازار..
ووجدتهما جيلتين كعطرهما.

كانت ترتدي «جاكيت» من الجلد الضيق الذي يرسم عرواً
أوروبياً منتظماً وينطألاً من نفس التكوين، ويحتل قدميها وساقها
حتى المنتصف حذاء ذو رقبة طويلة جداً.. نظرت إليها متفحصاً
أكثر، وحاولت أن أنبين جنسيتها من ملامح وجهها لكنني فشلت.
كان وجهها يجعل ملامح لكل الجنسيات تقريباً بامتناء ملامح
أهل البلاد الاسكتلندية الباردة.. كما أن عطرها كان يوحى بالدفء..
وجهها إغريقي تماماً، وجنتان كاملتا الاستدارة كأفروديت.. ذقنها
مدد يلتف بنعومة ليكمل استدارة وجه إيطالي عريق.. معظم شعرها
ينام متردداً فوق ظهرها حائزاً بين البني الداكن والأسود المحترق..
وكان راضياً بخصلتين هارنيزن تمكسان شقرة خفية فضحتها إضاءة
النجفات المعلقة بسقف البازار وزادت ملامحها حيرة.. حتى سنها
كان ممتداً يصعب تحديده بدقة.

استجمعت شجاعتي وأضفتها إلى فضولي ونظرت مباشرة إلى
عينها فكانتا مصريتين تماماً.. وكاتتا تعكسان الفضول الشرقي
الذي كان يغمرني في اللحظة نفسها.. فقط نحن الشرقيين من نملك
الفضول الغاضح تجاه الآخر ببراءة هكذا.. أي وجه هذا وأي سيدة
تلك النسي نعمله؟! وبصعوبة منعت نفسي من الابتسام لها.
قاطع عارف مناجاتنا اللحظية الصامتة هذه وهو ما زال يحاول
التهرب من مساعدتي وكرر عرضه:
- لو تمر علي بعد ساعة با دكتور.

هنا اعتدلت الجميلة تماماً من ميلتها ووجدتها طويلة.. تحركت
ومرت جوارتي بالمر الضيق الذي يقف فيه كلانا وكمب حذائهما
ينقر فوق الأرضية الخشبية بانتظام وتركت المر لتضج لي بحالاً
أكثر اتساعاً للتفاوض مع عارف بحرية، واتجهت ناحية الباب وهي

تحمّل بيدها ما خيل ليّ أنّه تقليد سيء جداً لتمثال فرعون بحجم
دمية أطفال.. تابعت محاولتي الفاشلة لاستئالة عارف قائلاً:

- لكن الشيخ ياسين سوف يد... .

فقاطعت صوتها آنياً من مؤخرة البازار وهي تنفح صمغاً ثمالاً آخر
وتردد لنفسها بصوت مسموع وواضح جداً:

- So there is nothing here but poor copies!

ووجدنا صوتها رغم غضبه يبدو متلعباً.. ابتسمت مرغماً،
وكذلك عارف الذي غمز لي بعينه قائلاً:

- السواح يا دكتور.. وآه من السواح.

التفت إلينا بغتة ورمقته بحدّة وبدأ أنها فهمت أنّه يتحدث
عنها.. احمرّ وجه عارف تماماً واضطربت ابتسامي فقررت الانصراف
وقلت لعارف مستلياً وأنا أتحرك ناحية الباب:

- أرجوك يا عارف.. حاول بأي طريقة.

- عيوننا لك يا دكتور.. وللشريف ياسين طبعاً.. ساعة بالظبط.

ثم استأذنت منها أن تتحرك من أمام الباب لأفتحها، ولم أستطع
منع نفسي من النطّلع إلى وجهها الصبوح، وقلت لها مرتبكاً: «excuse
me» فابتعدت بلطف وردت مبتسمة بشيء لم أسمع من فرط نعومتها.

خرجت من البازار أجتر خيبتني وترددت في مكالمة الشيخ ياسين
للاعتذار فهو لم يقصدني في شيء من قبل وكان كريماً معي منذ قدمت
إلى الكامب.. لا أدري حقاً ماذا أفعل.. ولكن.. هل سمعناها نقول
«تفضل» بالعربية وأنا أخرج من البازار؟! أم أنه خُيل ليّ؟! ١٩



عدت إلى الغرفة مرعًا كأنني أمرب من شخصي بطاردني، في الطريق إلى الغرفة أحسست بالحر فاختنقت وأحسست بالارتباك فاختنقت أكثر وأكثر، دفعت باب غرفتي دفعة وألقيت المعطف فوق الفراش وزفرت في ضيق.. ثم اندفعت بغضب إلى مرآة الباب ونظرت إليها في عنيد.

لم تظهر زينب، فقط وجهي ينظر إلي في المرآة وكأنه يتحدثني ويقول لي: لن تأتي زينب.. تعلم هذا.. وكنت أعلم أنها لن تأتي الآن تحديدًا، اتكأت إلى الباب بيدي وتركت رأسي يسقط على المرآة وقلت بغضب: لماذا تذهبين الآن يا زينب؟ لم يكن هذا الاتفاق بيننا.. ونظرت إلى المرآة مرة أخرى ولم تظهر أيضًا.

ظللت مبتدًا إلى الباب لا أرغب في فعل شيء وقد غمرني قنوط شديد.. لا أرغب في أي شيء بالمرّة، ما الذي جذبني إلى تلك السيدة؟ ما الذي أخذني تمامًا هكذا في تلك الجميلة؟ منذ متى يا يحيى وأنت تجذبك الجميلات؟ ألم تكن قد انتهينا من هذا الحب منذ زمن بعيد؟ لقد كنت ترصد حركاتها في البازار، حتى عطرها ما زال يداعب أنفك إلى الآن.. ما زال يداعب روحك الشقية وقلبك النعس.

نظرت للمرأة مرة أخيرة ولم تظهر زينب أيضًا.. اختفت تمامًا وكأنها غضبت، نعم بالطبع غضبت مم فعلت.

تركت المرأة يثًا واستندرت ناظرا إلى الغرفة.. أي خراب هذا الذي أعيش فيه حتى أدمته؟ لقد تفتت في نقل خرابي الداخلي إلى هذه الغرفة الصغيرة التي تشب عربة الخردة.

كل شيء مع كل شيء في كل مكان، الفراش مع الكتب، الملابس مع القصاصات القديمة، صور الأصدقاء مع أقذاح القهوة المربة

مع زجاجات المياه الفارغة مع بقايا الطعام، الخطابات القديمة
لسباستيان مع خطابات البنك الجديدة التي لم تُفتح، أصبحت لا
أضع أي شيء في مكان معين لاستخدامه مرة أخرى، كل شيء يتخذ
مكانه وفق ما يحلو له، وأنا أنظر إلى الأشياء بعيني فيختارني منها ما
يحب أن يستخدمني، إن اختارتني القهوة شربتها وإن ناداني طعام
أكلته، لو لمحت عيني خطاب قديم لسباستيان أعدت قراءته،
وإن جذبني حذاء أو معطف ارتدبته وخرجت، لم أعد لنفسي وإنما
صرت للأشياء.

بحشت فوق الفراش عن متسع ألقي عليه جسدي وتناولت
المعطف لألقيه فوق طاولة جانبية يسكنها «جرامافون» عتيق مترب
لقلة استخدام.

فور أن وقعت عيني على الجرامافون ناداني إليه ولم أتردد وقلت
نعم الجرامافون.. ولم لا؟ قد يصلح هذا روحها قليلاً لهذا وتركتني
أهدأ.

قمت إليه في بعض الحواس وجذبت الأسطوانة الوحيدة خلفه
والتي جلبتها معي من شقة القاهرة عندما انتقلت إلى هنا نهائيًا،
كانت أسطوانة «السمهان»، أخرجتها من مغلفها بحرص شديد،
وضعتها على الجرامافون برفق، كانت الأسطوانة مكتوبًا عليها بخط
مزيج جميل «إلى حبيبي.. أعشقتك - زينب».

بدأت نوبة الاكتئاب من جديد، ووضعت إبرة النشغل فوق
الأسطوانة وتركت اسمهان تشدو بأغنية زينب المفضلة «إمتى هنعرف»
وقلت لنفسني «كنت أعرف دومًا.. ومنذ كنا صغارًا يا زينب».

كانت تصغرنى زينب بأربعة أعوام سبقتها فيها إلى الدنيا لأنعرف
على الأهل والجيران والأصدقاء وعلى جدنا سليم، سبقتها لأعرف
كل محلات الألعاب في ميدان السيدة زينب وأصدق أطفال الجيران
من الحارات المجاورة لنزل العائلة وأصير زعيمهم.. وكان كل شيء
كان معداً لكي تتعلق بي زينب.

أزهرنا سوياً في بيت جدي سليم.. شبت على يدي منذ ساعاتها
الأول، قال لي جدي وأنا أداعب الطفلة الجديدة «سم الله يا يحيى»..
فهمت خطأ أنه يطلب مني أن أطلق عليها اسماً.. وكنت عائداً
بالأمس معه من حضرة للذكر في مسجد السيدة زينب القريب من
بيتنا، كانت الليلة رائعة والمنشد منتشياً للغاية، ظل يهيم بنا إلى أن
جاء الفجر، قلت لجدي بعفوية «زينب.. اسمها زينب».. فضحك
جدي حتى دمعت عيناه، وضحك عمي وزوجته، ولم يردّا اختياري
لاسم ابنتهما.. وبكت زينب فور تقييل لها.

منذ الصغر رافقتي زينب كظلي، صرت بديلاً لأبيها الذي رحل
سريعاً بعد ولادتها.. وكنت في البداية أشعر بالزهو وهي تمسك
بدي بكفها الدقيقة كالفراش ونحن نلغلف في حوارى وأزقة السيدة
زينب.. أحكي لها بفخر العارف بالأسرار تاريخ كل منزل وأسرار
أصحابه وحكاياتهم بطريقة مسلية تأخذ عقلها.. كانت تفتح عينيها
من فرط الدهشة والاستمتاع بالحكايات، وكنت أضيف تفاصيلاً
مشيرة من وحي خيالي الصغير حتى تصبح الحكايات أكثر إبهاماً،
فيزداد إعجابي بنفسى، وتزداد نعلقاً بي.. فهذا منزل هجره أصحابه
لكونه آيلاً للسقوط.. فيصير منزلاً تركه أصحابه هرباً من المارد
العنيد الذي يسكنه.. وفي حكاية أخرى ليوم آخر عن نفس المنزل

أخبرها أنني رأيت هذا المارد مرة فلم أخف أو أهرب منه، تعبد علي الحكاية الأخرى لترد كذبي فأنهرها وأعتزلها بقية اليوم.. فتعود دامة العينين إلى جدنا سليم حتى يصلحنا على بعضنا مائة.. وننام معاً في نفس الصالة على الأريكة الكبيرة أمام التليفزيون حتى يطفئ جدي عند الفجر.. وكنت أنام ليزورني المارد الذي كذبتُ بشأنه في أحلامي، وننام هي لأزورها يومياً في أحلامها الصغيرة.

كنت أكبر سريعاً ويزداد طولي يوماً بعد يوم.. يشتد صدري ويتابعد كتفائي ويكبر معهما كذبي على زينب التي لا تكبر.. تغفل تصدق حكاياتي مهما نضج عقلها واتسعت مقاسات ملابسها..

بعد بضعة سنوات من ميلاد زينب تركني أبواي مع جدي وسافرا إلى الخليج. كانت تلك هي الموضة السائدة لدى المدرسين في تلك الأيام البعيدة.. وتولى جدي وزوجة عمي مسؤولية تربيته أنا وزينب، وقد صارت إقامتهما الدائمة في منزل جدي بعد رحيل عائلتهما.. وصرت مسئولاً عن نفسي وعن زينب.. تذهب سوياً في الصباح إلى مدرستها أولاً.. أطمئن إلى دخولها من باب المدرسة ثم أذهب إلى مدرستي أو إلى تسكعتي حسبما راق لي مزاجي.. وفي نهاية اليوم أمر عليها، تبدأ هي في حكاياتها الصغيرة أولاً ثم أقوم أنا بفقرة الكذب المعتادة، حتى نصل إلى مطعم ففتر يقدم الفطائر المطعمة بالجبن المملح في شارع بورسعيد جوار مسجد السيدة زينب.. نشترى فطيرتين ثم زجاجتي كولا أو نقاسم زجاجة واحدة لو خائنا ما بقي معنا من ماله.. ولم تصرح زينب أبداً أنها كانت تحب مشروب البرتقال بدل الكولا، ولم أعرض عليها يوماً أن نجربه سوياً رغم أنني كنت أعرف أنها تحبه كمعظم البنات.

نقطع شارع بورسعيد عرقاً أمام المسجد إلى محلات الألعاب والملابس على الجانب الآخر، تسلبنا الفاترينات اللامعة فترة النهار كلها تقريباً قبل أن نعود إلى منزلنا في شارع «الشيخ ربحان» جوار دهبان عام المحافظة.. نظل يومياً ننزع الخطط الفاشلة سراً لتوفير المال من مصروفنا المشترك لشراء لعبة جديدة لا توافق أمها ولا جدي عليها.. ونحول اهتمامات زينب مع الوقت من ألعاب العرائس والزينة وألعاب المطبخ البلاستيكية إلى مسدسات الصوت وطائرات حربية نعمل بالبطاريات الجافة وسيارات السباق.. وتظل تلح على جدي وأمها كي يشتريا لها أثراً من هذه الألعاب فتنال نصيبها من التعسف بدلاً مني، بينما أنصنع الانشغال بمشاهدة التلفزيون أو مراجعة دروسي.

لم أكن أجد صعوبة في التحصيل.. دخلت الدراسة متأخراً عائداً كاملاً عن أقراني بسبب سفر والدي، فكانت الدراسة يسيرة.. ولا أعلم من أين كنت آتي بكل هذا الوقت للهو والعبث.. وكانت زينب بطيئة في التحصيل رغم ذكائها ونباهتها الواضحين في كل تصرفاتها.. وفي المدرسة كانت تنأى بي أمام صديقاتها كلما مررت عليها لنعود سراً إلى المنزل، وكان يخشاني أصدقاءها من الأولاد ويتجنبونها لطول قامتي وغرابة ملابسي الثائرة على سني والخارجة عن طيبة مرحلتني الدراسية.

كنت في تلك السن قد بدأت أطبل من شعري مقلداً الممثل المشهور وقتها «ميسل جيسون» في أحد أفلامه.. وأتبع الموضة السائدة في بدايات الثمانينات لمعظم الممثلين والمغنيين الأجانب، حتى أن جدي سليم فقد صبره ذات مرة وعنفني بشدة على مظهري

ولم يكن هذا طبعه معي.. وعندما رأي أنرتب حصلات من شعري على هيئة ذيل حصان قام من مجلسه على أريكته العتيقة وأسممني وصلة طويلة من اللوم، قلت له بحادلاً أن مدرّس التربية الدينية قد أخبرنا مرة أن النبي كان يسدل شعره فوق كتفيه.. فحلف بالنبي ثلاثاً أنه لو رأي هكذا ثانية سوف يقص شعري بنفسه.. ولم أخش من تهديده وقتها، ولم يطعه قلبه أن يفعل بي شيئاً.

في المساء كان الغنية في الحارات المجاورة يلحون عليّ للنزول للعب كرة القدم معهم لإجاذقي لها.. وكنت أعتذر دائماً؛ وقد بدأ جدي يرفض لعبي في الشارع وأجبرني على الاشتراك في نادٍ قريب تابع للمدرسة الفرنسية بشارع نوبار لأمارس فيه ما أشاء من الألعاب، وهذا فقط إن أتممت واجباتي، فكنت أكتفي بمراقبة الأولاد وتشجيعهم من البلكونة شديدة الانساع المزينة بأصيار من الياسمين والريحان التي يشرف جدي بنفسه على رعايتها.. وأضافت زوجة عمي إليها بعض السائر الثقيلة عندما بدأ جسد زينب في الاستدارة. وعندما ينتهي اللعب، كنت أبدأ متكاسلاً في تحصيل الدروس.. وتبادل أنا وجدي فناجين القهوة التي أدمتها من يد زينب بعد أن علّمتها كيف تصنعها وهي في الثانية عشر من عمرها.. علّمتها أن تمزج البُن الفاتح بنفس مقداره من البُن المحترق مع مسحة خفيفة من التحريجة التي يخفيها جدي في المطبخ.. فكان إن تذوق جدي القهوة من فنجاني يقول مازحاً «يا بخشك يا يحيى».. فابتسم في غرور بينما يتورد خداه زينب اللذان اكتملت استدارتهما قبل جسدها، ثم يقوم جدي متباطئاً ليضع أسطوانة «كلنا نحب القمر» لمحمد عبد الوهّاب التي حفظناها من كثرة سماعه لها، ويظل يدندن بها طوال الليل وحتى ننام.

لم أعلم أبدًا هل كان وجود زينب جوارى طيلة الوقت هو السبب في قلة أصدقائي؟ أم أقول ندرتهم؟ أم إنني كنت انطوائيًا بطبعي كما صرت الآن رغم شقاوتي الواضحة في مستقبل حياتي؟ لكنني أذكر دومًا أنني لم أحظ بصديق حقيقي أقضي معه اليوم كله سوى زينب، وحتى نهاية الثانوية العامة.. وكان الدائرة قد ضاقت علينا وحدنا تلك الأيام، فاقصر يومي على تحصيل الدروس وعليها.. ثم على السبيل لاحقًا من وراء جدي وزوجة عمي.. وكانت زينب تلح علي دومًا أن آخذها معي ولو مرة واحدة فكنت أرفض دائمًا متعللاً بأن «عيب» وفي مرة بكت وقالت إنها تعرف أنني ذهبت الأسبوع الماضي مع أخت صديقتها «وداد».. فخفت أن تفس عليّ لجدي أو لوالدي عندما تعود في إجازة نهاية العام من الخليج وقد اقتربت الإجازة.. فوعدتني أن آخذها معي بعد انتهاء الامتحانات تلبية لطلبها.

جاء مجموعتي بالثانوية العامة مرتفعًا كما توقع جدي وتمنّت زينب، وعكس ما انتظرت تمامًا، وغلبت الفرحة المنزل كله، فقد كان مجموعتي هو الأعلى بين سكان الحي.. وكافاني جدي بمبلغ من المال وباركني زوجة عمي مرات ومرات.. وكانت زينب تتلقى المباركات والتهاني وكأنه نجاحها هي، وذكّرني في نهاية اليوم بوعدني لها بالذهاب إلى السينما.. فلم أنكره كعادتي، كانت تغمرني نشوة وزهو فكنت أوافق على أي طلب.

اتفقنا فيما بيننا على حضور حفلة نهائية في السينما حتى لا يشك أحدٌ في أمرنا.. ارتدت زينب يومها فستانًا ربيعًا جميلًا جعلها تبدو كأميرات أفلام الرسوم المتحركة، كانت قد رأت شيئًا له في أحد ملصقات المجلات التي أُرِيس بها غرفتي.. وكان الفستان ضيقًا نوعًا ما

قادت على عتبات الأثرثة.. ألقى جدي عليها نظرة لائمة ولم يعلم..
وانصرفنا ولم يسألنا أحد عن وجهتنا.. فقد تعود جدي وأمه على
خروجائنا المتكررة منذ طفولتنا.

قصصنا سنيما «أوديون»، لم تكن بعيدة يمكن التمشية إليها في
نصف الساعة أو أقل بقليل.. اخترت لنا فيلم «الخطايا السبع»
الذي كان يُعرض حديثاً وقتها.. كان معظم الموجودين فتياً وفتيات
في مثل سني.. وبعد أن بدأ الفيلم وأظلمت القاعة تماماً شرع معظم
من حولنا يتبادلون الغزل والقبلات المروقة وأحياناً بعض الكلمات
الخارجة.. وبعد أن اندمجوا كانوا لا يتوقفون حتى وإن سمحت إضاءة
بعض المشاهد بكشفهم.. وكان وجه زينب يزداد تورُّداً وجرت فيه
الدماء حتى أصبح صوت نفسها مسموعاً، سألتها في حرج إن كانت
تريد الانصراف، فانسعت عيناها بشدة وكأنها صُدمت وقالت بعند
«ألا تأتي هنا مع البنات دائماً؟.. أنا أيضاً بنت». فلم أستطع أن أرد
عليها، وكنت أرغب حقاً في الخروج، لكن الفيلم كان مشوقاً للغاية..
وكلمنا تفاجأ «براد بيت» و«مورجان فريمان» باكتشاف إحدى الجرائم
الجديدة النصفت بي زينب أكثر واختبأت تحت ذراعي، إلى أن تندمج
في المشهد فتعندل من جديد أو يصرف انتباهها عن الفيلم إحدى
القبلات الجريئة من مقعد قريب.

خرجنا من السنيما وكانت زينب متشبة حد الرقص، تمشي
أمامي وتعطي ظهرها للطريق كي تحدثني عن الفيلم وتناقش
كل مشهد، أخبرتني أنها حزنت كثيراً على «براد بيت» وزوجته
في النهاية.. ثم خرجنا إلى شارع طلعت حارب وخطفت عينيها
فاترينات العرض الكبيرة فتباطأت خطواتنا تدريجياً وانفقنا ضمناً

على ممارسة هوايتنا القديمة المشتركة بالفرجة على العروضات،
ورقنا أمام الفاترينة عرض كبيرة لمحل ملابس يبدو معروفًا لكثرة
الزحام أمامه.. كانت الفاترينة أكبر وأزرق من السلاقي تعودنا عليها
في شارع بورسعيد.. أشارت زينب إلى قميص طوي اللون على أحد
مايكانات العرض وقالت «سيكون هذا جميلًا عليك».. نظرت إلى
المايكان وإلى تفصيله القميص عليه ثم قلت:

- يبدو جميلًا.. لكن المايكان أكبر مني.. لن أجد مقاسًا يناسبني
بسهولة، يحتاج شابًا أطول مني وأعرض..

قاطعتي زينب:

- أنت أجمل من كل الشباب.

فابتسمت لها وثابتت هي ذراعي لتحاشي الزحام الشديد أمام
الفاترينة.. قلت لها إن المحل يبدو غالي الأسعار وأود أن أحتفظ بالمال
حتى دخول الكلية لأشتري ما يناسبني وقتها.. ثم عدنا إلى شارع
عبد الحالق ثروت وقطعنا المسافة مسرعين ونحن نقاوم الفتارين
والمعروضات بصعوبة حتى وصلنا إلى المنزل، فور صعودنا استأذنت
زينب وأثقت على أمها أن تذهب لإحدى الجارات وعادت بعد
نصف ساعة وهي تلهث وكأن أحدًا يطاردها.. ثم نامت مبكرًا
جداً تلك الليلة، وقبل الفجر بقليل كنت أقف في الشرفة الواسعة
التي اتخذت منها مكانًا خاصًا للمذاكرة ظاهريًا ونخبًا للتدخين سرًا
والذي كنت قد بدأت مؤخرًا.

أحسست بخطراتها خلفي فالتفتُ إليها وكان وجهها مبتسمًا بشدة
وتحمل في يدها القميص الذي رأته سويًا.. نظرت إليها في دهشة
وقلت محاولاً أن أخفض من صوتي كي لا يشعر بنا جدي:

- كيف؟ ومتى ذهبت؟

أشارت وهي تضع أصابعها على شفتي وقد خرج صوت عالٍ
رغمًا عني:

- فيه أولًا..!

أخذته ملهوقًا من يدها وأنا أردد:

- مجنونة.. كيف ذهبت وحدكِ؟ لو علم جدك سيذبحك.

فردت: جدي نائم في الصلاة.

جذبت ستائر الشرفة الثقيلة كي لا يلمحنا أحدٌ وقلت لها:

- اعملي قهوة حتى أرتديه.

- قهوة؟ الفجر!

قلت: «نعم.. الآن.. اذهبي». وكنت أخجل أن أخلع ما أرتدي
أمامها.. فذهبت، وعندما ارتديته وجدته مرتجًا جدًا وأحسست
أنه أفضل لجسدي خصبًا وتعجبت كيف اختارت زينب مقاسًا
يناسبني دون وجودي؟! ثم تسحبت إلى داخل الغرفة ووقفت أمام
المرآة فوجدته رائعًا، ثم عدت أدخن في الشرفة حتى تعود زينب
لستأه قبل أن أخلعه، وعندما أنت شهمت واضعة يدها على فمها
ومست وهي تناولني القهوة:

- قمر يا بحبي..

فأزداد زهوي بنفسي وأخذت رشفة من قهوهي الرائعة وقلت
وهي واقفة جوارِي وكل ما في وجهها يبتسم:

- تسلم يدك..

فسألت بدلال:

- على القهوة أم القميص؟

ونظرت إليّ في عيني طويلاً وكانت نظرة الحب الأولى التي أراها في عينيها.. كانت تختلف عن كل ما رأيته منها قبل الآن.. لقد صارت زينب أنثى، حتى إن نظرتها لي أريكتني رغم سننها ولم أنزل عيني من فوقها حتى فاجأتني بقبلة خاطفة على خدي، وقبل أن أتكلم أو أبادر أو حتى أفكر، تحرك باب الشرفة مصدراً صوتاً جَدَداً سويّاً في مكاننا فعَلَقْتُ نظري بالباب وتجمّدت زينب مكانها حتى إنها لم تلتفت لترى مصدر الصوت.. وتعالّت ضربات قلوبنا حتى كادت تغطي على صمت الشرفة.. ومضت دقائق ولم يدخل علينا أحد وكانت زينب أكثر منّي شجاعة فتسلّلت بعدها ثم دخلت غرفتها وسمعت باب الغرفة وهو يُغلق فاطمأن قلبي.

بقيت في مكاني لا أتحرك ولا أفكر سوى فيما قد فعلته زينب ولمس شفتيها فوق خدي تداعبه نسائم الليل فيأخذني إلى أفكار غريبة لم تزرني من قبل.. قطع شيطاني صوت أذان الفجر وانفتح باب الشرفة بقوة ودخل جدي عليّ.. نظر إلى القميص ثم حوّل بصره عنه وقال من بين ترديده خلف المؤذن:

- مبروك القميص..

نظرت إلى نفسي ووجدت أنّي نسيت أن أبدله.. رددت بصوت خافت: «الله يشارك فيك».. فلم ينظر إليّ، ظل يردد خلف المؤذن حتى انتهى ثم تبع الأذان بالأدعية وبعض الذكر الهامس وحين انتهى قال:

- ارتد شيئاً لائقاً وتعال.. ستصلي الفجر معي في المسجد.

قلت متعجباً وهو لم يطلب مني ذلك من قبل:

- الفجر ١٩ -

فقال وهو ينصرف:

- نعم الفجر، ألم تصبح رجلاً ١٩ -



بعد الصلاة جذب جدي مقعداً من على المقهى المقابل لمسجد
السيدة زينب.. وقال بهدوء وهو يجلس عليه متثاقلاً:
- اجلس يا يحيى.

كان الميدان يتحضر ليوم الجمعة وأنشطة سوق ما بعد الصلاة
التي تسم بالازدحام الشديد في ذلك اليوم، طلب لنا جدي قهوة
فقلت انه يمكننا شربها في الشقة بدلاً من الجلوس في الشارع فجراً
هكذا، فقال:

- أريد أن أريح قدمي قليلاً بعد الصلاة وقبل التعشية.

ثم تابع بشروء:

- جذك عجز يا يحيى.

فرددت:

- ربنا يغليك لنا يا جدي.

وضع الصبي القهوة أمامنا بعينين ناعستين لا يكف عن فركهما
بيده الحرة وسكب بعضاً من قهوة جدي خارج فتجانه سهواً منه
فتهره جدي:

- انتبه يا زفت أ

فرد:

- لا مؤاخذه يا حاج سليم.

وكان ما زال يترك عينه حتى كادت أصابعه أن تحترقها.. بذلك
فهوتي مع قهوة جدي وتناول رشفة كبيرة من فنجانه واستطعمهاني
تلذذ وقال وهو ينظر إلى المبدان:

- نريت على أي كلية يا يحيى؟

كنت قد حسمت أمري قبل فترة مضت إن جاء بمجموعي مناسب،
فرددت مباشرة:

- كلية الآثار.

- نرغب في السفر مثل والدك.. لم يعد أحد يريد أن يبقى في
البلد.

وقبل أن أنفي ما قال وأكذب عليه أكمل:

- إن كنت تريد السفر فعلاً اختر كلية أخرى.. قلبي يحدثني أنك
تريد أن تسافر.

- ليس موضوع السفر فقط.. إنما أحب دراسة التاريخ، لا أنكر
أنني سأسعى إلى السفر في أقرب فرصة بعدها، لكن الهدف الأساسي
هو دراسة التاريخ بشكل ممنهج، فانا أستمع بقراءته وأظن أنني
سأصل فيه إلى شيء ما لو تخصصت فيه.

سألني وقد التفت إليّ أخيراً:

- لماذا لا تختار دراسة التاريخ مباشرة؟ كلية الآداب قسم التاريخ
مثلاً.

لم أجد ردًا مناسبًا فقال:

- زهو المجموع الكبير طبعًا وآفة كليات القمة.. نريد أن ندرس

ما تحب وأن تلحق بكلية مجموعها كبير في نفس الوقت.. هذا حقك بالطبع لا يستطيع أن يلومك أحد.

ثم عاد يتفحص الميدان مرة أخرى وقال وقد قارب أن ينهي قهرته:

- اشرب القهوة يا بني.. القهوة مشروب الرجال.. فهي إن لم تذهب خجلتك لا تظهره.

لم أفهم ما يقصد لكنني تناولت القهوة بصورة آلية وأخذت أشرب منها ببطء شديد بينما تابع وهو يشرد أكثر وأكثر:

- ستعود والدتك تهاج الأسمع القادم.

فاجأني قوله الغريب هذا.. لم يخبرني أحد بذلك رغم أننا تكلمنا معها بالأمس وهي تبارك لي على النتيجة.. وقال جدي:

- لكنك إن أردت دراسة التاريخ حقاً يجب أن تقرأ الشارع وليس الكتب.. هل تعرف اسم هذا الشارع مثلاً؟

وكان يشير بعيداً ناحية شارع خيرت فقلت متعجباً من سؤاله:

- بالطبع.. شارع خيرت.. لكن ظننتك قلت إن أمي ستعودا.

تابع وكأنه لم يسمع:

- نعم نعم.. كل الناس يعرف أنه شارع خيرت، لكن من هو «خيرت» هذا؟

لم أرد؟ فلم أكن أعرف.. فأكمل:

- كان خطاطاً ماهراً.. يُدعى «عبيد الله خيرت».. كافأه الخديوي توفيق بأن منحه هذه المنطقة بالكامل.. وكانت أرض زراعية ويزرعها يركبها بعد الفيضان.. كافأه لأنه كان أميناً فلم يطمع فيما تبقى

من قشرة الذهب الخاصة بأزوار بدلات الطباط في الجيش بعد أن
نقش عليها جميعاً اسم الخديوي وإنما أعاد القشرة إلى السراي..
ولما وجدوا ما فيه من أمانة أهدها الخديوي منطقة «بركة الفيل»
بالكامل.

قلت متسائلاً:

- بركة الفيل.. أين؟

نظر إلي بلوم وقال:

- وتدعي أنك تحب التاريخ وتحب أن تدرسه؟! كل هذا هو بركة
الفيل سابقاً يا من تحب التاريخ.

وكان يشير يديه لما كان حولنا من مباني.

لم أجدر دأ على عتابه جهلي.. فأنتهى ما بقى من قهوته ونادى على
الصبي ليحاسبه ثم قال وهو يقوم من على كرسي القهوة:

- لكل شارع هنا يا يحيى، لكل حارة وكل منزل في القاهرة
وخارجها.. في مصر كلها يا بني.. لكل شبر من تراب حكاية..
ولكل حكاية تاريخ.. ووراء هذا التاريخ أناس عاشوا قبلنا.. فرحوا
وحزنوا، أحبوا وكرهوا، قاتلوا وقُتلوا..

وصمت ثم أكمل بحزن:

- عاهدوا وخانوا.. إن كنت تريد دراسة التاريخ يا يحيى فافراهِ
في الشوارع قبل الكتب.. اعرف تاريخك جيداً يا ولدي وقُض عنه..
فلم يُملك هذا البلد سوى جهل أهله بالتاريخ.

وبقينا نتمشى في بطنه إلى المنزل وكان متباطئاً ذراعياً وقد وجدتُ أن
خطواته صارت بطيئة جداً.. ولا أعلم متى أصبحت حركته محدودة

هكذا.. وعند باب المنزل كان يجاهد وهو يتنفس استعدادًا للمعركة
السلم القاسية.. قال مرة أخرى وهو يضحك:
- جددك عجز يا يحيى.

وقبل أن ندخل انتبه وكأنه تذكر شيئًا ما فقال وهو يشير إلى
سور مبنى المحافظة المقابل لبيتنا:
- أتعرف هذا المبنى هناك؟
فقلت: مبنى المحافظة.

ضحك ساخرًا وقال وهو يدخل المنزل:

- كان هذا وما زال قصر عابدين.. منذ أقل من مئة عام فقط
وقف عرابي على بُعد أمتارٍ من هنا وأجبر الخديوي على التحدث
معه هو وجنوده.. بالمناسبة.. هو نفس الخديوي توفيق الذي منح
عيد الله تلك الأرض.

ثم صعد السلم بصعوبة حتى وأنا أسنده.. وفور أن دخلنا الشقة
ذهب مسرعًا إلى الحمام معدت إلى الشرفة مرة أخرى ووجدت القميص
ما زال على المقعد. جاء جدي بعد دقائق ونظر إلى القميص.. ثم مد
يده يزيح سنائر الشرفة بقوة وقال وهو يشير إلى السماء:

- ما دامت هذه السماء، وما دمت تراها بعينيك.. لا تُدُلْ نفسك
أبدًا إلى ذنب تحتها.. أنت كريم وابن كرام.
ثم بدا وكأنه قد تذكر شيئًا فقال بمرارة:

- غداً تعود زينب والدتها إلى بيتها. لن يكون هناك من منزعج
في البيت بعد أن تعود والدتك نهاية الأسبوع. لقد تزوج والدك من
أخرى وترك لأمك بيته هذا لتعيش فيه.

وتركني وانصرف خارجاً.

سَلَّتُ جلته الأخيرة رأسي فبقيت في مكاني لا أجروء على التفكير فيما قال.. والدي تزوج؟ أي عبيث هذا؟ متى وكيف؟ بعد كل هذا العمر؟!

وتركت جسدي يسقط فوق المقعد وفوق القميص.. وكانت قهوة زينب ما زالت على المتضدة وقد باتت باردة.



رحلت زينب عني للمرة الأولى منذ ولدت، احتلت المنزل كآبة غير عادية بعدها.. لم تحاول أن تخفي دموعها وهي تخرج من الشقة مع أمها التي قالت إنها ستجيء الجمعة القادمة لتسلم على أمي. وقالت زينب في حزني شديد في كل جمعة ستجيء لبيت معكم!. ويكت ولم تكمل كلامها.. أوصلتها إلى سيارة الأجرة أمام البيت، ورفضت زوجة عمي أن أذهب معها لأوصلها إلى بيتها. وكنت مهموماً برحيل زينب أكثر من طلاق أمي المقبل كما علمت من جدي، كل الأمور تداخلت في رأسي وانقلب الحياة بين يوم وليلة، لم تكن أمي من رئيسي من البداية.. بل جدي وزوجة عمي.. ثم أي شقة تلك التي لن تسع للجميع لزيادة فرد واحد عليها؟! هل تعمد جدي أن يبعدني عن زينب؟ أتراه من حرك باب الشرفة ليلة أمس؟ ثم ماذا ستفعل أمي في مصر؟ هل ستعود إلى التدريس في مدارس الحكومة أم ستبحث عن مدرسة خاصة؟ أم أنها ستجلس في المنزل دون عمل؟ والنقود أيضاً.. هل سيستمر أمي في إرسال النقود أم سيفرغها لعروسه الجديدة؟

تزامنت الأسئلة وتراكمت في رأسي وأصبحت أخاف من المستقبل للمرة الأولى في حياتي.. حاول جدي طوال الأسبوع أن يخفف عني

واقعة انفصال والدي، فكان يأخذني معه للصلاة يوميًا ثم نجلس بعد الفجر على نفس المقهى... ويحكى لي عن تاريخ منطقة السيدة زينب وما حولها.. ثم القاهرة.. وبعدها تاريخ القاهرة القديمة كلها وحتى جوهر الصقلي.

عادت أمي، وكانت طبيعية في كل شيء. لم يبدُ عليها أي أثر لصدمة الانفصال، وكأنها جاءتنا فقط في زيارة طويلة. وفي ظرف أسبوعين كانت قد قدمت أوراقها بإحدى المدارس الخاصة القريبة. وقبل أن تبدأ دراستي بالجامعة كانت قد اندجعت في حياتها وكأنها قضت عمرها كله هنا. وأصبحت تتردد على بيت أهلها معظم أيام الأسبوع. لكنها منذ يومها الأول أبدت جفاءً غير عادي تجاه زينب وأُمها وكأنها تنتقم فيهما من فعله أبي. وكانت تسيء معاملته زينب تحديقًا. ولاحظ جدي ما لاحظته.. حتى إنني سمعته مرة وهو يعاتبها على معاملتها واتهمها أنها تغار منها علينا.. حتى تباعدت زيارتهما تدريجيًا وانقطعت أقدامهما تقريبًا من البيت باستثناء المناسبات المباشرة.. ثم سرقتني الكلية تمامًا بعد بضعة أشهر.

في الجامعة قررت أن أعمل بنصيحة جدي وأضفت عليها.. لم أترك معلومة طالتها يدي إلا وقتلتها بحثًا.. وقررت أن آخذ التاريخ من بداياته. حتى تخصصت في الحضارة المصرية القديمة في النهاية. وبين الجامعة وأسوارها والتاريخ وأسراره غاب وجه زينب عن عيني. واقتصر على السيرة عنها مع جدي أو السلام المريع عبر الهاتف من شهر لآخر. وحزنت عليها عندما علمت أنها رسبت للمرة الأولى في حياتها بامتحان الثانوية العامة.

في نهاية عامي الثالث بالكلية دخلت المنزل على صوت مشاجرة

بين جدي وأمي. فورد أن دخلت الشقة كان وجه أمي محمراً وعيناها
غاضبتين تماماً وجدي يصبح بها:
- هذا حقها علينا.. نحن أولاد أصول وهي حفيدتي مثلها مثل

يحيى.

فردت:

- اشرح لها أنت يا حاج سليم. أحضر لها أفضل المدرسين.
وسأدفع لهم أنا ما يطلبون.. لكن اترك ابني خارج هذا الموضوع.
استغفرت منها بشأن ما يدور وسبب الخلاف بينهما فصاحت
أمي غاضبة:

- المحرومة الفاشلة لا تستطيع أن تبتعد عنك.

فقاطعها جدي:

- خلقت لك بالله أني من اقترحت عليهم.

لم نرد عليه وإنما ذهب إلى غرفتها. وقال لي جدي إنه اقترح على
زينب وأنها أن ننضيفها لعدة أيام، كي أساعدها في تحصيل ما
يستعصي عليها من المواد كي لا ترسب ثانية. خاصة أنها رسبت في
التاريخ الذي صار تخصصي. فقلت لجدي:

- وما المشكلة في ذلك؟ هذا حقها.. بل أقل من حقها.

فقال جدي:

- أعلم أنك ابن أصول يا يحيى.

- ولم المبالغة يا جدي.. أليست هذه زينب؟ لقد عشتُ معها
أكثر مما عشت مع أمي؟
فابتسم رغم حزنه وقال:

- المشكلة أن والدتك تخشى عليك أن تزوجها.

تصنعت المفاجأة وأنا بالطبع أفهم ما يدور في رأس أمي وقلت:

- أتزوجها؟ حتى وإن كان كذلك؟ ما علاقته بمساعدتها في

المذاكرة؟ لقد كانت تسهر جوارتي طوال الليل أيام امتحاناتي بالثانوية

العامة، حتى كادت أن ترسب هي في الإعدادية.

ضرب جدي كفًا بكفٍ وصاح:

- قل لها يا بيجي!

هدأت من غضبه قدر ما استطعت وقبل أن أتركه قلت له:

- بالمناسبة يا جدي.. لا أمي ولا أي إنسان يستطيع أن يجبرني على

الارتباط بشخص أو أن يمنعني عنه.

قال وكأنه ينتظر أن يفتح معي الموضوع:

- وزينب.. هل ترى أنها..

قلت مقاطعًا قبل أن يكمل ما أعرف أنه في نفسه:

- لا زينب ولا غير زينب.. لا أفكر في أحد سوى في نفسي الآن.

بدا عليه الإحباط نوعًا ما، لكنني كنت محقًا وصادقًا مع نفسي

فيما أقول.. منذ دخلت الكلية لاحظت أن الفتيات هن من يتوددن

ويتقربن إليّ وليس العكس كما كنت أتوقع.. رأيت في أعينهن حبًا

لشيء لم أعلمه ولم أراه في نفسي ولا في المرأة.. ربما كان طولي أو ملامحة

وجهي.. ربما تفوقي في الدراسة وعلاقاتي المتأصلة بالأساتذة في الكلية..

ربما كنت جميلًا حقًا كما ادعت زينب كثيرًا.. لم أعرف حقًا ولم أكن جافًا

أو فظًا معهم.. تركت نفسي للموجة الخفيفة الأولى في الكلية وتناولتني

موجات أخرى أكثر عنفًا في سهولة ويسر.. وكنت لا أرتوي من أحد..

يعجبني البحر لكن لا شروق لي السباحة لفترة طويلة. في البداية كنت أشعر أنه ثمة شيئاً ينقصني فيهن.. ومع الوقت أصبحت أشعر أن كل شيء تقريباً يكون ناقصاً.. وعلمت مبكراً أن رحلتي مع النساء وإن كانت طويلة وممتدة.. ستكون في الغالب دون نهاية.

اتفقت مع جدي أن تأتي إلينا زينب نهاية الأسبوع في اليومين اللذين تقضيهما أمي في بيت أهلها بالبلد.. ولتعلم بعد ذلك ألا تعلم بشأن قدوم زينب في غيابها.

هافت زينب في اليوم التالي وكان صوتها حزيناً في المكالمة.. اتفقت معها أن تقسم المذاكرة على جلستين على مدار الأسبوعين المقبلين في يومي الخميس والجمعة.. على أن تحضر بعد عصر الخميس كي تكون أمي قد رحلت.. وتعللت بالكلية وإن أحسست أنها فهمت دون كلام. جاءت متأخرة مساء الخميس ولم أكن أذكر متى التقينا آخر مرة ربما منذ أكثر من عام.. وكنت متعباً يومها حتى إنني سلمت عليها وعلى زوجة عمي في سرعة ودخلت غرفتي لأنام بعد تعب الكلية.. لكنني عندما رأيتها ذلك المساء كنت كأني أراها لأول مرة.

كبرت زينب.. كبرت بسرعة شديدة وصارت فتاة جميلة وجليلة. وحزينة أيضاً، كان وجهها رغم نضارتها يورايه ذبول واضح.. كزهره اقتطفها أحدهم ونسي حتى أن يتأملها قليلاً. لكن رحيقها كان فواحاً. ووجدت أنني سأتعامل مع زينب الأنثى وليست زينب رفيقة الطفولة.

اتخذنا مجلساً العشاء بالشرفة.. فكرت في شيء أكره به الجو كي أخفي ارتباكها منها وكسي تكسب من الوقت ما استطعنا فلم أجده بادرت هي وقالت:

- أعمل لك قهوة قبل أن نبدأ؟

وكانت تسأل وكأنها تأمر وتحركت من جلستها فقلت لها رافضاً:

- لا سأصنعها أنا.. شكراً.

ووجدتني قد أخرجتها فقلت معيياً خاطرها: «أدعك تعملينها..

بشرط أن تشربين معي» فابتهجت.. وطلبت منها أن تسأل جدي إن

اراد هو أيضاً.. ثم سألتها مازحاً وهي في طريقها للمطبخ:

- تذكرين الخلطة السرية؟

فقالبت مبتمة وقد بدأ ذبولها بضعف أمام نضارتها التي حلت:

- طبعاً.. غامق على فاتح.

وأخفضت من صوتها وهي تكمل «على مسروق».. ثم ضحكت

وطارت كالفراشة إلى المطبخ.

كان الغروب قد حُلَّ.. ومن الشرفة استطعت أن أرى ديوان عام

المحافظة بوضوح ومصابيحها المضاءة المنسية من الليلة الغائسة والحركة

بدأت تهدأ في الشارع مبشرة بليلة هادئة من ليالي شهر مايو.. والصيف

لم يعلن عن نفسه بقوة بعد. وفي دقائق كانت زينب قد عادت مبتهجة

بنفجاني من القهوة وقد تغيرت عن زينب الصامتة منذ دقائق..

وضمت البنجانين ثم خلعت الشال الذي كانت تضعه على كتفيها،

ووجدتها قد أصبحت فتاة فعلاً.. لاحظت مجرى عيني على جسدها

فقالبت هاربة بعينيها:

- هل دراسة التمريض صعبة؟

استغربت سؤالها فقلت:

- لماذا التمريض؟

- أتمنى أن أدخل تمريض بعد الثانوية.

- لا أعرف عنها شيئاً.. أظن أنها صعبة.. غالباً كل الدراسات الطبية صعبة.. دعينا من الكلية وقولي لي ما المشكلة الآن؟ لماذا رست في التاريخ؟ التاريخ مادة سهلة ومسلية جداً.. كل حكايات ومذاكرته بسيطة.

قالت:

- المشكلة ليست في التاريخ.. المواد كلها صعبة ومعقدة.. لقد نجحت في المواد الأخرى بالصدفة.

- ستجمعين هذه المرة بإذن الله.. وسنختار معاً كلية مناسبة معي في نفس الجامعة.

أشرفت زينب بشدة وبش وجهها وقالت:

- ونعود سوياً من الجامعة كل يوم.. كما كنا نفعل بعد المدرسة؟ ابتسمت وقلت لها:

- ونعود نلقلب على قاترينات المحلات كل يوم.

وكنت أنظر في عينيها العليتين الجميلتين وكانتا تلمعان من الفرح ووجدتها تنظر إليّ تلك النظرة القديمة التي لم أُنسها أبداً.. قلت هرباً من عينيها:

- لا بُد أن نعرف الآن ما المشكلة في المذاكرة:

ردت بسرعة:

- لا مشكلة في المذاكرة.

ثم أشارت إلى صدرها وقالت:

- المشكلة هنا.. المشكلة هي أنت.

ووضعت يدها على يدي فوق سور الشرفة وقالت:

- أنا أحبك يا يحيى.

ولم أعلم أبداً من منا بدأ في تقبيل الآخر. ولم نهتم بذلك. ولم نهتم حتى يستائر الشرفة المفتوحة. ولا بالتاريخ ولا بالثانوية العامة وكانت أول مرة أقبل فيها أحداً.. وطالت القبلة لا أدري متى.. ولم أمنها ولم تمنعني، ولم تهرب من شفاعنا ولا حتى كي نلفظ أنفاسنا.. كانت الغواية أقوى وأسرع من كل شيء.. وصاح جدي من خلفنا: «لعنك الله يا يحيى».. وكان وجهه متفخفاً من الغضب ويدها ترتعشان فوق عكازه وعيناه بهما من الغضب ما لم أنته طوال حياتي. حتى إنني لم أتحرك من شدة الخوف ولم أفلت زينب من بين يدي حتى تناولت هي شالها وهي ترتعش وتركت كتبها وحقيقتها وهربت مسرعة خارجة من الشرفة ومن المنزل كله.



كانت أسطوانة أسمهان تصدر أصوات دقات متويزة تحت إبرة الجرامافون بعد أن انتهت دون أن أدري متى. وكان وجهي محمراً وأنا أنذكر عيني جدي بعد كل هذه السنوات الطويلة. حتى إنني تلفت في غرفتي بالكامب وكأنني أبحث عن عيني الغاضبين المختبئين في أركانها تراقباني.

فمت من فوق فراشي وما زال قلبي يدق بعنف من الذكرى ومرارتها. أسكتت الجرامافون بغضب وقد وترني صوت دقائه وممت بأن القي بنفي فوق الفراش ثانية لكنني انتهت أن الدقات

لم تنتهِ بعد. نظرت إلى الجرامافون متمجِّبا فوجدت أن الدفات كان
مصدرها باب الغرفة.

انجهت إليه لأنتحه وقلت لنفسي ربما عارف قد دبر لي السيارة
بسرعة كما وعد. فتحت الباب فوجدت سيدة البازار واقفة أمامي
ومن خلفها الشمس كاملة.. وكانت تبسم وهي تسأل بلهجة عربية
واضحة:

- أنت دكتور يحيى؟



(٢)

ياسمينا

عزيزتي بيلا:

قال لي «زين» أن كبيرهم يعمل في وادي حبيبة.. وطلب مني أن أبحث عنه هناك.. ورفض أن يضيف أي تفسير أو أن يشرح لي شيئاً.. منذ قبلته وهو لا يتحدث إلا بالرموز وكل جملة مغلفة بالشفرات والأسرار.. لكنني حمدت الله أنني وجدته في النهاية.

عملت بكلام «زين» وذهبت بالفعل إلى «وادي حبيبة» بحثاً عنه حتى وجدته أخيراً.

عزيزتي بيلا.. أم أقول أمي الحبيبة. لشدة ما أفقدك يا حبيبتني. لبتك كنت معي اليوم في البازار لترى بنفسك؛ شاب وسيم.. أم أقول رجلاً وسيماً له وجه عجوز حزين دائماً وإن ابتسم لي بعينه أول ما التقينا.. ذكرني وجهه بـ «أندريا بوتشيلي» فور أن رأيته بالبازار.. له تقاسيم وجه «بوتشيلي» الذي أدمن سماع أغنياته. أترأى يمتلك حنجرة عذبة مثله؟ وكأنه رجل إيطالي يعيش في مصر. آه يا أمي.. هل تذكرين شجارنا الدائم سويًا عندما كنا في الإسكندرية..

كنت دائماً تغضبين مني عندما أقول لك إنني في الأصل إيطالية نسبة
 لابي.. كنتي تخصميتي وبتسوي وجهك وتتجاوزني عيناك وتقولين
 لي: «أنت يونانية.. يونانية مثل أمك.. والدك تركنا وحدنا، لكن
 هل كنت أفعل ذلك حقاً لأنني كنت مثل كل البنات في سني أريد
 أبا أنسب إليه؟ أم كنت ألومك في سري لأنني كنت أعلم أنه تركنا
 لإصرارك على العودة إلى مصر وإلى منزل جدي «روز» بالإسكندرية؟
 وإصرارك على بحثك عنها منذ اختفت في مصر وانقطعت أخبارها.
 سامعيني يا بيلا.. سامعيني يا حبيبي لقد كنت طفلة لا أعني ما
 أقول.. لكنك إن شئت الحق فدائماً ما كنت أجدي مصرية، مصرية
 مثل جدي روزو مثل الخال أنطوان. مصرية تماماً مثل ذلك الوسم
 الذي وجدته في بازار «عارف».

يقول «عارف» إنه دكتور بالجامعة.. وأنه كان يدرّس الآثار. عندها
 تأكدت من أنه من كان بقصده «زين» وكان عارف يساومني على بيع
 تمثال مي جدّاً للملك فرعوني. ألححت لعارف أنني سأعطيه ما يريدني
 البداية كي استنطقه عن ذلك الوسم الذي جاء لدقيقتين ورحل..
 وبعدما انصرف سألت عنه عارف وأنا أبرز له الخمسين دولاراً من
 التمثال الرديء فقال لي كل شيء في دقائق، قال إنه دكتور آثار بالجامعة،
 وأن ترك التدريس منذ سنوات، وأنه يقيم في الغردقة منذ وقتها لكن
 يبيت دائماً وحده في غرفته بكامب وادي حبيبة. ثم تابع عارف قائلاً
 إنه غريب وأن وراءه سرّاً لا يعرفه أحد.. كما يعتقد أنه هارب من
 جريمة ما ويختبئ هنا في وادي حبيبة. وعندما بدأ عارف في الاسترسال
 بمعلومات واضح أنها خيالاته هو، سألته عما كان يطلبه منه في الحاح

ويصر عليه.. فأخبرني أنه يريد أن يستأجر سيارة يذهب بها إلى قرية ما في داخل الجبل ليقابل أحد العرب بها.. لكن السيارات كلها كانت ضير متوفرة وقتها.. خيل إليّ أنه ربما تكون هذه فرصة لن تتكرر.. سألت «عارف» عن مكانه بالكامب فابتسم اللعين في خبثٍ وأشار إلى عمر بعيد توجد به مجموعة من الكرفانات المتصلة ببعضها.. وقال إن غرفته هي الأخيرة في الممر.

عزيزي بيلا.. لا أريد أن أطيل عليك في هذا الخطاب أكثر من ذلك.. لقد قابلته يا أمي.. اسمه يحيى، كان يبدو حزينًا جدًا، وكاد أن يلين ويقبل عرضي عليه.. لولا حظ ابتسك التمس دوماً.. لكنني أنتظره الليلة لعله يأتي، ليت يأتى، فأنا وحيدة هنا.. وحيدة جدًا يا بيلا.. وصرت أكثر وحدة بعد أن قابلت يحيى.

أحبك وأفتقدك..

ابتسك المحبة: ياسمين.



عندما كنت في البازار رأيت في عيني «يحيى» شيئًا يناديني بقوة. يقول لي أن تعالي وستجدين عندي ما تبحثين عنه.. وأنا كنت أبحث منذ سنوات، لكنني كنت أجهل ما هذا الذي أبحث عنه.. يأتيني النداء كل فترة منذ رحلت والدتي بيلا.. وكان آخر نداء هو ما رأيته جليًا في عيني «يحيى» وهو يستأذني قبل أن يخرج من البازار. لكن إن كان نداء حقيقيًا فلماذا رفض عرضي عليه عندما ذهبت إلى غرفته ١٩ وهل رفض حقًا أم أنه ادّعى الرفض. بدا لي وكأنه يقاوم شيئًا قبل

ان يوافقني لكنه اماسلم له في النهاية ورفض عرضي. هل ستخذه اني
انت ايضا يا يحيى؟.. كان نذاؤك لي قويا حتى انني تعمدت ان ارد
عليك بالعربية في البازار عليك تلمعت اليّ اكثر.. حاولت ان استفيك
رغم اني اتعمد دائما ان اخفي نطقي للغة العربية منذ رجعت الى
الإسكندرية بعد فراق دام أكثر من خمسة عشر عامًا، لكنني لم أياس
منك.. وقررت ان أحاول حتى النهاية.

يقول زين انني سأجد لديه الإجابة؛ لذا لا سبيل لذي سوى
الإجابة التي لم أكن أعلم من الأساس ما هو سؤالها.

استجمعت شجعائي وانجهت الى غرفة يحيى حيث أشار لي عارف
واخذت أقرع الباب مرات ومرات ولم يأتني رد.. خشيت أن يكون
قد دبر سارة بطريقة ما وضاعت عليّ الفرصة. ولم ألتق رقاً من
خلف الباب. قررت أن أمتسك في النهاية وأجرّ خيبي وأعود إلى
الاستوديو الذي أعيش فيه مؤخراً بالفردقة. وقبل أن أحرك قدمي
وجدتها لا تطاوعني على الرحيل، وسألت نفسي: هل وراء الإصرار
هذا شيء آخر غير الإجابة؟.. وخفت جداً.. فأنا أهرب من الرجال
ولا أسمى إليهم منذ ما حدث مع فيليب. ويجب أن أفيق لنفسي..
لقد كدت أن أفقد حياتي في آخر مرة.

اتخذت قراراً بالرحيل عنئذ، لكن خائفتني يدي وقرعت هي
الباب وحدها من ورائي، وسمعت حركة واضحة خلف الباب
ثم فُتح فجأة ووجدته أمامي.. ارتبكت بشدة فور أن رأيته أمامي،
وقلت دون حتى أن ألقى النجاة:

- أنت دكتور يحى؟

بدا مشدوهاً فور أن رأيته وسألني، وكنت أحاول أن أبطلع
إتسامة لأخفي ارتباكى الشديد، ردّ عليّ بعينين متفتحين:

- ولكنك...! أتحدثين العربية؟

قلت وقد زاد ارتباكى حتى بلغ أفصاء:

- نعم نعم.. أنا أصلاً مصرية.. أعني جدتي كانت كذلك.. لقد
مشت هنا كثيراً.

ولم أدر لماذا أجته مباشرة هكذا وأخبرته عنى وعم جدتي منذ أول
محادثة. كان يقف مفروداً الجسد أمام باب غرفته كأنه يحميها من دخول
أي أحد. ووجدت الموقف قد أصبح سخيفاً وكان لامع العينين وكأنه
على وشك البكاء. ظللنا صامتتين مكاننا حتى أحس رأسي قليلاً في
استفهام واضح فأدركت أنه لم أقل له أي شيء بعد فقلت:

- عذراً، لقد فهمت من صارف أنك تبحث عن سيارة لأصير
عاجلي ولا توجد سيارات متوفرة حالياً بجوارح الكامب ولقد جئت
هنا بسيارة مستأجرة من الفندق لفترة الإقامة.. ففكرت أنك ربما...
فاطميني يحى:

- ولماذا تتخفين إذا وراء لغة أخرى؟! من أنت؟

أحسست هجوماً في كلامه وتكسّفاً في لهجته، وجددتني أدافع عن
نفسي:

- أنا ياسميناء.. أنا يونانية في الأصل.. لكن جدتي كانت مصرية
وعشت هنا في منزلها سنوات طويلة.

قال بفضول وقد بدأت جدته تهذا:

- عش هنا؟ في الغردقة؟

- لا في الإسكندرية.. كان هذا منذ زمن بعيد..

وكان يجي ينظر إلى وجهي وعيناه تتفحصان شفاهي وكأنه يمررها
على جهازٍ لكشف الكذب داخل رأسه، ولم أكن أكذب.. قلت لـ
وأنا أفسر تحدثني الإنجليزية:

- أما بالنسبة للغة فقد..

لكنه قاطعني مشيراً بيده وقال:

- أفهم أفهم.. تبغين معاملة خاصة طول الوقت كالأجانب.

ثم ابتسم وتابع:

- لكنك ستدفعين كثيراً طوال الوقت أيضاً.

ضحكت وقلت وأنا أشير إلى التمثال الرديء في يدي:

- فعلاً.. لقد دفعت خمسين دولاراً في هذا العبث.. أتصدق؟!

تناول يجيى التمثال من يدي وأخذه ثم بدأ يتفحصه بعينين
خبيرتين وقال:

- هممم.. التمثال سيء فعلاً.. لكنه ليس سيئاً جداً كما رأيته
غاضبة في البازار.. هذا تقليد مقبول نوعاً لرمسيس الثاني.

- ماذا تقول.. بل سيء جداً.. انظر إلى قدمه اليسرى أعرف أنك
رمسيس الثاني بالطبع.. لكن أهذه قدم ملك أو حتى قدم رجل
عسكري؟

ولم استطع أن أشرح أكثر فقلت:

- Left leg step. You know this for sure!

وهنا اتبه بحمى لما أقصد وقال:

- نعم نعم فهمت مقصدك.. التمثال هنا ضامم قدميه جوار بعضها وليس كما هو شائع عند الملوك والعسكريين أن يتقدم بقدمه اليسرى خطوة إلى الأمام.

رددت عليه متصرة: أرايت؟

ثم بدا وكأنه اتبه لشيء ما فقال:

- ولكن من أين لك بهذه المعلومة؟ ولماذا تستنكرين عليّ الجهل بها؟ هذه معلومة يعرفها المختصون فقط.

ارتبكت قليلاً وخفت أن أفقد ثقته وقلت:

- سألت عارف عنك وأخبرني أنك دكتور بالآثار.

- وكيف تعرفين بالمعلومة أنت؟ هل تعملين بالآثار أيضًا؟

- لا إطلاقاً. أنا أعمل بالتسويق. أعني كنت أعمل بالتسويق سابقاً في شركات متعددة الجنسيات.. لكنني قرأت المعلومة ذات مرة لا أذكر أين.

عاد بحمى يتفحص التمثال مرة أخرى وقال:

- تقليد سيء فعلاً.. يمكنك أن تستعدي نفودك إن أحببت.

أنريدي أن أكلم لك عارف؟

قلت مقاطعة: لا لا بالطبع.. ما كنت اشتريته من البداية.

ثم صمت وبدأ أن الكلام انتهى ولم أجد ما أقوله ولا حفظت أن
يجبى كان ينظر خلف قدمي ناحية الأرض باهتمام.. هممت أن ألقت
لأرى ما الذي ينظر إليه فعاجلني بالسؤال قائلاً:

- ظننتك كنت تقولين شيئاً عن سيارة لديك؟

ابتهجت وقد بدأ يلين وقلت:

- نعم نعم.. لدي سيارة مستأجرة هنا معي إن كنت تريد

استخدامها.

نظر إلى ساعة يده وفكر قليلاً ثم ناولني التمثال بيده وقال:

- أحتاج إلى سيارة فعلاً لكنني لا أستطيع القيادة.

أخذت منه التمثال فلمست أنامله بيدي فارنعتت وابتعدت
خطوتين وجزع من ردة فعلي المبالغ فيها، فقلت متدركة الموقف:
- لا بهم يمكنني أن أوصلك.

وكان قلبي يرق خَوْفاً من أثر تبعات لمسه بيدي.. قال معترضاً:

- أشكر عرضك لكنني أفضل أن أنظر عازف.

أحس أنني فقدته مرة أخرى بسبب ردة فعلي الحمقاء.. وكانت
بيدي تتحسّس مندبلاً في حقيبة بيدي استعداداً للمفاجأة. قلت في محاولة
بائسة وقد رايت في عينيه رغبة قوية في قبول عرضي لا أدري لم يقاومها:
- ظننتك في عجلة من أمرك.. كنت تلح على عازف في البازار.

وعلى ذكر السيرة ظهر الملعون عازف فجأة من تحت الأرض
جاء على ناصية الممر المؤدي إلى الغرف وقال:

- السيارة جاهزة يا دكتور يحيى.

وابتسم بحبيث لي عندما رأيته واقفة مع يحيى أمام باب غرفته ثم
انصرف. التفت إلى يحيى وقال:

- لقد حُلت مشكلة السيارة.. أشكرك على أي حال.

ثم عاد يلتفت إلى الأرض من خلفي.. قلت بإحباط شديد:

- عفواً.. لا داعي لذلك.

واستدرت كي أرحل وكلّ غضب وإحساس بالفشل.. حرّك يحيى
باب غرفته متأهباً لإغلاقه فقلت مرعوبة في محاولة أخيرة فاشلة
لاستبقائه:

- هل تصرف مقهى يقدم قهوة تركية جيدة في مارينا في الغردقة..
سمعت من عارف أنك تعيش هنا منذ سنوات.

قال وقد وارب معظم الباب:

- يبدو أنك سمعت عني الكثير من عارف.. جربي كافيه «cave»
قهوته ممتازة على أي حال.

وقبل أن يخلق الباب ثماماً قلت بسرعة وأنا ابتسم:

- تشرب معي قهوة الليلة عندما تعود؟

فرّة دون تردد:

- متأسف سأكون مشغولاً.

وبدا مرتبكاً بعدما استأذنتني أن يخلق الباب.

أوليته ظهري وانصرفت، وسمعت يخلق الباب خلفي وأحسست
وكان قد أغلقه على روحي.



كان وجهي محمراً وقد أحسست بحرارته الشديدة.. تناولت المنديل
الذي أحمله معي دومًا من حقيتي وضغطتُ برفق فوق شفتي
وأُنفي.. ونظرت إلى المنديل فوجدته كما هو.. وفررت من الكامب
كله وعدت إلى الاستديو في الغردقة.

وصلت الاستوديو خلال وقت قليل جداً بعد قيادة سريعة منتهرة
على غير عاداتي.. وكان وجهي يحمر وهو يقول لي معتذراً «متأسف
سأكون مشغولاً» لا يفارق عيني.. وأنا التي لم أتوسل إلى رجلٍ من
قبل طيلة حياتي.

القيت حقيتي فور أن دخلت الاستديو وخلعت ملابس علي عمل
عجل ورحلت الحُثام لأغتسل من أتربة الكامب.. ومن عيني يحمر.
أدبرت أغنية «سبلن ديون» هذا هو الطريق، ورفعت صوت «الأي
بود» إلى أقصى درجة ممكنة.. وتركت نفسي للعباء الساخنة تغسلني..
وفور أن بدأ الماء يذاعب جسدي بدأت روحي تهدأ.. فأنا ابنة البحر
سواء هنا في الغردقة أو سابقاً في اليونان.. أو حتى قديماً في الإسكندرية..
نظرت إلى جسدي في مرآة الحُثام الكبيرة وقد بدأ بخار الماء يعلق بها
وتشوئش انعكاس جسدي فيها.

كانت أمي «بيلا» تقول أنني لم أرث من أبي سوى طوله.. بينما
ورثت منها ومن جدي المصرية «روز» وجهها إغريقياً وعينها مصرية.
وقع جدي اليوناني فيليب في هوى جدي عندما كان يعمل على
متن إحدى سفن الشحن بميناء الإسكندرية في الخمسينيات.. وقد
أخذته الجمال المصري وصرعه دلال جدي حتى إنه ظل عامماً كاسلاً

يسعى لتبيل رضاها ولم يخش من والد جدتي الضابط في الجيش المصري. وقد كانت بداية حكم محمد نجيب. وفي الفترة التي نشب فيها الخلاف بين عبد الناصر ونجيب سافر جدي إلى اليونان ومعه جدتي روز هرباً من مصر. وأرسلت هي خطاباً بعد سنوات إلى أختها الكبيرة تريز وبه صورتها هي وجدي وبمحملان الصغيرة «يلا» بين أيديهما.

تقول أمي إن أهلها حاولوا مراسلة «روز» لأعوام طويلة لكنهم لم يعرفوا لها عنواناً.. ولم يعلم أحد لماذا قررت جدتي فجأة وبعد عشرين عاماً أن ترجع إلى الإسكندرية.. وكان هذا في بداية أوائل السبعينات.. تركت ابنتها «يلا» مع جدي فليب وكانت أمي في الثامنة عشر من عمرها. ورأيت أمي وجدي وطعامتهم على أمورهما في مصر. ثم انقطعت أخبارها فجأة وظل جدي يحاول أن يصل إليها بأي طريقة فلم يجد بُدّاً من السفر إليها في مصر.. وعاد يمر حنينه وحزنه ورأه. فقال لأمي إنها أخذت تنتقل بين مدن مصر ومعها الصبي النوبي «زين» والذي كان يعمل خادماً في سراي والدها المصري في انغولا بالإسكندرية. وكان آخر خبر عنها أنها كانتا يجهزان ل سفيرة إلى مدينة في الجنوب ظن والدي وفنها أنها مدينة «قنا» بصعيد مصر. ولكنه لم يجد أي خيط يدلّه من أين يبحث. خاصة أنها كانت أيام حرب في مصر.

عندما كنت في السادسة من عمري وكانت أمي قد تزوجت واستقرت في نفس البلدة باليونان. صحوت على مشاجرة تكرر منذ أيام ولا أفهم منها شيئاً بين أمي وأبي.. وكان يشير إليّ ويؤكد صائخاً على أمي أنه لن يسمح بذلك.. ولا أذكر من المشاجرة أي شيء سوى

أنني وجدت نفسي مع أمي بعدها يومين في طائفة قالت لي أمي إنها
ستذهب بنا إلى الإسكندرية.

لم أعلم كيف قدّمت بيلا نفسها في منزل عائلة روز القديم.. ولكن
قد مضى على اختفاء روز أكثر من خمسة عشر عامًا.

كنت طفلة.. وفرحت بالقبول الكبيرة وبالعرفة الواسعة المطلّة
على البحر والتي أعطوها لنا كي نعيش فيها.. قالت لي أمي أننا
سنظل هنا لمدة عام كامل.. فالتها عن المدرسة، وعن أصدقائي
الذين كنت ألعب معهم.. فصاحت بي غاضبة وقالت لي كلامًا كثيرًا لم
أنهم وقتها لصغر سني.. ولم أكن غاضبة أو أشعر بأي غربة.. كانت
الإسكندرية بالنسبة لي لا تختلف عن «رودس»^(١) كثيرًا.. فكلاهما على
البحر.. وهو الشيء الوحيد الذي كان يهمني. ولم أعلم أنني سأفني
في الإسكندرية عشر سنوات قبل أن أرجع إلى اليونان مرة أخرى.

منذ اليوم الثاني لوصولنا بدأت بيلا رحلة البحث عن العبي
«زين».. فكما عرفت من خالها كان آخر شخص يعرفونه موجودًا
معه.. وكانت تأخذني كل فترة للبحث في حي مختلف من أحياء
الإسكندرية العديدة.. وبعد عدة أشهر.. وبعد أن اكتشفت أن الأمر
سيطول توسط لنا خالها أنطوان وقدم أوراقي للدراسة في «ليب
الحرية» لإكمال دراستي في مصر.. والتحقّت بيلا لتدريس اللغات في
نفس المدرسة، وفي غضون أعوام قليلة صرت طفلة مصرية خالصة..
حتى إن بيلا كانت تداوم على الحديث معي باليونانية كي لا أنساها.
في عامي الأول في ليسيه الحرية كان الأولاد والبنات ينظرون إليّ جبهة

^(١) هي جزيرة بونابطة تقع بالقرب من الساحل الجنوبي لتركيا.

نظرة استغراب طوال الوقت.. رغم أنني لم أكن شغراء، لكن ملامح وجهي كانت إغريقية تمامًا.. خاصة ذقني وشفتي.. ورغم إحساسي بالاختلاف عنهم إلا أن ذلك لم ينتج عنه انطواء أو خوف.. انغمست في المداقات ومصادفت كل من استطعت.. صرت الصديقة المفضلة لكل بنت وكاتبة أمرار الأولاد في الفصل.. وفي بداية العام الجديد أصبحت زميلة لأهم شلة في المدرسة.. خاصة بعد أن أصبحت والدتي «بيلا» هي ممرسة اللغة الإنجليزية للمرحلة الابتدائية.. وأصبحوا ينادوني في المدرسة «ياسينا بنت بيلا».

كان يومي في الإسكندرية ينقسم نهارًا بين المدرسة والبحث مع بيلا عن أي خيط يقودها إلى جدي «روز» أو حتى إلى الصبي المختفي «زين»، وكان المساء غالبًا أقضيه مع بيلا ونخالها أنطوان، الذي اكتنس بوجود أحد معه في الفيلا الواسعة التي أصبح يعيش فيها وحده تقريبًا.

في العام الثالث لي بمصر كنت قاربت العاشرة من عمري، وفي المساء وأنا أجلس مع الخال أنطوان وكان يحاول جاهدًا أن يعلمني لعبة الشطرنج كي أشاركه اللعب بعد رحيل صديقه المقرب والأخير قتالي لي:

- أنت ذكية جدًا يا ياسينا.. مثل والدتك.. بل أنت ذكية مثل جدتك «روز»

قلت له: كيف كانت جدتي روز؟

شرد بعينه وهو يشير إلى صورة لها على الجدار قائلاً:

- كانت أجمل بنات الإسكندرية.. وأكثرهن ذكاء.. ولولا أن خطفها

منا جدك «فيليب» هذا لكانت زوجة رجل مهم الآن.. كان شهاب الإسكندرية جميعهم يخطبون ودعاه.. حتى أن رجلاً ذو شأن هنا طلب يدما لابنه الذي كان مهندساً كبيراً في البحرية.. إلا أن جدتك تركت كل هذا وأجبت عاملاً بسيطاً من قرية فقيرة في اليونان.. وهربت مع في أيام سوداء.

- ولكن بيلا تقول إنها عادت إليكم من النهاية.

- لا يا ابتي.. لم نعد إليها.. عادت لأمر لا يعلمه أحد.

- كيف؟

- قلت لك لا أحد يعلم لماذا عادت.. لم تكن نعرف لها عنواناً في اليونان.. فقط بعد موت أختك الكبيرة تريز ظهرت جدتك فجأة.. لم يعاتبها أحدٌ على اختفائها كل هذه السنوات.. رحبنا بها وأكرمناها حتى إننا طلبنا منها أن نرسل إلى زوجها إن كان يريد أن يأتي هو أيضاً ويعيش معنا.. وكانت قد تركت والدتك معه وهي شابة.. لكنها رفضت تماماً وأحسنا أن الأمور بينها وبين جدك لم تكن ناعماً تترك مصر من أجله كما نحببنا.. وقضت معنا شهراً ثم اختفت هي والمدعو «زين».

كنت قد حفظت اسم «زين» من كثرة ما كانت تردده بيلا ونحن نبحث عنه.. وفي مسهرة أخرى وأنا أجاهد كي أحافظ على وزيري من تربص الخال أنطوان به في الشطرنج دخلت علينا «بيلا» صائحة بعد عادثة هاتفة:

- لقد وجدت منزل «زين».

وكانت ترقص من الفرحة.

سألها أنطوان كيف وصلت إليه فأجابته أن مدرسًا زميلًا لها سأل عنه ساهرة شفق أصدقاء له حتى عرف مكان الغرفة التي كان يعيش فيها.. كانت «بيلا» من شدة فرحتها تود لو تذهب إليه فورًا فسألها أنطوان أن تذهب باكراً لتأخر الوقت.. فأطاعته احتراماً له.

وفي غرفتنا قبل النوم أخذتُ ألع عليها أن تأخذني معها لكنها رفضت.. فاصطنعت بكاء فقالت أنهم سيماقبوني في المدرسة قلت لها بين بكائي في فخر لم ألقه «أنا ياسمينا بنت بيلا» لا أحد يستطيع أن يؤذي بي، فضحككت واحتضنتني ثم وافقت.

جاء الصباح غيماً لكل آمال بيلا. كان العنوان بأحد الأزقة المتروية في حي رأس النين. ولم يكن بعيداً عن فيلا أنطوان. دخلنا إلى حارة «زاوية بكير» وصعدنا إلى سطح المنزل المذكور لكن الباب الحديدي الخاص بغرفة «زين» المغلقة كان ينظر إلى بيلا في عناد واضح.. وسألت أمي سيدة تفرش الأرض أمام غرفة مجاورة له على السطح فقالت إنها لم تسمع عنه.. وقالت إن الغرفة لم يسكنها أحد منذ جاءت هي إلى السطح.. لم تسلم بيلا في البداية وسألت عن صاحب العقار فلم نجد سوى زوجته.. وكانت تعرف زين جيداً وقالت أنه سكن هذه الغرفة قديماً لكنهم لم يروه إلا مرات نادرة منذ زمن.. ورغم ذلك عادت بيلا إلى غرفة زين وأخرجت قصاصة ورقية كتبت فيها شيئاً وألقته تحت عتبة الباب.. ثم ذهبت.

خرجنا أنا وأمي من «زاوية بكير» إلى الشارع الرئيسي.. وعند

ناصيته كان هناك بائعاً على عربة للسندوتشات مكتوب عليها برسم
ملون «أكل بحري».. وكان منظره جذاباً بشدة فأشرت لأمي وقلت
أنني جائعة.. لكنها لم تلتفت إليّ وأشارت إلى التاكسي.. وظلت صامتة
طوال يومين بغليها الإحباط الشديد.. ثم بدا أنها قررت أن تنسى..
ولم نعلم أنا وأنطوان أنها بدأت تراسل والدي من وراء ظهورنا.

طال صمتها وطالت وحدتها واكتئابها.. بينما زادت مهارتي في
الشطرنج وأصبحت أمزم أنطوان في بعض الأحيان.. وزادت شعيتي
في المدرسة أيضاً.. وانضمت إلى فريق المدرسة للكرة الطائرة
وأحرزت بطولة المدارس معهم مرتين وازداد طولي سريعاً وانجهت إلى
السباحة.. وقبل موعد أول بطولة للسباحة قررت أمي أن نعود إلى
اليونان فجأة.. وكنت في نهاية الصف الأول الثانوي.

توسل إليها أنطوان كثيراً وغضبت منها أكثر.. قال: «أنا رجل
عجوز - لم يعد لي أحد سواكم».. فردت عليه:

- ياسمين كبرت.. ولا بُد أننا سنعود إلى اليونان في النهاية.. وكلما
ناخرت كلما تعقد موقفها في إكمال الدراسة هناك.. نفدت حججي
أمام والدها.

ردّ عليها غاضباً:

- وكأنك تعلمين له حساباً.. أنتِ مثل أمك.. لا تفكرين سوى
في نفسك.

- إن كنتِ تخاف من العيش وحيداً تعال أنت معنا.. يمكنك
تدبير السفر والإقامة هناك بسهولة.. معارفك كثيرون.

ردّ بغضب أكبر:

- وهل يعقل أن أترك أنا بلدي؟

- إذا لماذا أترك أنا بلدي وبلد ياسمين؟

- أصبحت اليونان بلد ياسمين فجأة.. ستظل ياسميناً مصرية

حتى ثوت.. شئت أم أبيت.

وانتهت المشاجرة بينهما ولم تنتهِ الأسئلة. حاولت «بيلا» أن تشرح لي وجهة نظرها في العودة.. وكنت أصدّقها. لكنني لم أستوعب بسهولة فكرة أن أترك أصدقائي وحياتي فجأة هكذا.. وقالت «بيلا» كثيرات هنا يجلسن بالسفر خارج مصر، فقلت لها إنني لست من هؤلاء الكثيرات. لكنني عندما خرجت في الليلة التالية مع صديقاتي بالمدرسة لأودعهن، وبعد ما رحلن جميعاً رحت أتمشى وحدي على كورنيش الإسكندرية لألقي عليه وداعاً أخيراً وأنا لا أعلم متى سأعود إليه ثانية؟ وهل سأعود أصلاً أم لا.. لكنني بعد دقائق قليلة من التمشية بدأ بعض الشباب في مضايقتي حتى إن أحدهم حاول التحرش بي. فأحسست بالفعل أنني أجنبية وتركنا مصر وأنا غاضبة بشدة من هذا الموقف الذي لم أنه.. لكنني بكيت حزناً فور أن صارت الطائرة بين السحاب متجهة إلى مجهول جديد. وهبطت الطائرة في أثينا أولاً ومنها إلى جزيرة «رودس» موطننا الأول.

خطوت الجزيرة بقدمي وكأنني أزورها أول مرة.. رغم أنني قضيت السنوات الأولى من عمري بها.. لكنني بالطبع لم أذكر سوى بيتنا القديم بصعوبة.. وتوقعت أن أجد والدي في انتظارنا،

لكن بيلا قالت إنه سافر إلى إيطاليا وسيعود قريباً.. فهمت أنها
تعمدت أن تعود في وقت سفره.. وقالت أنها تريد الاستقرار أولاً في
البلدة قبل أن تحسم أمرها بشأن أبي.

لم نجد أمي صعبة في الاندماج سريعاً.. لقد عاشت معظم سنوات
عمرها هنا على عكسي تماماً.. فقد قضيت وقتاً طويلاً قبل أن أدخل
ثوب المصري وأرتدي اليوناني بدلاً منه..

كانت «رودس» رغم أنها جزيرة فقيرة في أوروبا إلا أنها كانت
ثديدة الجمال.. كنا نسكن الحي الفقير من البلدة.. جميع البيوت
هنا طابق أو طابقان.. معظمها طليت باللون الأبيض.. ولها أضواء
أحدهم إليها لون البحر فوق أحد جدرانها ليميزها.. وسألني جارة
بدينة عن أمي فقلت لها «أنا باسمينا» ثم تابعت: «يا سمينانت
بيلا» فابتهجت المرأة بشدة وقالت: «بيلا.. الجميلة بيلا.. هل عادت
أخيراً؟». وانطلقت تحب كل الجيران.

كانت البيوت متلاصقة في ذلك الحي حتى أن منزلنا امتلأ مساءً
بعدد كبير من الجيران المهتمين لأمي بعودتها.. وسألتها إحداهن ماذا
تنوي أن تعمل وهل ستعود للتدريس في المدارس المحلية فقالت إنها
اكتفت من التدريس، وستقوم بفتح محل لبيع الأزهار في المنطقة
السياحية بالجزيرة.. لكنها ستنتظر عودة أبي حتى يشاركها فيه.

استغرقت المعادلة عامًا كاملاً حتى يتحول الصف الأول الثانوي
إلى «grade ١» ويتحول صباح الخير إلى «كاليميرا» والتحققت بمدرسة
محلية، واستغرق محل الأزهار من «بيلا» عامًا كاملاً.. وطلب

والذي الذي كان قد عاد إلينا أن نؤجل افتتاحه حتى تنتهي امتحاناتي
بالمرحلة النهائية من المدرسة.

نشجرت مع بيلا في إحدى الليالي قبل الامتحانات بأسبوع واحد
بسبب إهمالي المذاكرة وقد اقترب موعد الامتحانات النهائية. قالت
إنها أريدت حياتها كلها لكي أنجح وأنجاز هذا الامتحان المصيري..
فقلت لها بخافة شديدة إنه لم يجبرها أحد على شيء.. وبعد أن دخلت
إلى فراشي حزنت من ردي عليها وفكرت أن أقوم لأصالحها.. ونويت
أن اعتذر لها صباحاً.. وفي تلك الليلة المشوشة أخذت أحلم طوال
الليل بجدي روز.. ولم أكن قد رأيتها من قبل سوى في بعض الصور
القليلة. كانت تصرخ في الحلم دون صوت وقد قيدت إلى فراش معدني
ليس عليه أي غطاء في غرفة شديدة الظلمة.. وكانت جدران الغرفة
تتقرب وتضيّق على بعضها بعضاً.. وظل الحلم يتكرر طوال الليل.
فمت لاهة من نومي وصعدت إلى غرفة بيلا في الطابق العلوي
فوجدت فراشها غارق في الدماء ووجهها شاحب تماماً.. صرخت
مستغيثة بالجيران ولم يكن أب في المنزل بل كان في إحدى سفريات
الطويلة لإيطاليا.. وعندما وصلنا إلى المستشفى أخبرنا الطبيب أسفاً
أنها قد رحلت.

ظللت أصرخ وأنادي على «بيلا» ثم أفقد رعي وأقوم لأظن
أنه كابوس فأوفس أنها رحلت فأعود لأصرخ وأصرخ ولم أصدق أنها
رحلت هكذا.. وقال الطبيب إنها ظلت تنزف طوال الليل دون أن
تسهر حتى ماتت.

عاد أبي في نفس الليلة ليأخذني من عند الجيران وقد رفض أن يتركني أبيتٌ وحدي في المنزل.. وأخذت أبكي بين يديه طوال الليل ولم أستطع أن أصدق أنها رحلت هكذا وتركني وحدي.

لم أدخل الامتحانات بالطبع ولم أستطع أبي أن يجبرني على شيء.. كان يشعر بالذنب لعدم وجوده تلك الليلة جوارها.. وكنت أصر بالذنب لأنها ماتت وهي غاضبة مني قبل أن أعذر لها.. ومن وثها لم أنقطع عن الكتابة إليها علَّها تساعني.

فاتني عام دراسي للمرة الثالثة في حياتي.. أصبحت في الثامنة عشر من عمري وأنا لم أنهِ دراستي الثانوية، ولم أستطع أن أصنع أصدني في المدرسة في «رودس» مثلها كان الحال في الإسكندرية.. وبعد رجل «بيلا» بثلاثة أشهر طلبت من والدي أن يساعدي لأفتح محل الزهور الخاص بأمي.. والذي لم يمهلهما القدر أن تفتحها بنفسها.

لم يتحمس في البداية لكتني تعللت بأنني سأحاول أن أدر من المال كي أكمل دراستي الجامعية بأثينا بعد انتهاء هذا العام فرحب بذلك.. وفي يوم الافتتاح امتلأ المكان بأوجه المهشرين الذين رأيتهم في أول يوم قدمنا فيه إلى «رودس» وكانت سيرة «بيلا» هي الحاضرة طول اليوم على السنة الجميع.

كان نوافذ الزبائن على المحل مقبولا في البداية.. فكان معظم زائريه من أهل «رودس» الطيبين.. وبالطبع كانت يقومون بشراء الأزهار مني إكرامًا لذكرى «بيلا» لكن هذا التعاطف لم يكن كافيًا كي أستمرو.. وكان هدفي الأساسي السائحون الذين يقصدون الجزيرة.

فهي معتمدة على السباحة في المقام الأول.. أخذت أفكر في طريقة مناسبة لاستقطابهم ثم اهتديت إلى فكرة أعجبتني جداً.

جعلت أولادًا وبناتًا صغارًا من جيراننا يقفون على نواحي قرية في الطريق من وإلى الشاطئ.. وجمعت أجمل الأزهار لئلا يذهبها المحل، ثم جعلت كل واحد من الأولاد يقوم بمنح زهرة واحدة لمن يظن أنه سائح وليس من أهل «رودس».. وكانت كل زهرة معها بطاقة كُتِبَ عليها «هذه أسوأ زهرة عندنا في المحل.. نتظركم لتريكم الأجل».. وطبعت عليها مكان المحل.. وبدأ الزبائن يتوافدون سريعًا.. ثم نهني أحدهم أن كلمة «أسوأ زهرة» غير مناسبة وقد ترك وقفاً سلباً لدى السائح.. فاستبدلتها بكلمة «هذه أقل الأزهار جمالاً».. ولزاد توافد الزبائن أكثر.. وجاءتني أول أزهار «فيليب» بعد ثلاثة أشهر من افتتاح المحل.

كنت أقوم عادة بفتح المحل بنفسي في الثانية عشرة.. وهو الوقت الأنسب الذي يبدأ فيه السائحون في التوافد على المنطقة التجارية للتبضع والشراء.. وأمام المحل وجدت إحدى أزهارني ملصقة على زجاج الباب.. ومعها بطاقتي وقد كُتِبَ عليها بخط مرئي «إلى فينوس المصرية.. أجمل زهرات اليونان والعالم».

أعجبتني الطريقة جداً ورق لها قلبي.. وقلت لنفسي «زهرة هدية للمحل للزمور.. هذا مسلٌ جداً».. ثم بدأت أنتظر تلك الزهرة في كل صباح وفي كل مرة تأتي بطاقة غزل مختلفة.. وكتب من يتركها في مرة «إلى بيلوتشي رودس».. أنتِ أجمل منها».. وكان يقصد مونيكاً بيلوتشي.. فأشارت البطاقة فضولي أكثر وتركتها مساءً في نفس مكانها

وكتبت عليها «أظهر نفسك».. فجاءني وقدم نفسه أنه «فيليب»
وكانت معه باقة رائعة من أجمل الزهور في اليونان وقلت له مازحة:
- أنشترني من المنافسين إذا؟!

فرد:

- امرؤ أمام المحل كل يوم.. لكنني خفت أن يضايقك تطفلي.. لكن
لم أنشر هذه.. لقد جمعتها لك بنفسني.. أقسم لك بجمالك.

كان وسيما وله شعرٌ ذهبيٌ قلما رأيته بين الشباب في دروسه،
وظنته سائحاً في البداية لكنه أخبرني أنه من أهل رودس.. وكان
يسكن الحلي الراقعي بالجزيرة.. وبدأ قلبي يذوق لأحدهم للمرة الأولى
في حياتي.. وكتبت إلى «بيلا» في المساء أحكي لها عن الوسيم «فيليب»
وكان أكثر ما جذبني إليه هو أن اسمه كان على اسم جدي.

استجبت سريعاً لمواعدة فيليب.. كانت الأماكن التي يتردد عليها
جديدة علي.. رغم أنني أعيش في الجزيرة لسنوات ثلاث إلا أن أصوله
الغنية كانت تنعكس بالطبع على أماكن خروجه المرفهة، وكان منها
بتاريخ الجزيرة العريق وينسب بعضاً منه إلى عائلته الغنية.. وفي عيد
ميلادي التاسع عشر اتفق معي أن نخرج سوياً في نزهة بالدراجان
إلى «وادي الفراشات».. وكان من الأماكن التي يقصدها السائحون
وأسمع عنها دوماً.. لكنني لم أزره من قبل.. كنت أدخر مالي كل
لأجل الالتحاق بالجامعة نهاية العام في أينا.

وفي أحد الأعياد مر علي فيليب في المحل وفي يده باقة رائعة من
الأزهار التي جمعها من حديقة منزلهم الخاصة مرفقاً معها بطاقة غزل
يتمنى لي فيها عاماً جديداً وسعيداً.. ولم تكن أول هداياه لي هذا اليوم

احضر معه دراجتين فقلت له إنني لا أعرف كيف أقودها..
ترك إحداها أمام المحل وقال لي: «سأعلمك كيف تركيها» فقلت:
«موافقة لكن ليس أمام المحل...»

ذهبنا إلى «وادي الفراشات» في الجانب الغربي من الجزيرة.. وكان
قرارنا ترك أحد الدراجات صائبا إذا اضطررنا بعد قليل أن نستقل
حافلة متجهة إلى الوادي فقد كان بعيدا جدًا.. وكان الأمر سيصبح
أكثر تعقيدًا لو كانت الدراجتان معنا.

نور دخولنا إلى وادي الفراشات لحظف عيني جهالة.. واستنكر
فيليب عدم قدومي إليه من قبل، رغم أنني أسكن في الجزيرة.. طلب
مني فيليب أن أركب الدراجة وسيقوم هو بإسنادي كمي لا أقع حتى
أنعود ركوبها فلا أحتاج مساعدته.. وانطلقنا ننتوه في الوادي.. وكان
يتعمد أن يمكني ويضم جسدي إليه كل دقيقة خوفًا منه أن أقع..
فكنت أبعد في دلالٍ بدا يشبه.

وعلمت أن اليرقات في موسم الأمطار تتحول حتى تصير فراشات
جميلة بديعة من سلالة فراشات النمر.. وفي موسم الجفاف تهاجر كل
الفراشات تقريبًا إلى أكثر مكان رطوبة.. فلا نجد أفضل من الوادي..
حتى إنها كانت تغطي معظم الأشجار في كل مكان.

وتركنا الدراجة جوار جذع شجرة كبيرة حولها الكثير من
الفراشات ورفعت يديَّ عاليًا وصفتت بهما قطارت الفراشات من
حولنا فصرخت فرحة وكان منظرها جميل جدًا، إلا أن «فيليب» أمسك
بيدي عندما هممت أن أصفق بيدي مرة أخرى قائلاً:

- أرجوكم.. لا تفعلوا هذا، الفراشات كائنات ضعيفة جداً ..
وتعيش على مخزون ضئيل من الدهون التي احتفظت بها عندما
كانت برفة.

قلت ولم أفهم قصده:

- وما المشكلة في التصفين؟

- المشكلة أن الحركة والصوت الكثيرين حولها يضطرها إلى التحليز
بشكل مستمر.. وتنفد الكثير من الطاقة في ذلك.. وربما تموت قبل
التزاوج.. فهي لا يمكنها تعويض هذه الطاقة مرة أخرى.

ابتسمت وقلت: فيليب الذي يعرف كل شيء.. ثم اصطنعت
أنني سأقوم بالتصفين مرة أخرى لأمازحه فأمسك بيدي بسرعة
فقلت له:

- لكنني أريد أن أصفق.

- لا مشكلة.. نأخذ جولة أخرى ثم نذهب إلى حيث يمكنك
التصفين على راحتك.

نقلت وأنا أغمز له بعيني: جولة أخرى من دون الدراجة.

فضحك ورحنا نمشي في الوادي لنصف ساعة ثم خرجنا إلى
أقرب شاطئ قابلنا على الطريق.. وكان فيليب يعرفه.. ترك الدراجة
على مدخل الشاطئ وخلعنا حذاءينا وأخذنا نتمشى فوق رمال
البيضاء الناعمة.. وكان واضحاً أنه أحد شواطئ الأثرياء التي يعرفها
فيليب وسأني إليها دائماً. ولم يكن الشاطئ مزدحماً.

وصلنا إلى زاوية في نهاية الجزء المهد من الشاطئ أمام كوخ

خشبي صغير.. كان أحد الأكواخ الملقاة بلطف أمام البحر مباشرة
ولما وجدت فيليب سأله لماذا توقفت فقال مبسمًا:

- لننزل إلى البحر ألم تغرك المياه؟

قلت له في دلالٍ واضح:

- لكني لا أستطيع السباحة.

وكان يعرف أنني أكذب فقال: أعلمك.

تابعت في دلالٍ أكبر:

- ليس معي ثوبٌ للبحر..

فخلع فيليب قميصه أمامي وصار عاري الجسم ثم أخرج مفتاحًا
من جيب البنطلون الجينز الذي كان يرتديه وقال:

- أعلم طبعًا.. نحضرت لهذا

ثم اتجه إلى باب الكوخ الخشبي الصغير وفتحته أمامي في استعراض
وقال:

- تفضلي..

ظفرت بعيني من باب الكوخ فوجدته فارغًا.. لم يكن به أي
أثاث، فقط شمسية للبحر ومقعدٌ صغيرٌ.. وكان فوق المقعد لفافة
ملونة فهمت أنها هدية لي.. طلب مني أن أقوم بفتحها ولما فتحتها
وجدت داخلها زجاجة عطر غالي الثمن وثوبًا للبحر.. تفحصته
يسلي فوجدته جميلًا ويبدو صغير للغاية.. قلت له بسرعة:

- لا تظن أنني سأرتدي هذا أمامك.

ردًا مازحًا:

- لا بالطبع.. سأنتظرك بالخارج.

فهمت أنه يراوغ فقلت وأنا أفحص الثوب بيدي ثانية بيدي:

- لكنه عارٍ تمامًا.. كما أنه يبدو صغيرًا عليّ.

- ارتديه ثم دعيني أراه أولًا. إن لم يعجبك فلن ننزل إلى البحر.

- لن نراني في هذا الثوب إلا في أحلامك.

فأقرب مني وقال:

- رايتك فيه في أحلامي كثيرًا وكنت رائعة ومثيرة.

وضعت الثوب على المقعد وقلت له:

- لا.. لن ارتديه، سوف أنزل إلى البحر بملابسي. كنت أنزل إلى

البحر في الإسكندرية هكذا.

وأشرت إلى ما ارتدتي، فقال فيليب:

- مم.. يامسينا نكذب! ألم تقولي منذ قليل إنك لا تستطيعين

السباحة.

فأقربت منه وعُدت إلى دلاي وقلت:

- ألم تقل إنك ستعلمني السباحة؟

وضم يديه حول خصري وبدأت أنفاسه المنهبة تقرب من وجهي فأغمضت عيني وتركت له شفتي كي يقبلهما وأخذ فلبي يندق في سرعة.. وبعد ثوانٍ أحسنت طعمًا مالحًا لائلا في فمسي ففرغت وأبعدني فيليب أيضًا.. نظرت إلى وجهه وذعرت أكثر وكانت

نصفاء مغطين بالدماء، وقبل أن أنطق أشار إليّ قائلاً في رعب:
- باسمينا.. أنت تنزفين.

وضعت يديّ لا إرادياً على أنفي وشفنيّ فعادتتا ممزوجتين بدمائني
وأحسّت مخونة بمائلة بين قدمي.. ثم سقطت مغشياً عليّ.



(٣)

يحيى

امنعاذ سائق السيارة بإله من الشيطان الرجيم وانحرف بالسيارة في سرعة حتى كاد أن يصادم المثلثم ذا العبادة البيضاء الذي ظهر أمامنا فجأة على جانب الطريق المؤدي إلى قرية الجبل، وفور أن تجاوزناه زاد من سرعة السيارة حتى أنها أخذت تتخط بنا فوق الطريق غير الممهّد في عمّرات الجبل، فطلبت منه أن يهدئ من سرعته قليلاً لكنه لم يستجب.. قلت له:

- لماذا لم تتوقف؟ ربما كان يريد مساعدة.. لقد لمحت زجاجة مياه فارغة في يده وكان يشير بها إلينا.

ردّ السائق المذعور وهو لا يزال يستعيز بالله:

- يا دكتور يحيى.. أنت قد أصبحت ابنًا للعكان وتعرف أن منهم.. تعلم مثلي أنه أحد عقاريست الصحراء.
- ربما كان غريباً أو أحد البدو وقد ضل الطريق.

فاستمر في رفضه وقاطعني قائلاً: «مستحيل».. وظل ينهب الطريق في سرعة.

يسموتهم هنا في وادي حبيبة «عفاريت الصحراء».. حدثني عنهم الشيخ ياسين وحذرتني أن التفت لأحدهم إن رأيته.. ولم أرَ أحدًا منهم منذ قدمت إلى الغردقة سوى مرة واحدة أثناء عودتي ذات يوم من «سهل حشيش».. كان يقف أحدهم على جانب الطريق في صمتٍ وهديرٍ وظل ينظر إلى السيارة التي ارتعب صاحبها مثلما حدث الآن. ولبت بجسدي إلى المرأة أنظر فيها إلى ذلك الرجل الذي كان بشير بزجاجة الماء منذ قليل وكذا أن نصدمه.. وفور أن نظرت في مرآة السيارة أنفحص الطريق بدأ وجه «زينب» في الظهور.. وكان وجهها قلقًا وليس حزنيًا كالمعتاد.. وعلمت أنها ستعاتبني على حديثي السابق منذ ساعة مع «ياسمين» أمام غرفتي بالكامب.

لم أدر حقًا هل كان إحراجي المتكرر لياسمين ورفضها السخيف دعوتها الصريحة إلى مارينا الغردقة كان مبه الحقيقي خوفي من سطوة جلالها وإمكانية تورطي معها.. أم أنه كان خوفًا من غضب «زينب».. الغائبة الحاضرة دومًا؟

هل حقًا كنت أرغب في أن تذهب «ياسمين» سريعًا من أمام الغرسة؟ لماذا إذا كنت خائفًا من أن تلمح المقرّب الأسود الصغير الذي أخذ يحوم خلف قدميها وهي واقفة تتحدث دون أن تشعر به؟ ولماذا حاولت أن أصرف انتباهها عنه قبل أن تلتفت وتراه؟ لماذا لم أحذرهما منه؟ أتراني كنت أخشى أن تراه فيصيبها الخوف من منظره الشرس وتهرب مبتعدة فلا أراها ثانية؟

أراها ثانية!!

وهل أود أن أراها ثانية؟؟ هل أرغب في ذلك حقًا؟

ولماذا ياسميناً بالتحديد؟ ما الذي يوجد في هذه المرأة يدفعني إلى الرغبة، وإلى الخوف في نفس الوقت؟.. الويل لك يا مجبى النعس.. ألم تعلم بعد.. أتود أن تنسى زينب إذا؟ وهل نسيت «ميريت» بمدى هذه السنوات؟؟

لا.. بالطبع لا.. لا أحد ينسى ميريت الجميلة.. لكن لم تلح علي ذكرها الآن؟ أياكون مرآي لياسميناً وانجذابي لها ولجهاها هو السبب!! إذاً أنا أعترف بانجذابي لياسميناً؟ سريعاً هكذا! من محادثة بسيطة لبضع دقائق؟ هذا غريب حقاً! ما الذي يوجد في هذه المرأة؟ ومن أين تأتي بتلك القوة التي اخترقتني في دقائق.. حتى ميريت نفسها أخذت من قلبي وقتاً أكثر كي تجعله يدق بهذه الطريقة المخيفة.. لكن «ياسميناً» أيضاً بدت متوترة ومهزوزة أمام الغرفة منذ قليل، على عكس الدقائق القليلة التي أحسستها فيها داخل البازار.. ورغم ذلك كنت مرتبكاً أكثر منها.. حتى إنني لم ألاحظ تفصيلة قدم تقال الملك التافهة هذه.. بينما لو كانت «ميريت» لكنت حكيت لها تاريخ مصر كله الذي أعرفه وأحفظ مثل اسمي.. والذي علمني إياه جدي سليم.. بعد انتهاء قطيعتنا الطويلة.

قاطعني جدي لشهر كامل بعد أن رأي وأنا أقبل زينب في الشرفة.. لم يقبل أي اعتذار ولم يرد على أي كلام أوجهه له.. لم يتناول معي طعاماً لمدة.. حاولت معه كثيراً وحاولت أمي أكثر رغم أنها لم تعرف مني شيئاً.. ولم أملك الجرأة على إخبارها.. حاولت التواصل أكثر من مرة مع زينب لكنها رفضت تماماً.. لم تكن ترد على اتصالاً واختفت تماماً.. إلا أنني فرحت بشكل كبير عندما علمت من أمي أنها تجاوزت الامتحان الأخير بنجاح، رغم أنها حصلت على مجموع معقول.. وكنت سأشعر بذنب أكبر لو لم تستطع أن تتجاوز الامتحان

للمرة الثانية.

بعد شهر تقريباً من قطيعة جدي كنت أقف في الشرفة ومسمعت
ينادي عليّ بصوت رامن يُسمع بصعوبة.. ذهبت إليه مسرعاً
فوجدته ممسكاً صدره في ألم ويشير إلى صندوق ورقي صغير به أدوية
الكثيره.. ناولته الصندوق فأخذ يبحث فيه عن أقراصه التي يأخذها
دون انتظام حتى وجدها.. وضع قرصاً صغيراً جذاً تحت لسانه وقال
ومر يمهد كي يلتقط أنفاسه:

- اتصل بالإسعاف.. وبوالدتك.

فلكنني الرعب وأسرعت إلى الهاتف واتصلت بالإسعاف ثم
بأمي في منزل أهلها، ولحقت بنيا ماء في معهد القلب.. وقال
الطبيب إنها ذبحة صدرية تطورت إلى انسداد جديد بأحد شرايين
القلب الصغيرة.. وحُجز جدي ليومين تحت الملاحظة ثم شُيخ له
بالخروج مع تحذيرات كثيرة من ممارسة أي مجهود أو صعود السلم
أو شرب القهوة.

بعد عودتنا وبعد أن ساعدته على الجلوس فوق أريكته المفضلة
وكان أول ما طلبه مني هو أن أصنع له قهوة وهو لم يتناولها منذ ثلاثة
أيام فرفضت بأسف شديد وكنت أعرف أنه لا يطبق يومه دونها..
تهدد في ضيقي وقال:

- هل تصدّق الأطباء يا يحيى؟ لقد ولى القلب إلى غير رجعة.

قلت بحزن:

- أطال الله في عمرك يا جدي.

وتدخلت أمي معاتبة:

- نأخذ بالأسباب يا حاج.. أليس هذا كلامك؟

زفر في ضيق وطلب منها أن أي شيء دافس يشر به.. فذهبت إلى المطبخ وطلب مني أن أجلس جواره وقال:

- اسمع يا مجيبي.. لن أستطيع أن أصفي لك أو أسامحك قبل أن تخبرني نيتك الحقيقية تجاه «زينب».. ولا تكذب عليّ يا مجيبي.. لا ترد الآن إن أردت.. لكن قل الحقيقة عندما تستطيع.. الحقيقة فقط.

صمتُ ولم أرد عليه ونظرت أرضاً.. وأخذت أفكر في ردّ لا يفضي، ودون أن أكذب أيضًا.. المشكلة هي أنني لا أعرف ردًا واضحًا لنفسي كي أخبره به. قلت بعد قليل في تردد واضح:

- صدقتي يا جدي لا أعرف إجابة شافية.. منذ أن رحلت زينب أجدي أفتقد ما بشدة لأحيان كثيرة.. لكنني في أحيان أخرى أكاد لا أذكرها.. وكأنها غير موجودة في حياتي.. أرجوك لا تغضب مني، لكن هذه هي الحقيقة التي طلبتها.. والحقيقة الوحيدة التي أعرفها.. أما غير ذلك فهو أمر لم أعرفه بعد.

- ولماذا كان ما كان بينكما هناك؟

وكان يشير بيده في غضبٍ إلى باب الشرفة البعيد..

رددت عليه وقد أحنيت رأبي خجلًا:

- كانت زُلة، أقسم لك إنها لن تتكرر.. لا أعرف كيف حدث ذلك.

- أنا أعلم.. لكن.. لماذا تحاول إذا الاتصال بها إلى الآن ما دمت لا تعرف شعورك تجاهها؟

دهشت من معرفته عن محاولاتي الفاشلة للاتصال بزينب.. ولم أجدر ردًا فقال وهو يضع يده فوق كتفي ويرين في رفق:

- ألم تنفق يا بني منذ سنوات ألا تذلل نفسك أبدًا إلى أي ذنب
مكذبا.. لماذا تركت نفسك لنفسك؟ وبهذه الطريقة.. وفي نفس المكان
الذي وعدتني فيه؟ لقد خيبت أملي فيك يا يحيى.

غمزني إحساس بالذنب أكثر مما شعرت به وقت رآنا.. ولم أجد
سوى أن أسأله في توصل:

- قل لي يا جدي ما الذي يرضيك؟ ما الصواب وسوف أفعله؟
أراح ظهره على مسند الأريكة الكبير ونظر إلى سقف الصلاة ثم
قال بتهد:

- ما يرضيني هو أن تتزوجا.. أما الصواب فهو أن تتركها وشأنها.
وزفر في ضيق ثم أكمل:

- دع زينب لحالها يا يحيى.

وقبل أن أرد عادت أمي وفي يديها كسوب من البنسون وضمته
إمام جدي ونظرت إليّ في صمت مريب.. ثم جلست قبالتنا وقامت
بتشغيل التلفزيون ففعلت لأدخن في الشرفة.

لم أنصّل بزينب مرة أخرى.. ولم أسمع أن أعرف عنها أي أخبار.
وعلمت من أمي في العام التالي أنها قد خُطبت لزميل لها في السنة
النهائية بنفس كليتها.. وبدأت أمي بعدها تفتح موضوع زواجي في
أريحية وترقب كل فترة.. حتى جاء عام تخرجي.. وكنت أنا من بادر
في فتح هذا الموضوع معها ومع جدي.

حكيت في عجالة عن زميلة لي في الجامعة في نفس القسم والندما
أستاذتنا بالكلية.. وقلت إنها جميلة وأرى أنها قد تكون زوجة
مناسبة.. بادرت أمي بالترحيب فائلة:

- نسب يشرف..

ولم يبدِ جدي بأي رأي فسأله:

- وما رأيك يا جدي؟

فابتسم ابتسامة غريبة وقال:

- ما رأيك أنت يا بحبي؟

قلت بهدوء:

- أرى أنها ستكون زوجة مناسبة.. نحن نعرف بعضنا جيدًا منذ أكثر من عام، وهي فتاة مهيبة وجميلة.. أعرف والدها جيدًا ومر رجل ذو سمعة طيبة بالكلية وبجبه الجميع.. وأي زميل لنا يتمنى أن ينزوج ابنته.

- وأنت.. هل تمنى ذلك فعلاً؟

- أظن ذلك..

- إذاً على بركة الله.. حدد موعداً تراه أنت مناسباً ونذهب نخطبها لك.. وشقة والديك الأخرى موجودة.. ولا أظنه سيمنع أن تتزوج فيها غداً إن أردت.. من الواضح أنه لن يعود إلى مصر أبداً.
- ليس بهذه السرعة.. بعد الامتحانات النهائية والتأكد من التعيين في الكلية.

- ستكون مميّداً بإذن الله.. أنت من أوائل دُفعتك كل عام.. وقد قلت إن والدها أستاذ معكم.

ثم تابع متسائلاً وهو ينظر إليّ في حدة:

- أليس كذلك يا بحبي؟

استغزنتني نظراته بشدة وكدت أن أسأله عما يقصد.. لكنني لم أجسؤ.. وتعجبت من نظراته وظنه السيء بي.

انتهت الامتحانات الأخيرة بسهولة؛ فقد كنت ملئاً بكل حرف في كل كتاب ربما أكثر من الأساتذة أنفسهم.. وتأكد تعيني معيذاً بالجامعة.. لكنني لم أفتح موضوع الزواج ثانية.. وظلت أمي هي من تلح في السؤال، وكنت أتهرب من الإجابة أو أتعلل بأي حجة واهية حتى قلت لها أخيراً إنني قد صرفت النظر مؤقتاً.. وأحسنت أن جدي كان راضياً عن قراري رغم أنه لم يلمح مطلقاً.

كما يضايقني أنه لن يُسمح لي بالتدريس إلا بعد وقت طويل وسنين عدة في التدرج بالقسم في الكلية.. وكان القسم مكتظاً بالمعبدن مثلي، واللوائح التي تحكم عملية التدريس معقدة.. ووجدت أنه سيمر دهرٌ قبل أن يسمح لي بالتدريس رسمياً.. بادرت بالتقدم للحصول على درجة الدبلوم وأخذت أنقب في البعثات الدراسية الممولة أو المدفوعة.. فالليسانس وحده لن يكفي للوصول إلى مرادي من هذه الكلية.. وانقضى عامان حتى حصلت على الدبلوم في الحضارة المصرية القديمة.. وقُبلت في بعثة إلى إنجلترا في نفس الشهر.

رأيت ذعراً شديداً في عيني جدي عندما أخبرته بأمر سفري، ولم أجدهم لذهره مبرراً في البداية حتى أخبرني بعد إلحاح طويل أن والدي يحاول استعادة أمي منذ فترة ويبدو أنها بدأت تلين.. وفهمت دون ذكره ذلك، أنه أصبح يخشى أن نتركه جميعاً في فجأة هكذا. لكنه دعا لي في نفس الوقت بالرحمة وتمسك لي التوفيق في البعثة التي تستغرق عاماً.. ولم أحسم أمري في السفر إلا بعد أن تأكدت من أمي أنها باقية معه حتى أعود.. وسافرت إلى لندن. لكن أمي عادت إلى أبي بعدها بشهر واحد فقط من سفري تاركة جدي وحده.

كنت أحادثه يومياً وكلّ قلبي عليه.. وكان يطمئنتني دوماً.. لكنني

كنت أخاف أن نهاجه نوبة قلبية كالتي أتته مؤخرًا.. واعترف لي بعد فترة أن زينب تأتبه من وقتٍ لآخر لتطمئن عليه فاستراح قلبي بشكلٍ كبيرٍ.

كانت أيامي في البعثة ثقيلة باردة كالمدينة نفسها.. حصلت منها على كادر علمي هام في اللغات القديمة لكنني لم أستمتع بأي ضرورة في تلك البلاد.. انبهرت بالتأكيد من نظافة شوارعها الجميلة.. لكنني لم أستمتع بالتجول في تلك الشوارع.. أعجبني شكل المباني والتاحف العريقة.. لكنني لم ألتقط لها صورًا تذكارية كما فعل معظم من كان معي في البعثة.. زحفت الوحدة إلى قلبي فور وصولي إلى لندن وصاحبتي حتى عدت إلى القاهرة.. وكان أهم ما اكتشفته في تلك البعثة أنني شخص وحيد.. طوال خمسة وعشرين عامًا لم أصنع أي أصدقاء حقيقيين.. فقط معارف في الكلية، زملاء في العمل، زملاء جدد في البعثة، لكن لا أصدقاء على الإطلاق.. وبدأ حنيني يزور قلبي ويأخذه إلى وجه زينب في ليالٍ عديدة.. واكتشفت أنه رغم كل شيء كانت زينب هي صديقة عمري الوحيدة.. وقد فقدتها بغبائي وأنايتسي، وأخذت استجدي الأيام أن تمر سريعًا حتى أعود إلى القاهرة.. وكان نداء «ميريت» في انتظاري.

فور أن عدت واطمأنت على جدي بدأت أقود الحوار حتى دفعه للحديث عن زينب.. وعلمت منه أنها تخرجت وعلمت بتدريس الرياضيات أيضًا.. وعلمت أن خطبتها الثانية قد قُسمخت.. ولم أعلم كيف انتهجت هكذا بشدة أمامه؟.. لكنه لم يبدِ اهتمامًا كبيرًا بفرحتي بعد عودتي بأسبوعين كنت أصعل على بحث هام يخص أودانسي القديمة التي أحتاجها للتقدم لتبيل درجة الماجستير.. وكنت أنقب

كما أنني مثل بسين كنوز الوثائق والكتب العظيمة في دار الكتب
والوثائق.. وسجن الأوراق والملفات الهامة سأنتهي أحدهم قاطعاً شرودي:
- لو سمحت.. هل يوجد هنا نظام ما للاستعارة؟

نظرت إليه متعجباً.. المكان هنا لا يفصده سوى من يعرف
شروطه.

قلت له دون اهتمام:

- بالطبع لا.. هذه ليست وثائق عادية.

فأل بهجلي أكثر:

- وماذا أفعل إذا كنت أريد أن أحتفظ بهذه؟

وكان يسم ببلاهة وهو يشير إلى صورة لجريدة قديمة معروضة
على شاشة أفلام الميكرو فيلم.. ولم أستبين عم تحدث.. وعلمت أنه
سيكون لحوثاً ولن يتركني لحالي فقلت شارحاً:

- يوجد بعض الوثائق يمكنك أن تحصل على صورة ضوئية منها..
وأشرت إلى موظف في ركن المكان، لكنه عاد بسأل:

- رهل هذا متاح لأي شخص؟ أعني أي جنسية؟

لم أفهم سؤاله فوجدته يمد يده إلى معرفاً نفسه:

- مهابان.. صحفي من لبنان.

نظرت إلى يده البدينة الممدودة إليّ في ود فصافحته مضطراً.. نظرت إليّ
مستائلاً فاضطرت إلى تقديم نفسي وقلت:

- يحيى الطيب.. معيد بكلية الآثار.

بش وجهه وقال باسمًا:

- أه.. أنت دكتور في الجامعة.

فقاطعت: ليس بعد..

كان سياستيان بديناً قصير الغامة مقارنة بطولي.. يبدو قد قارب الأربعين من العمر وله رجة طفل بريء.. ظل مبتسماً وهو ينظر إلى المكان ويتابع أسئلته التي لا تنتهي.. قال إنه يبحث عن بعض الأخبار الموجودة في الجرائد القديمة في الفترة بين الحربين والتي تتحدث عن ظهور بعض مدارس الفن التشكيلي في تلك الفترة وتأثرها بالحرب.. وقال إنها لا تخصه وإنما تخص صديقاً له من نفس بلده.. أخذت أساعده في البحث عن أي صحف أكثر إفادة من تلك التي كان يريد استعارتها بسذاجة، ونجحت بخبرني القديمة في المكان - الذي عُرِفي عليه جدي - في استخراج وثيقتين أخريين عن نفس الموضوع الذي يبحث عنه.. ثم طلب مني في حرج أن أقوم أنا بطلب نسخ ضوئية منها خوفاً من أن يلاحظ المشرف لكتبه غير المصرية ويعترض على نسخ الوثائق.

تفحصت الوثائق جيداً، وكانت معظمها معلومات عادية يمكن الحصول عليها من الإنترنت.. فقامت بنسخها له بنفسي أمام مشرف المكان الذي يحفظ وجهي المتردد دوماً على المكان.

أخذ سياستيان يشكرني على مساعدته ويطلب في الشكر.. ثم أمر أن يدعوني إلى فتجان قهوة في أي مكان قريب.. اعتذرت له متعللاً بضيقتي وقتي فطلب رقم هاتفي وأخذ يؤكد على أنه لا بُد وأن نلتقي مرة أخرى لعزومة القهوة.. فوعدته بذلك ثم انصرفت إلى ما كنت أبحث عنه.. وفي مساء نفس اليوم وجدته يتصل بي ويلح عليّ بشدة في ملاقاته.. وظللت اعتذر له كثيراً متعللاً بانشغالي الشديد في التحضير للرسالة.. وبعد أن انتهيت مكاتبتني سألتني جدي:

- لمن كل هذه الاعتذارات يا يحيى؟

قلت:

- صديق عرفته اليوم يلح عليّ في المقابلة.

فرّد قائلاً في تعجب:

- صديق؟؟ ليحيى ابن الطيب سليم؟؟ ماذا حدث في الدنيا؟

- ولم السخريّة يا جدي؟

- العفوي يا دكتور.. لست سخريّة. لكنني أول مرة أسمعك

نطلق على أحد هذه الكلمة.. دائماً تقول، شخص أعرفه أو زميل في الكلية.. لكنك لم تقبل على أحد أبداً كلمة «صديق» هذه.

- خائني التعبير.. كنت أقصد أنه شخص أعرفه.. لم أقابله سري

اليوم فقط. تعرف عليّ في المركز وساعدته في شيء بسيط فأصرّ أن يزممني على قهوة واعتذرت له فظل يلح واضطرت إلى وعده بلقاء.

- ولم وعدته بما لن تقوم به.. لا تعدّ أبداً ما دمت لن تقني

بوعدك.. لست هذه أخلاق الرجال.

لم أجدرّداً على إحراج جدي لي.. فتابع أمراً:

- اتصل به الآن وأخبره أنك لن تقابله أبداً.. وإما أن تقبل دعوتي

ولتحدد موعداً لن تعتذر عنه.. كن كريماً مع الناس يا بني.

أدرك الأمر في رأسي قليلاً وقلت لم لا؟؟ ليس لدي شيء هام أفعله

الليلة.. كنت فقط أنوي السهر مع جدي.. ربما استطعت أن أفتاحه في أمر زينب.

أعدت الاتصال بسباستيان وقلت له إنه لا مانع من لقائه الليلة

ففرح كثيرٌ واتفقنا أن نلتقي في ميدان طلعت حرب. ولم أكن أعلم أنني أسعى إلى شباك ميريت المسمومة.



قال السائق المنذر طيلة الطريق:

- الحمد لله لقد وصلنا أخيرًا يا دكتور.. طريق ملمون.

كانت منازل قرية الجبل قد لاحت أمامنا، وكانت القرية تبعد قرابة الساعة عن الكامب.. يعمل معظم من فيها بأنشطة السافاري العديدة التي تنظمها فنادق الغردفة الساتحين.. وبعض سُكَّانها كان يعملون معي في كامب وادي حبيبة. يسكنها عددٌ قليل من العرب وآخرون أتوا من محافظات عدة بالصعيد واستقروا بها لقربها من الجبال التي يجيئ معظم رزقهم من السياحة فيها.. لكنها بالنسبة لي كانت منفى بعيدًا. حتى أنني سألت الشيخ ياسين عما يجبرهم أن يعيشوا بعيدًا هكذا بمنأى عن المدينة فقال إنهم كبروا ووجدوا آباءهم وأجدادهم في القرية.. وسيمش أبناؤهم وأحفادهم إلى ماشاء الله في نفس المكان.. ولم أدر حقًا لم يسمونها قرية. فأننا لم أر أي أنشطة للزراعة فيها.. اللهم إلا بعض النخلات المعدودات التي اتخذوا من ظلالها مجلسًا صغيرًا لهم خلف مقام لأحد شيوخهم الصالحين المدفون في ضريح داخل المسجد الوحيد الموجود بالقرية.

استقبلنا الشيخ ياسين - أو الشريف ياسين - كما يدعونه هنا في الكامب، ولم أسأله مرة إن كان لقبًا أم أنه فعلاً كما يزعمون يتسبب إلى الأشراف من نسب الحسن والحسين؟

جاء الشيخ ياسين باشا واضعًا عباءة ثقيلة على كتفيه واحتضني

وأخذ يرحب بي في حرارة ولم تكن قد التقينا منذ مدة. سألت السائق
متذمراً وهو ما زال في سيارته:

- متى ستعود إلى الكامب يا دكتور؟

وقبل أن أرد قاطعتني الشيخ ياسين:

- اتصرف أنت الآن يا بني.. سأدبر أنا سيارة للدكتور عند
العودة، ربما يتأخر.

ثم ذهب إليه وسمعه يهمس له بشيء فقلت صائحاً:

- لا داعي يا شيخ ياسين. لقد أخذ حابيه قبل أن نتحرك.

فنظر إلى السائق في استياء ثم تحرك بالسيارة مبتعداً.. وقال الشيخ
بأسين مستنصراً: ماله؟

- لقد ظهر لنا في الطريق واحدٌ ممن تسمونهم «عفاريت الصحراء»
هؤلاء، ومن رقتها وهو كما نرى.

ضحك الشيخ ياسين عالياً وقال:

- له حق والله يا دكتور.. يكون منظرهم غريباً جداً.. خاصة في
الليل.

- ألا يعلم إنسان من أين يأتي هؤلاء؟ ألسنهم تسكنون الجبل منذ
زمن؟ كيف لا تعرفون أصلهم وماذا يريدون؟ ولماذا يظهرون على
الطريق هكذا؟

- هم في الغالب قُطَّاع طريق.. ليس آمناً أن يقف لهم أحد وإن
كنت أزعهم أن ظهورهم قد قل كثيراً عن الماضي منذ عُمُرت الغردقة
بالمضائق والسياح وزاد فيها رجال الأمن.

- امرهم غريب حقاً.. يفتلني الفضول لأعرف ما وراءهم.

وضع يده على كتفي، ودفعني دفعا خفيفا ناحية المسجد وقال:

.. دعك منهم الآن.. تعال نصلي المغرب قد وجبت.. ثم تناول الطعام سويا قبل أن نتكلم.

وفور إتيان على ذكر الطعام تخلصت معدني وأحسست أنها تكاد أن تتكلم جوعا. فأنا لم أتناول أي طعام منذ عشاء أمس.

دخلنا المسجد الصغير والذي كان يشبه زاوية كبيرة من الزوايا المرامية في أحياء مصر القديمة. وكانت إضاءته خفيفة جدا ومظم مصابيح الإنارة فيه لونها أخضر وكذلك كانت جدرانه.. وكان أكثر مصدر للضوء يأتي من الباب الجانبي الصغير المؤدي إلى مكل الضريح. أدينا الصلاة في جماعة وأثنى الشيخ ياسين بالطبع، وكان معظم الرجال في القرية قد اجتمعوا في المسجد لتأدية الصلاة.. وبعدما انتهينا أخذ يرحب بي من كنت أعرفه منهم.. خاصة «يزيد» ابن الشيخ ياسين الأكبر. واتجهنا إلى مجلس القرية خلف المبنى الذي يوجد فيه الضريح وتزينه النخلات الكبيرة.. ووجدت أن الشيخ ياسين قد أعد لي وليمة وليس مجرد وجبة بسيطة كما قال. وظل يعزم علي بالطعام ويصر أن أكل من كل صحن ووضعت فيها أنواع عدة من اللحوم والطيور.. ولم أكن احتاج إلى عزيمة فقد كنت اتضور جوعا.. بعد أن أذن مؤذن عذب الصوت من المسجد المجاور اتجهنا إلى المسجد ثانية لصلاة العشاء. ونظرت في ساعتني وعلمت أنني سأعود متأخرا.. وتميت ألا يصر الشيخ ياسين على المبيت مثلما يفعل معي كل مرة آتي فيها للزيارة. كنت أحب الشيخ ياسين جدا.. فقد كنت أرى فيه طيبة جدي وورعه.. وكلما نظرت إليه كنت أرى جدي الراقد فوق أريكته بشة عابدين وهو يشرب معي القهوة ونسامر طوال الليل.

فرد أن خرجنا من المسجد نظرت في ساعتي ثانية أمام الشيخ ياسين متعمداً ثم سألته:

- والآن.. أئن تقول لي ما الأمر الهام الذي أردتني فيه؟

- نجلس واحكي لك كل شيء..

اتخذنا مكاننا في المجلس تحت التخييل، وبدأ الشيخ ياسين بالسؤال عن الأحوال في الكامب والسؤال المعتاد عن تفكيري في العودة إلى الجامعة والتدريس. وكالمادة قلت له أن لانية لدي.. ثم بدا متردداً قبل أن يسأل:

- قلت لي من قبل يا دكتور إنك كنت تعمل لبعض الوقت في المتحف المصري بالقاهرة.. أليس كذلك؟
رددت عليه مصححاً المعلومة:

- ليس عملاً حكومياً.. كانت بعض البرامج الخاصة بالمجستير..
كنت أتواجد بشكل دائم في المتحف على مدار سنوات.

- وهل تعرفت هناك على أحد ذي شأن؟

- قليل جداً.. بعض الباحثين الهامين وبعض الإداريين في هيئة الآثار. لم أتواصل مع أحد منهم منذ زمن.
بدا عليه إحباط فقلت:

- ما الموضوع يا شيخ ياسين؟ لقد بدأت أقلق.

فنام من مجلسه وصار يتمشى أمامي في هدوء مفكراً ثم قال في حزن شديد:

- يريدون أن يأخذوا هذا المكان.

- أي مكاني تقصد؟ قرية الجبل؟

- نعم.

- تعجبت من كلامه وسألت:

- ولم؟ ومن هؤلاء الذين يريدون أن يأخذوا القرية؟

ردّ وهو ما زال واقفاً أمامي:

- لا نعلم من هم بالتحديد بعد.. هيئة حكومية ما.. لكننا لم نعرف
تبعيتها. جئنا إخطار بالإخلاء يطلبون فيه التحضر لترك القرية
بالكامل.. يقولون هذه أرض ملك للدولة.. وقد اعتزم شخص هام
تحويلها إلى محمية طبيعية.

ابتسمت عيناى من شدة الدهشة وقلت:

- محمية طبيعية.. هنا؟ محمية لأي شيء؟

- لا أعلم.. قلت لك لا نعلم أي شيء بعد هذه مجرد أقاويل. في
الغالب سيفيمون مكانها متجعفاً ما أو أي نشاط سياحي يصلح.

قلت مفكراً:

- أو ربما اكتشفوا ثروات طبيعية هنا ويريدون استخلاص ينزل
أو غاز طبيعي. المناطق المجاورة طوال الطريق على البحر وخصي
السويس مليئة بمثل ذلك.. وغالباً موضوع المحمية هذا للتنعيم فقط
على المشروع.

- أعلم.. كلامك هو الأقرب إلى الصواب.

- لكن بما شيخ ياسين لا توجد أي واسطة ولا يوجد إداري يمكن
أن يمنع حدوث شيء كهذا.

عاد الشيخ ياسين للجلوس جوارى وقال:

- لا يا بني.. لقد فهمت مقصدي خطأ.. لم أطلبك بالطبع كمي
توسط لنا في منح ذلك الأمر.. إنما أريد منك خدمة بسيطة إن
استطعت ذلك بالطبع.. أنت في مقام يزيد ولدي.. ويعلم الله وحده
قدر معرفتي عندي.

رددت متأثراً بكلامه:

- بارك الله فيك يا شيخ ياسين.. هو شرف لي. اطلب ما تريد.

- في الحقيقة هما أمران.. الأمر الأول أريدك أن تستخدم علاقاتك
القديمة وتحاول قدر المستطاع تبين حقيقة أمر ضم هذه القرية
للحكومة من عدمه. ربما كان مجرد كلام حكومة ليس إلا. فإن كان
حقيقة نُحضرنا له من الآن. فرح يزيد ولدي بعد ثلاثة أشهر.. وكنا
سنبي له منزلاً جديداً مقابلاً لمنزل زوجته الأولى.. ولا أريد أن نبني
ما سوف يُهدم بعد أشهر قليلة.

قلت متسائلاً:

- وهل سيتزوج يزيد ثانية؟

- نعم.. زوجته الأولى عاقر.. ونحن لا نترك هذه الأمور وشأنها
كما تعرف.

قلت:

- يرزقه الله بالولد الصالح.. مبارك عليه بإذن الله حسناً.. سوف
أبدأ من الصباح في إعادة التواصل مع معارفي بالقاهرة. ربما استطعت
أن أحصل على معلومة شافية.

- بارك الله فيك يا دكتور.. ونأني إلى الأمر الأهم.

- وما هو؟

- هل توجد أي فرصة أو طريقة لنضم هذا الضريح إلى هيئة الأثار
ربما حفظه هذا من الاندثار إنه تراثنا الوحيد المتبقي.

فكرت قليلاً، وكنت أود أن أخبره أنه أمر ممكن.. لكنني لم أود أن
أجعله يتعلق بأمل ضعيف فسأله:

- ولماذا لا تحاول التواصل مع نقابة الأشراف؟ ربما ساعد ذلك.

قاطعتني بنظرة عتاب من عينيه.. وكان يعلم أنني مدرك تمامًا أن
لقب الشريف ياسين هذا ما هو إلا مجرد لقب وليس له أي علاقة
بهئة الأشراف.. قال بهدوء:

- كان شرقاً لم أدعيه لكنني أيضًا لم أنكره. في بلد كالتي نعيش
فيها دائماً ما كان يفتح الأبواب المغلقة. وما فعلته إلا ابتغاء وجه الله
وخدمة أهل القرية.

قلت سرعاً:

- أعرف بالطبع باشيخ ياسين.. أعرف. سيرتك العطرة وكرمك
لا يحتاجان إلى الألقاب، لقد كنت أول من احتضنتني عندما جئت إلى
الغردقة غريباً.

ولم يعقب على كلامي بشيء وأنا صمت تماماً.. ولم تكن لدي
إجابة مرضية لسؤاله الأخير وبعدها قال في حزن واضح:

- ما الذي سبب له المقام لو لم نستطع الإبقاء عليه؟

قلت له في أسف شديد:

- في الغالب سيقومون بنقل الضريح فقط إلى مكان آخر نابعاً
للطريقة التي كان يؤسس لها الشيخ الصالح. وفي الغالب أيضًا
سيهدمون باقي المقام.

رد في حيرة:

- لا حول ولا قوة الا بالله.

ثم صمت تمامًا وبقيت جالسًا في حرج من الاستئذان وترى وحده لحزنه.. إلا أنه وبمروسته المعنادة قال بعد قليل:

- لا أريد أن أثقل عليك.. جازاك الله خيرًا على قدومك يا دكتور.

- لا تقل هذا.. ليتني أستطيع أن أقدم أي شيء..

قام من مجلسه وقال:

- يدبر الله الأمر.. سأذهب لاستدعي لك من يقوم بتوصيلك.

ثم اختفى لدقائق عاد بعدها ومعه أحد العمال الذين أعرفهم في وادي حبيبة وقال له «لا تترك الدكتور قبل أن يدخل إلى الوادي» فأوصا الرجل برأسه في طاعة.. ثم سلم عليّ وعاد إلى داخل المجد.. وتوجهت مع السائق عائداً إلى غرفتي الكامب. وراحت السائق يقطع الطريق في مرعة إلى الكامب.. وكان من الواضح أنه يريد أن يذهب ويعود قبل أن يتأخر عليه الليل.. وهؤلاء ينامون عادة بعد العشاء بقليل ولبس لهم في الشهر يبدأ يومهم مبكراً جداً.

أخذت أفكر فيما قاله الشيخ ياسين.. وهل توجد أي طريقة لدي يمكنني أن أساعده بها؟ أحتاج إلى معارف أقوى مما أملك.. وعلاقات أكثر تماسكاً مما لدي.. لقد قطعت علاقاتي بكل الناس تقريباً منذ أكثر من ثلاث سنوات.. حتى «ياسين» منذ عاد إلى لبنان لم نعد نتواصل إلا نادراً.



كنت قد ذهبت للافاء سباستيان أول مرة تنفيذًا لرغبة جدي
وفيلًا لبعض الملل الذي تسأل إليّ في بداية تحضيرى لرسالة الماجستير.
سألني أول ما التقينا في ميدان طلعت حرب إن كنت أمانع أن نذهب
إلى مكان يسمى «صالون شوكت» قريبًا من الميدان فأخبرته أنني لا
أعرفه فتمجيب سباستيان كثيرًا وقال لائتمًا وكأنه صديق قديم:

- كيف المتقف مثلك أن لا يعلم بوجوده!

تجاوزت عن كلمة متقف هذه التي لم أدعها يومًا وقلت له:

- وهل هو واجب على المتقفين أن يعلموا بأماكن كل كافيها
وسط البلد... أنا أسكن وسط البلد منذ أكثر من ستة وعشرين عامًا
ولم أسمع عنه من قبل.

رد وهو يعبر الإشارة إلى شارع شامليون:

- ليست الفكرة يا صديقي.. هو ليس كافيه إنما مكان يجتمع فيه
معظم الأدباء والفنانين وعدد كبير من الشخصيات العامة.. يملك
أكبر منتج سنيا في بلدكم.. لقد سمعت عنه فور أن وصلت من
بيروت.. قبل حتى أن أعمل في الجريدة.

- حتى لو كان ما نقوله صحيحًا.. أنا لست فنانًا ولا كاتبًا ولا
شخصية عامة.. ليس لي علاقة بهذا الوسط حتى أكون مضطرًا لأن
أعرف المكان.

- قاطعني سباستيان مستكبرًا:

- لا تقل هذا.. لقد كنت تدير في دار الوثائق وكأنك صاحب
المكان.. ألم تر كيف تركك الموظف هناك نسخ ما أمثت من الأوراق
النادرة شديدة الأهمية؟

وكان يتحدث إليّ في انبهار طفل صغير فابتسمت ولم أعقب.

وصلنا إلى عمارة كبيرة على ناصيتها محلّ لسلالات الموسيقى وقال
مباستيان «الصالون في الدور الثالث».. وفور أن دخلنا إلى المكان
تركني وحدي في سخافة، وانطلق يسلم على كل شخص في المكان
تفريفاً.. وكان يبدو أن الجميع يعرف بعضهم بعضاً.

كانت شقة واسعة على الطراز الفني القديم لشقق وسط البلد
وبها عدد كبير من الجلسات المترامية في الأركان.. انزويت في أول
مقعدي قابلي متظنّاً «مباستيان» كي ينتهي من ثروته مع أصدقائه.
واخذت أتفحص الوجوه وأراقبها في قمع، وكان الصالون مثلها قال
مباستيان تماماً.. وجوه كثيرة جداً أعرفها. أراها كثيراً في التلفزيون
والسنيما وعلى صفحات الجرائد وفوق أغلفة الكتب. فنانون وكُتّاب
وإعلاميون. رجال منظرهم مهيب ونساء كل ما فيهن يلعب وباد
عليهن الثراء.. وكان الجميع يتحدثون مع بعضهم البعض.. ولاحظت
بعض اللكنات الشامية والخليجية بين الموجودين، ووجدتني غريباً في
وسطهم. فكرت أن انسحب وأقوم كي لا أشعر بالحرج أكثر من
ذلك واعتذر لمباستيان بعدها بأيّ حجة.. لكنه قطع على طريقي
فورا أن رأيّ أعمرّك واقترّب صائحاً:

- الخروج من هنا قبل الفجر ممنوع يا دكتور.

وسألت سيدة خمسينية جواره لا أعلم من أين أنت وكانت تمسك
في يدها كأساً صغيراً وقالت:

- هو حضرتك دكتور؟

ردد مباستيان بدلاً مني «دكتور يحيى با مدام صوفي دكتور في

الجامعة وصديق قديم، وقبل أن أوضح أنني مجرد معبد ولم أصبح
أستاذًا بعد سألتني:

- ما شاء الله.. دكتور في أي تخصص؟

قلت مستسلمًا:

- حضارات قديمة.. أحضر دراسة في اللغات المصرية القديمة.

- لغات؟! وهل هناك لغة قديمة غير الهيروغليفية؟

وقبل أن أجيبها قال أحدهم بصوت عالٍ:

- يا جماعة.. «أستاذ حسان» ميلقي قصيدة جديدة.

صُفّق الجميع وبدأوا يجمعون حول حسان هذا.. كان رجلاً
عجوزًا أسمر البشرة له لكتة جنوبية أخذ يتنهد حتى صمت الجميع
ثم بدأ في الإلقاء.. قال مقدمًا قصيدته أنها قصيدة نثرية هامة وأنها
أهم قصائده الأخيرة.. وأخذ في الإلقاء واندمج الحضور مريمًا،
وكانوا يتفاعلون معه بالتصفيق كثيرًا وبشدة كلما توقف. لم أكن أنهم
معظم ما يقول لكن الكلمات كانت تخرج من حنجرته مؤثرة وبها
كثيرٌ من الأسى حتى وجدتني أنفعل لها وأصفق معهم. ودمعت
عيني «حسان» في النهاية وهو يختم كلامه فالتهبت الأيادي بالتصفيق
له ونظر لي سياسيتان، وكان مبتسمًا من سرعة اندماجي مع المكان.
لكن التصفيق هذا فجأة أو أنه توقف تمامًا فور أن دخلت «ميريت».
أنت ميريت في ثوب أحمر قصير فوق جسدٍ بنفجر أنوثته وجمالاً.
كانت بشرتها شديدة البياض حتى إن أوردتها خديها الخفيفة كانت تملن
عن نفسها أحيانًا، وكانت تضع فوق كفيها شالًا أسود يستر جزءًا من
صدرها المكشوف أزالته من فوق كفيها فور أن دخلت إلى الصالون.

واقتربت مباشرة من سباستيان وهي توزع الابتسامات بعددٍ على الموجودين. ثم اقتربت من سباستيان لتسلم عليه فاحتضنها وقبلها في عندها وقدمني إليها قائلاً:

- دكتور يحيى الذي حدثتك عنه.

مدت يداً ناعمة انزلت تقريراً في كفي وأنا أسلم عليها، وقالت في صوت ساحر.. «شكراً لك جداً.. لقد وفرت عليّ تعباً طويلاً..» ولم أفهم ما تفصد، وقبل أن أسألها قاطعتنا مدام «صوفي» سائلة سباستيان:

- ويعد يا سباستيان.. لن نسمح لك أن تخفي هذا القمر عنا للأبد.. لقد قلنت منا المرة الماضية ولن نتركها لحالها اليوم.

ثم ضحكت في «عدم اتزان» من أثر ما كانت تشعر وأخذت «ميريت» من يدها وانجھت بها إلى منتصف القاعة.. وضحكت ميريت بينما قال «سباستيان» الذي تبعها وأنا وراءهم:

- قدّمتهما لكم من قبل يا مدام «صوفي» يبدو أنك كنت نائمة وقتها.

فضحك الجميع على رد «سباستيان» وحتى مدام صرقي نفسها ضحكت وتابعت تسأل «ميريت» مبتسمة:

- عرقينا بنفسك يا أستاذة.. صاحبك يغار عليك منا.

قالت «ميريت» بصوت خافض به بعض الحرج من الأعين الكثيرة الناظرة إليها:

- أنا «ميريت».. فنانة تشكيلية من لبنان.

وتابع سباستيان:

- ميريت فنانة تشكيلية عظيمة ستسمعون اسمها كثيرًا في السنوات القادمة. وهي ابنة بيروت مثلي.

وقاطع أحدهم بسخافة سائلًا عن اسمها مطلقًا الدعابة المكررة عن نوع السجائر المعروف.. وضحكت مدام صوفي على دعابت بصوت رقيق وتدخل الشاعر «حسان» مضيقًا بسخافة دعابة أخرى.. واحمر وجه «ميريت» خجلًا إلا أن مدام صوفي تابعت تسأل في جدية: - متأسفون لك لا نقصد السخرية بالطبع.. الاسم قليل الاستخدام أظن أنه فرنسي.. ترى ما معناه؟

ثم أكلعت مؤالها في خبث:

- إيَّاكِ أن تكوني لا تعرفين معنى اسمك يا صغيرة.

لم ترد عليها «ميريت» وإنما غرقت في خجلها وبدأ الغضب يكسر وجهها الذي كان يشرق جمالًا منذ ثواني.. أشفقت على حالها وقلت في صوت خرج عاليًا:

- المحبوبة.

فالتفت الحضور كله وأريكتني أعينهم الناضرة في عدم فهم فتابعت شارحًا:

- ميريت باللغة المصرية القديمة تعني «المحبوبة».. هو اسم لعدد كبير من الأميرات في الدولة المصرية القديمة «ميريت-نيت» و«ميريت-آمون».. وغيرهن كثيرات.

تابعوا صمتهم في انتباه شديد لم أقول وصاح «سباستيان» في فخري:

- الدكتور يحيى الطليب.. دكتورًا في الآثار المصرية وصديق قديم لي.

لم تصبني الأعين المكددة بالارتباك وقتها.. فقد كنت اتحدث فيها
أعرفه.. بل أصابني انتشاء ما لعلمي بما يجهلون ونظرت إلي «ميريت»
وكانت تبسم في امتنان واضح.

انصرفوا بعدها إلى الشاعر «حسان» الذي قرر أن يلقي قصيدة
جديدة أخرى.. وتأبط سياستيان يدي وأخذني إلى مجلس هادي في
ركن المكان جوار شرفة كبيرة تطل على الشارع وتبعنا ميريت.
اتخذت لنفسها مقعداً مقابل لي وذهب سياستيان ليحضر لي قهوة
من البوفيه وعاد سريعاً.. ولم تكن نتكلم أنا وميريت بعد. كنت
أعرب هميني منها زمن وجهها الجميل وأراقب الشارع. كانت شركة
الصرافة في المبنى المقابل تغلق أبوابها الحديدية ويطلق صاحبها ما بقي
من أنوارها.. وكأنها أوحى لميريت فطلبت من سياستيان أن يخفف
من إضاءة الشرفة.. تناولت رشقة من قهوتي وكانت شديدة السوء
درجة أنني أخبرت سياستيان بهذا فابتسم ولم يعلق.. ثم نظمت
ميريت أخيراً وقالت:

- قرأت في مرة أن اسمي معناه الكامل «محبوبة والدها» وليس
المحبة فقط.

نظرت إليها مبتسماً.. وكنت أعلم بالطبع لكنني خشيت إن قلت
لهم المعنى كاملاً أن يزيد ذلك من سخريتهم.. سألتها محاولاً تغيير
الموضوع:

- هل تعملين مع سياستيان في نفس الجريدة؟

- لا.. أنا هنا للدراسة.. لكنني لا بد أن أجد عملاً فوراً بدأت
أفلس.

وضحكت في عذوبة.. وخفق قلبي لضحكاتها فقد امتلأ قلبها

الناضجان حتى كاد أن يأخذها ابتسامتها ويحلقان حولنا.. وفصل
سباستيان معقبا على إجابتهما:

- ميريت تعمل على رسالة هامة للماجستير.. الأوراق التي كنت
أبحث عنها اليوم في المركز كانت من أجلها.

وقالت ميريت:

- لا تعلم كم كانت مهمة تلك الأوراق يا دكتور.. كلمة شكر
لا تكفيك.

- لا داعي للألقاب هنا.. لست أدرس في الجامعة بعد. كما أننا
تقريبًا زملاء في نفس المرحلة فأنا أيضًا أعمل على رسالتي حاليًا.
وانهمم قائما صعوبة ما تمرين به من مشقة البحث.

- وعم ندور رسالتك إذا؟

- نفس ما درست في الكلية.. الحضارة المرية القديمة.. اللغات
المصرية القديمة تحديدًا لكن بتعقيد أكبر.

وتدخل سباستيان قائلاً:

- يمكنك أن تستعيني بالدكتور يحمي بعد الآن في أوراقك النادرة
هذه.. لقد تعبت منك وأنتما زملاء دراسة الآن.

فضحكت ميريت بنفس العذوبة.. وخفق قلبي أكثر.. وقلت:

- يمكنك ذلك بالتأكيد.. أنا أذهب إلى المركز بشكل يومي هذه
الأيام.. يمكنكني أن أساعدك كثيرًا.

وأضفت حتى لا يبدو إعجابي بها واضحًا:

- إن أردت ذلك بالطبع.

فردت وقد أشرق وجهها:

- سيكون هذا عظيمًا جدًا.. لكن أخشى أن أتعبك.

وأضافت في دلالٍ «طلباني كثيرة جدًا.. وأسأل سياسيين»

رددت وقد أصبحت مخدراً من جملها.

- أنتِ تأمرين.

وأخرجت هاتفها لتبادل أرقامنا وحلّت موضوعاً في المكان فصاح

سياسيان:

- ميريت!! الأستاذ شوكت وصل.

انتهت ميريت واشتدت كالقوس ناعضة في سرعة واستأذنتني
فأثقة «دقيقة واحدة.. سأعود حالاً».

ولم تنتظر أن أرد، وتبعها سياسيان مسرعاً وظلا غائبين وطال
غابهم حتى انقضى أكثر من ساعة ولم تعد بعد.. عاد سياسيان
أكثر من مرة ليقضي دقيقة أو دقيقتين معي يثرثر في أي شيء ثم
يلمح شخصاً ما فيعرد ليخفني. وظللت أراقب «ميريت» من بعيد
ومني تحدث مع «شوكت» هذا ولم تُنزل عينيها من عليه طوال
حديثهما.. وعندما سألت عنه سياسيان قال «أخبرتكَ إنه متج
سبيلاتي كبير».. وتعجب من جهلي به وعندما انتصف الليل يسمت
من عودتها وتعمدت ألا نلمحني هي أو سياسيان وأنا أخرج وكنت
غاضباً بشدة.. هذه هي أول مرة أنتظر امرأة فلاناً.

عدت إلى البيت ودخلت متسحبا كي لا أوظف جندي وقد بات لا
يسهر مثل عاداته بعد نعبه الأخير. لكنني وجدته نصف نائم فسلمت
عليه في خفوت. وقال من بين غفوته «زوجة عمك مريضة اتصل
بها غداً واطمئن عليها ربما كانت تحتاج إلى شيء» ثم عاد إلى نومه..
وكانت قلعه متورمة بشدة.

صنعت لنفسى قهوة بدلاً من قهوة الصالون السيئة.. ووقفت
أدخن فى الشرفة وأسترجع حديثى مع «ميريت» كلمة بكلمة..
وأسترجع معه وجهها وهى تتكلم وتبسم.. وكنت أنظر إلى شاشة
الهاتف كل فترة وقد منيت نفسى أنها ستأخذ رقمى من «سباستيان»
فى الغالب. وبعد الوحدة صباحاً جاءنى اتصال من رقم مجهول فرددت
عليه فوراً قبل أن يوقف صوته الهاتف جدي وسمعت صوتها المذبذب
وهى تقول:

- دكتور يحبى.. أنا آسفة جداً.. أرجوك لا تغضب منى.

امتلاً صدري بالنشوة من مجرد سماعى صوتها وقبل أن أرد أكملت:

- أنا ميريت يا دكتور يحبى.. صديقة سباستيان.

رددت سريعاً:

- أعرف صوتك بالتأكيد.

- أرجوك لا تكن غاضباً.. لقد كنت أنتظر الأستاذ شوكت منذ

شهر كامل ونسيت نفسى فور أن رأيته.

كان الفضول يأكلنى كى أسألهما عما تريد من شوكت هنا لكنى
ألجمت فضولى بصعوبة وقلت:

- لا ليس فى الأمر ما يغضب.

فقلت ببهجة حقيقة:

- شكراً.. شكراً جداً.. كنت سأنام وضميرى يعذبني على نل

ذوقى منك.. واعتذرتى إن اتصلت متأخراً هكذا.. لكنى لم استطع
الانتظار حتى نلتقى غداً.

- لا يهلك.. لم يكن شيئاً كبيراً. ولكن هل سنلقى غداً؟

- ألم نقل أنك تذهب للمركز يوميًا هذه الأيام؟

قلت مسرعًا قبل أن تغير رأيها.

- نعم نعم.. كل يوم.

- حسنًا ألفاك هناك غدًا.. لو لم يزعجك هذا.

قلت منشئًا:

- إطلاقًا.. سأنتظرك غدًا.. أنا موجود حتى الرابعة بعد العصر.

- انفضنا.. تصبح على خير.

- سنصبحين على خير.

ثم أغلقت الهاتف وبيت ساعرة حتى الفجر أفكر فيها وأستعيد
الذاكرة مرارًا ومرات. ثم التقينا في اليوم التالي وكانت لديها ليستة
طويلة من الودائع التي تحتاجها فعليًا كما قال «سباستيان».. وانقضى
النهار في عملية البحث عن وثائقها وفي حديثنا المتصل. بعدها خرجنا
نمشي إلى شارع القصر العيني ثم إلى كوبري قصر النيل.. وكنا لا
نكف عن الكلام.. لم نلتفت إلى النظرات الفضولية المتطفلة على جمال
ميرت من الناس حولنا. لم أكن أسمع أي شيء سوى صوتها ورحلت
أحكي لها عني وعن جدي وعن البعثة إلى لندن.. عن التاريخ الذي
أحفظه عن ظهر قلب.. فلا تحمل حكاياتي ولا أمل أمثلتها التي لا
تنتهي بعد عن كل حكاية.. وكنا إذا تعبنا جلسنا في أقرب كافيه يقابلنا
ثم أكملنا سيرنا. ولم نشع من الكلام حتى اختفت الشمس وسافنا
أنداسنا إلى الصالون. ووجدت نفسي قد أحجبت المكان فجأة وثقلته
بكل ما فيه.. حتى الأستاذ شوكت نفسه تعرفت به بعدها وأخذت
أنساهد بعض أفلامه مجاملة. وبعد أن انقضى شهر من الحديث والسير

في شوارع القاهرة طوال النهار والليل في الصالون حتى الفجر ثم
توصيلها إلى الاستوديو الذي تسكن في الزمالك وجلدت نفسي لا
أخجل من الاعتراف أمام نفسي بأنني قد وقعت في حبها. وكنا
نقضي الأوقات التي لا تكون فيها سويًا بالحديث الطويل في الهاتف..
وكان جدي سليم يلاحظ انشغالي الدائم لكنه لم يكن يسأل. كنت
أعطل أمانة أحيانًا بضغط العمل على الماجيستير.. لكنه بدا متفهمًا
عني في الأيام الأخيرة.. وكان ينام معظم الوقت.. وكنت محمورًا
بعيني مبريت، حتى إنني لم ألاحظ تورم قدميه الذي كان يزداد يومًا
بعد يوم وحالته التي كانت تسوء.

تشاجرت أنا وميريت للمرة الأولى بعد ثلاثة أشهر فقط من
خروجنا اليومية ولقاءنا الدائمة في الصالون. كانت علاقتنا لم تأخذ
أي معنى بعد وكان هذا اتفاقًا ضمنيًا بيننا.. كانت بيننا مساحة
كبيرة من الحرية في الكلام والتفاصيل الدقيقة لا يقيدنا أي شيء..
لكننا لم نتقيد بالتزامات معينة لكل منا في تصرفاته ناحية الطرف
الأخر كالتزامات الارتباط. تركنا أنفسنا للوقت يسمى علاقتنا كيفما
يشاء. وإن كان انجذابنا لبعضنا واستيقاننا المستمر والمتجدد واضحًا
لكل من حولنا.

نشب خلافنا الأول بالطبع بسبب تعاملها مع أصدقائها في
الصالون سوءًا مبالغ فيه.. فقد كانت التعاملات في الصالون عامة
ليس لها أي حدود. القبلات هناك مجانية للجميع وطوال الوقت.
للقريب وللغريب. على اليمين وفوق الخدين وفي زوايا الشفاة أحيانًا.
وأحيانًا قبلات ساخنة ملتصقة في إحدى الزوايا بين من يكتفون بقلب
أصدقاء فقط أمام الجميع. طوال الوقت لا بُد من كأس هنا وحكايا

جنسية هناك. ورغم أنني قضيت عامًا كاملاً أيام البعثة في لندن.. إلا أن الوضع في الصالون كان شاذاً يشويه الكثير من الرخص والابتذال. ولم تكن ميريت تبدي أي استياء لما يحدث.. وعندما لُحِث لها ذات مساء أنني بدأت لا أستريح لوجودنا الدائم في الصالون غضبت بشدة.. وقالت لي «لا تكن رجعيًا هكذا».. تضايقت من كلماتها تمامًا وانقطعت عن الاتصال بها وعن المكان كله.. ولم تعاود هي الاتصال بي بعدها مباشرة.

كانت أيامًا ثقيلة ومخيفة مرت بمرار على قلبي.. لكنني انتهيت بسببها إلى سوء حالة جسدي الصحية.. وذهبت به إلى الطبيب الذي قال بعد عمل بعض الأشعة والفحوصات أن القلب متضررٌ بشدة. وعضلة القلب أصبحت تنذر بقلق أكثر خطورة من ذي قبل ونبها إلى أن الكبد ربما يبدأ قريبًا في التدهور هو أيضًا.

حاولت أن أجلب له أي فتاة صغيرة مرافقة له لتجالس في المنزل ونجده في الفترة التي أكون غير متواجد فيها وقد كان يومي مزدحمًا بين أروقة الكلية للماجستير وبين دار الوثائق. وزاد انشغالي بعد أن فُعت بتدريس بعض الكورسات الخاصة لطلبة المعاهد السياحية لزيادة دخلي.. وقد كانت تدر دخلًا جيدًا لم أستطع الاستغناء عنه وكان راتب الجامعة لا يكفي وحده بالطبع.. لكن جسدي كان يرفض اقتراحاتي دائمًا ويرفض أن يُدخِل غريبًا إلى البيت.

عساودت «ميريت» الاتصال بعد شهر من انقطاعنا.. قالت في الهاتف لم أكن أعرف عن سواد قلبك شيئًا يا يحيى.. ولم أعقب على كلامها.

لكن مجرد مساعي لصوتها أعاد إليّ روحي من جديد وعدنا نلتقي..

وإذا أتت من ذهبي إلى الصالون وأطلب منها أن تلقي في أي مكان آخر فلم تكن تعترض.. لكنها أحياناً كثيرة كانت تعترض ولا تأتي فبصير يومي غائياً وجافاً من دونها.. ثم تشاجرنا مرة أخرى بسبب عرضي جاءها للظهور في أحد إعلانات العطور على إحدى صفحات المجلات.. لم تشاجر طويلاً وقتها لكن بعد أن رأيت صورها في المجلة وهي ترتدي ثوباً أقرب إلى ثياب النوم غضبت منها كثيراً.. وكان غضبي صامتاً هذه المرة.. وكانت تفهم.. وجاء لقائنا مرة ثانية بعد آخر انفصال بيننا تلبية لدعوة من سياستيان الذي كانت خطيبته «إيرين» قد جاءت من لبنان لقضاء الإجازة معه في مصر.. وأصررت «ميريت» أن أذهب معها إلى الصالون للترحيب بها.

ذهبت مضطراً.. وكانت «إيرين» فتاة لطيفة وهادئة.. ملاعها طيبة جداً ولها براءة واضحة في طريقة كلامها.. ووجدتها مناسبة لباسنيان وكل منهما كان يحب الآخر بشكل واضح لأعيننا.. وبعد أقل من ساعة في الصالون طلبت «إيرين» من سياستيان أن تذهب إلى أي مكان آخر.. فذهبا إلى حديقة جروي القريبة.. وسألت «ميريت» إيرين لماذا تضايقت من المكان فقالت إيرين ببراءتها:

- يوجد به شيء غير مريح على الإطلاق.. طريقتهم في التعامل وفي الكلام مبتذلة للغاية.

نظرت إلى «ميريت» نظرة بها الكثير لكنها لم تستطع أن تقول شيئاً.. فقلت موجهة كلامي لإيرين:

- ظننت أن المكان لن يكون غريباً عليك.. ألم تأت من بيروت؟ أكثر البلدان العربية انفتاحاً على ما أعتقد.

ردت إيرين مفسرة:

- الوضع ليس له علاقة بانفتاح أو غيره.. هذا المكان موجود
مثله العشرات في بيروت وكازابلانكا وتونس ودي وغيرهم.. المشكلة
أنه به شيء خبيث واضح جداً.. ألم تلاحظوا ذلك؟

إنما أن استفيض في الحديث أكثر حتى لا استفز «ميريت» أو
أسبب لها حرجاً.. فعلى الرغم من أن سيامتيان هو من عرفنا نحن
الاثنين على المكان إلا أنه لم يكن يدافع عنه مثلما تفعل ميريت دائماً..
وانقضى عام على علاقتي بميريت. كان مليئاً بالخلافات والخروجات
التي تتبعها مكالمات طويلة حتى منتصف الليل.. وعلى الرغم من
خلافنا الدائمة لم تكن نستطيع أن نتعد عن كثيرٍ ودائماً ما نعود
للمقابلة في النهاية.. ورغم أسلوب حياتها المتقلب والجامع كانت
غلصة في علاقتها معي ولم تجعلني أشعر بأية غيرة تجاه شخص
بينه أبداً.. كانت الغيرة دوماً سيئها الأسلوب العام في التعامل مع
الحبطين.

قارب موعد الامتحان وكنت مشغولاً في مذكراتي ووجدت
«ميريت» لا تلفني بالأقربى إلى رسالتها وكأنها قد صرفت النظر
عنها وكلما حدثتها عن ذلك تهربت من الحديث. وبعد انقضاء
الامتحانات تشاجرنا بسبب رفضي ظهورها في أحد الكليات الراقصة
التي يقوم بإنتاجها الأستاذ شوكت. ونريت ساعتها أن أقطع علاقتي
بها نهائياً؛ فقد كان الطريق يسير إلى فراق في النهاية لا محالة.. إلا أنها
أزادت الأمور تعقيداً واعتذرت للأستاذ شوكت عن عرضه الذي
يسد أنها انتظرته كثيراً. ثم فاجأتني قائلة إنه ينتظر مقابلاتي لأمر
هام في الصالون أي يوم. لم أفهم ما الذي يمكن أن يريد مني ولم
تكن «ميريت» تعلم أي شيء.. ودفعني فضولي إلى الذهاب إليه.

عندما دخلت إلى الصالون توجهت إليه مباشرة لأعرف ما الذي يريد مني وكنت أنوي أن أفعل معه أي مشاجرة إن كان للموضوع علاقة بميريت.. لكنه فاجأني بعرض للتمثيل في أحد أفلامه.. وقال أنه دور كبير.. ولم تصدق ميريت نفسها وتفاجأ سباستيان وكل من كان في الصالون.. قلت له متعجباً إنني لم أمثل من قبل وليس لدي أي خبرة في التمثيل فقال دون اهتمام:

- هذا لا يهم، أمره بسيط، نعلمك التمثيل.

فألك متعجباً في شيء من السخرية:

- وما هي مقومات العظيمة في التمثيل إذاً كي تمنحني دوراً كبيراً مرة واحدة فقال بحكمة العالم بالأمور:

- لك وجه وسيم.. وطولك يناسب الدور جداً.

- هذه مقومات موديل إعلانات وليس ممثلاً.

غرداً في استهتار:

- وما الفارق؟ الممثل موديل في النهاية، لكنه موديل للشخصية،

ثم لماذا لا أراك مهتماً هذه فرصة يحلم بها أي إنسان في مثل سنك

قلت في حزم كل أنهي الموضوع وأنصرف من هذا المكان:

- أشكر عرضك جداً يا أستاذنا، لكنني في الحقيقة غير مهتم، أنا

رجل تاريخ، ولا أحب في حياتي سوى التاريخ.

واتسمت عينا «ميريت» غضباً وتركتها معهم وأنصرفت من المكان.

حاولت ميريت أن تهاتفني طوال الليل فلم أرد عليها، وسافرت في اليوم

التالي مباشرة إلى الأقصر مع ورشة تدريبية لطلاب الفرقة الثانية بالكلية.

ولم تنقطع رسائل ميريت ولا اتصالاتها على مدار اليومين التاليين.

وفي مساء اليوم الثالث قررت أن أرد على اتصالها، وجاء صوتها حزينًا وقالت إنها لا ذنب لها، وأن الموضوع لم يكن به أي إهانة كمي أنكرك المكان وأرحل في درامية هكذا.. وقالت لائمة في النهاية:

- كان يكفي أن تعتذر للرجل في لطيف.. هذا عمله الذي يجيده وهو لم يخطئ في حقك بأي شيء، وكان حقك أن ترفض ولن يجبرك أحد على شيء.

قلت في سرعة:

- ولماذا اتسعت عيناك في غضب إذا عندما رفضت عرضه؟ لقد ظننتك ستحرقيني بها.

فقلت في حزيني، وكان صوتها صادقًا:

- لماذا تتعمد إذلاي؟ أنا أحبك يا محبي، ولم أحب أحدًا قط مثلها أحييتك.. وفاجأتني تصريحها بحبيها لي.. رغم أننا نعرف عن تعلقنا الشديد ببعضنا البعض إلا أننا لم نعرف بذلك أبدًا من قبل.. وأنابت كلمتها قلبي غماصًا، وكنت واقفًا أمام غشال كبيرًا للملك المحارب تغمس الثالث في أحد معابد الكرنك بالأقصر ووجدته وكأنه ينظر إليّ في غمٍّ فأوليته ظهري وقلت وقد أختلج قلبي:

- وأنا أيضًا أحبك يا مبريت.

ظلت تمادئني إلى أن وصلت إلى الفندق، ثم تحدثنا ثانية حتى الفجر، وانفقتنا أن نلتقي فور عودتي مباشرة في الاستديو لديها بالزمالك حيث يعد سياستيان مفاجأة لإيرين بمناسبة عيد ميلادها، وأخذت أنتظر الأسبوع أن ينتهي في صبر حتى أقابلها، وكنت أفقدتها بشدة ولم تكن تنتهي من الحديث في الهاتف كل ليلة.. وكنت استيقظ يوميًا على رسائلها الرقيقة في صباح.

وصل القطار متأخراً ليلة عيد ميلاد لإيريس، وعرفت أنني
سأفوت المفاجأة من بدايتها.. انطلقت إلى منزلي سريعاً لأطبخ
على جدي ووجدت حالته غير مطمئنة فاتفقت معه أن نذهب إلى
الطبيب في اليوم التالي ولم يعترض.. فقد كان يدرك سوء حالته هذه
المرة.. وبالفيت في تأنسي وأنا ذاهب إلى الاستدبو.. وغور أن فتحت
في الباب الفت نفسها بين ذراعي فاحتضنتها طويلاً ولم أكن أريد
أن أفلتها.. وكانت رائحة عطرها الممزوجة برائحة شعرها تخترق
روحي حتى خلقت قلبي بعيداً ليقرر معها.. وكانت ترتدي ثوباً
أسود أنيقاً للغاية.

فور أن دخلت إلى الاستديو أحسست به زحاما شديداً رغم أنه لا
يكن به عدد كبير.. لكنه كان صغير الحجم؛ به غرفة واحدة وصالة
كبيرة ملحقة بها مطبخ جانبي. تفقدت الحضور فكان سباسبان
وليريس يجلسان متجاوران، وكان معظم الباقين من المترددين على
الصالون، وكان الأستاذ شوكت موجوداً بالطبع؛ فأدركت عيني بعيداً
كأنني لم أراه.

باركت لإيريس وأعطيتها قلادة منقوش عليها اسمها واسم
سباسبان بثلاث لغات مختلفة جلبتها لها من بازار في معروف
الأقصر، وفرحت بها كثيراً هي وسباسبان.

بعد قليل كان صداع خفيفاً بدأ يهاجم رأسي من مشقة السفر
لساعات طويلة بالفطار من الأقصر إلى القاهرة.. قمت إلى المطبخ
لأصنع لنفسني قهوة ولم أستاذن «ميريت» وقد اعتبرت أنه مكثراً
وقبل أن أصب القهوة كان صوت الموسيقى قد ارتفع بشكل بالغ
فيه وارتفع صوت تصفيق الموجودين، فالتفت أنظر بفضول.

فوجدت «ميريت» تتوسط دائرة اجتمع كل من في الاستديو بها، وكانت قد بدلت ثوبها الأول وارتدت ثوبا ذهيبا قصيرا ضيقا قد التصق تمامًا بجسدها لدرجة تجعل فمها لا يرى وأين ينتهي امرًا متجلاً.. وكانت ترقص في انسجام على نغمات للرقص الشرقي، وتتأهب مع الإيقاعات في احتراقة عالية.. عدت إلى المطبخ منكسرًا مما شاهدت، وكانت القهوة قد احترقت مثل قلبي فأخذت ما بقي منها وانزوت أشربه في مرارة ولم أستطع أن أفسد الليلة على إيرين أو سبستان بمشاجرة مكررة مع ميريت.. وبعد أن انصرف الجميع رفقت «ميريت» أن تتركني أذهب قبل أن تفهم ما حل بي.. وكان أكثر ما يفضيني أنها كانت تفهم.. حتى شككت أنها ربما تعمدت أن تفعل ذلك لضايقتي.. أغلقت «ميريت» الباب خلف آخر من رحل منهم ثم جلست جوارى ووضعت يدها فوق يدي وسألت:

- ماذا بك يا يحيى؟ لماذا تغيرت فجأة هكذا؟

وكنت قد سئمت منها ومن ألعابها هذه التي لا تنتهي، وأحسنت أنني قد استهلكت تمامًا.. أزحمت يدها برفق وقلت لها في هدوء تام:

- ماذا تريد مني يا ميرت؟ تعلمين كل العلم أننا لن نصل إلى شيء بهذه الطريقة.. كوني صريحة معي من فضلك وقولي لي ماذا تريد؟

قالت بنفس هدوئي:

- أريدك يا يحيى. قلت لك إنني أحبك منذ يومين فقط، رغم أنني انتظرت طويلاً أن تبدأ بها أنت، لكنني وجدت لك لن تفعل ذلك أبداً فلم أكابر. قلت لك ما في قلبي وما تعرفه وأعرفه أنا منذ مشهور.

- وماذا بعد الحب؟

قامت من مجلسها وجلست جوارى ملتصقة به ومسررت بهما
الناعمين في شعري ثم قالت:

- بعده كل شيء.

وانطلقت تقبل وجهي في وله.. وأخذت أنفاسها الحارة تحنني في
البداية إلا أنني وجدني سوف استجيب لإغوتها في النهاية.. وكانت
كلمات جدي لي في الشرفة حاضرة بقوة هذه المرة، وكأنه نفسه كان
معنا في الاستديو.. أبعدتها عني في لطف فلما مانعت أزعجها جانياً
ونفضت واقفاً.. فقامت هي أيضاً وقالت في غضب وقد علا صوتها
قائلاً:

- بل قل لي أنت ما الذي تريده مني لقد نفذ صبري معك يا
يحيى.

ثم صرخت:

- ماذا تريد؟

رددت في نفس هدوني السابق:

- لماذا تفعلين هذا بنفسك وي.. إلى أي سوء تريدان أن نذهب..
من هؤلاء الذين تقضين حياتك معهم.. ولماذا؟ أين «ميريت» الفتاة
التشكيلية الموهوبة التي عرفتني في الصالون؟ أين تذهبين بنفسك مع
هؤلاء؟ ومن هؤلاء أصلاً؟

قالت بنفس الغضب:

- من هؤلاء؟ هؤلاء هم النجوم يا يحيى.. هؤلاء هم الصفوة
فعل لي أنت.. كم فناناً تشكيليّاً في مصر.. في الوطن العربي كله..

في العالم؟ كم واحدًا منهم تعرفه؟ ستقول لي كثيرين.. حسنًا.. من غيري وغيرك يعرفهم.. لا أحد، هل تفهم؟ لا أحد.. لم أترك بلدي وأهلي لأصبح لا أحد.

- وهل هؤلاء هم من تركت أهلك وبلدك من أجلهم.

- بل من أجل حلمي.

- التمثيل؟

- من فصلك يا يحيى، لا داعي لأن تسخر مني.. أنت لا تعرف ماذا تركت من أجل أن أحافظ عليك إلى الآن.

قلت صائحًا:

- كفالكِ وهما يا ميريت.. أنت لم تتركي شيئًا لأجل أحد. كل ما تفعلين هو لأجل نفسك.. ونفسك فقط.. وشوكت هذا هل تظنين أنك سوف تصلين من ورائه لشيء.. لقد قلت أنت بنفسك من قبل.. هذا عمله وهو ماهر فيه.. وإن شئت رأيي.. أرى أنه ماهر فيه تمامًا ويحيد توظيف ممتلكاته جيدًا.

- ماذا تقصد؟

- ما أقصده واضحًا يا ميريت.. شوكت هذا لم يتركك إلا وجهًا جميلًا وجسدًا رائعًا، لو كان رأى فيك أي مكسب أكثر من هذا لم يكن ليتركك كل هذا الوقت.

فالت مصدومة:

- انحاسني على جمالي يا يحيى؟! جسدي هذا الذي يمتناه كل من في الصالون حرمته عليهم جميعًا. أتعرف لماذا؟ لأجلك أنت.

قلت لها في يأس:

- كان أكرم لك أن تحرمه عليهم لأجلك أنت.

ثم سكثت.. وكنت قد اكتفيت منها تمامًا.. وجلست هي في المقعد تبكي فقلت لها وأنا على الباب: «من فضلك دعيني وشأني هذه المرة.. ثم تركتها وانصرفت. وعلمت بيني وبين نفسي أننا انتهينا هذه المرة للأبد.. وفي منتصف اليوم التالي أرسلت إلي رسالة قصيرة قائلة: «انتظرك اليوم في جروبي.. ثمة شيء أخير أريد توضيحه لك.. اعتقد أن ما بيننا يستحق هذا اللقاء الأخير».

ولم أكن أفكر أن أستعيدها بأي صورة ممكنة، لكن النزاع صرخا وصورتها من روحي كان قائلاً، ووجدتني أرتدي ملابس متاعباً للقائهما في الموعد المحدد.. وقبل أن أذهب سمعت جدي يتحدث مع أحدهم في الصالة. تعجبت وظننته بناديني.. لكنني عندما نظرت إليه وجدته زائغ العينين.. وكان يقول شيئاً لا أفهمه.. ويوجّه حديثي إلى أبي ثم يسبه.. تلبّني الذعر من منظره وهو يخرف وأسرعت به إلى المستشفى، وفور أن رآه الطبيب المقيم قال إنها مبادئ غيبوية كبدية.. ونُقل إلى الرعاية المركزة وبقي فيها ثلاثة أيام.. وجاءتني رسالة من ميريت في الليلة نفسها قائلة: «لقد أحيتك بصديق من كل قلبي يا يحيى.. تذكر هذا دائماً». قلعتها في سري، وانتقل جدي في اليوم الثالث إلى غرفة عادية في المستشفى بعد أن عاد إليه وعبه ونحست حاله بشكل جزئي.. أخذت أقبل يديه كل صباح وأعده وأقسم له إنني لن أتركه وحيداً مرة أخرى.. فوضع يده على رأسي في مرة وقال مبسباً: «لم أكن وحيداً يا يحيى.. لم أكن وحيداً يا بني» ودخلت علينا الممرضة المسنولة في القسم.. ودخلت من ورائها زينب.



متأفدا وصلنا بالسيارة من قرية الجبل إلى الكامب.. وتوقف
السائق أمام غرفتي ولم يتكلم أدباً.. نظرت إلى باب الغرفة وكنت
أعرف مفدار اللوم والوحدة اللذين يتظرانني داخلها.. أخذت أنظر
إلى المكان الذي كانت تقف فيه باسمينا نهاراً.. ونظرت إلى ساعتني
وكانت قد تجاوزت التاسعة بقليل، ثم التفتت إلى امرأة السيارة أبعدت
فيها عن وجه زينب، وكانت الإضاءة في الكامب شبه معتمة.. فلم
أستطع أن ألمح في المرأة أي شيء.. فكرت أن أسأل السائق أن يضيء أي
شيء في كابينة السيارة، ووجدت أن طلبتي مسخيفاً، ولم يسألني إن كنت
سأزول أم ماذا؟ نظرت إلى المرأة مرة أخرى ثم طلبت منه طلباً أكثر
سخافة وقلت:

- متأسف جداً.. لكن هل يمكنك أن تكمل جميلك وتوصلني إلى
الغرفة؟

لم يبد أي تذمر أو اعتراض، و فور أن خرجنا من بوابة الكامب
سألني:

- إلى أي مكان في الغرفة يا دكتور؟

فقلت بين شرودي:

- إلى الماريتا..



(٤)

ياسمينًا

عزيزيتي بيلا: خمسة عشر عامًا من الوحدة يا بيلا.. خمسة عشر عامًا من التزييف كلما لمسني أحدهم.. لم تبدد سوى الليلة..

أعلم أنك تتعجبين من كتابتي إليك للمرة الثانية في نفس اليوم، لكنني لا بُد أن أحكي لأحد يا حبيبي.. ومن لي سواك؟!!

لقد جاء يحيى يا أمي.. جاء الليلة ولم يغيب ظني.. جاء أخير بعد أن انتظرته طويلاً.

لماذا لم يقل لي «زين» من البداية إنه رفيق هكذا؟ لماذا لم يقل إنه يكون وسيماً إلى تلك الدرجة في الليل.. أه يا أمي لو أنك تعرفين ذلك الإحساس الذي أحسسته.. لقد كنت مدفونة طيلة هذه الأعوام حتى نسيت أنني أنسى.

يقول يحيى إنه لا يصلح للعلاقات، ولكن أتعلمين شيئاً يا أمي الحبيبة؟ هذا لا يهم. لم يعد شيء يهم. لقد كان يكفيني أن أشعر بها شعرت به الليلة.. قطرة من الماء في عمر طويل من الظلم، حتى أنني أدركت معنى الارتواء اللبنة فقط.

القيت نفسي بعد ما وقع لي مع فلييب إلى الحياة تلقى بي حيث
 شاءت.. وميت ثوب المشاعر جانباً، وارتديت ثياب الجمود.. تقنعت
 بأقمة القوة مخفية ضعفي داخل روحي.. حتى لا يراه أحد.. وظل
 هناك في أعماق روحي حتى نسيته تماماً، أخذتني الحياة يا بيلا عل
 حين غرة وطمعت «ياسمين» الرقيقة في داخلي.. واستبدلها بأخرى
 جامدة.. نتحدث كالآلة.. نتحرك كالآلة.. نعيش كالآلة.. وكانت
 تنوي أن تتمرد على كونها آلة فقط عندما تموت كالإنسان.

لكن الليلة يا أمي حدث لي ما لم أتوقع أنه قد يحدث أبداً.

لقد لمسني بحبي يا بيلا.. لمس جسدي فلم يحدث لي أي مكروه.

لم أنزف يا بيلا.. هل تصدقين! لم أنزف ولم أفهم السبب.

هل كان ذلك لأنه لمس روحي قبلها؟

سأظل معه يا بيلا.. سأظل وراءه إلى أن أعرف السر..

لكن.. ترى متى يمكنكني أن أخبره بسرنا يا بيلا؟

أحبك.. وأتمنى لو أراك مرة واحدة أخرى.

ابتك المحبة: ياسمين..



جلس بجيبي أمامي في كافيته «the cave» بالمارينا وقال وكأنه يزيح
 عبثاً ثقباً من فوق كتفيه:

- اعلمي أنني رجل مستهلك. رجل لا يصلح للعلاقات. يجب أن
 تعرفي هذا جيداً.

رددت لـ «أعقب» على كلامه وأسأله مباشرة «لماذا أتيت إذا؟»

لكنني اشرت إلى النادل وطلبت له قهوة، وطلبت لنفسى قهوة ثانية..
ظل يحبس صامتًا الوقت طويل بنظر في شروء عبر نافذة المقهى الزجاجي
إلى اليخوت المراساة في نظام شديد بالخليج الصغير للمارينا. لم أشاء أن
أقطع عليه صمته وبقيت أنفحسه في فضولي وإن كنت أشعر أنه يراني
بعمقٍ نالسة لأراها، قال بعد صمتٍ طويل دون أن يلتفت إليّ:
- لكنتك مصرية تمامًا.

فرحت أنه قطع صمته أخيرًا وقلت في سرعة:
- قلت لك اليوم في الكامب إن جدي كان مصرية. كما أنني
عشت في الإسكندرية سنين كثيرة.
جاء النادل ووضع القهوة على المنضدة واستأذن في أدبٍ رافعًا
الفنجان الفارغ من أمامي.. بعد أن انصرف التفت إليّ بحس وقال
سائلًا:

- هل أعجبتك القهوة هنا؟ أرى أنها أعجبتك.
وأشار إلى الفنجان الثاني الذي طلبته.. فأجبت:
- نعم.. أعجبني كثيرًا جدًا.. شكرًا على ترشيحك المكان.
ثم عاد لصمته من جديد، فأسرعت أسأل قبل أن أفقد الحديث
معه:

- قال لي عارف إنك أستاذ للتاريخ القديم.
- لا ليس هكذا، مدرس مساعد.. أعني كنت.
- وفي أي تخصص في التاريخ القديم؟
- اللغات القديمة.. اللغة المصرية القديمة.

ثم تناول القهوة من أمامه ورشف منها في نلذذ.. نظر إليّ بعينه مرة أخرى وكانت له عيناان قويتان.. حينها ينظر قبل أن يتكلم أكاد أشعر أنه سوف يخترقني بهما.. سأل بحبي:

- كنت أظنكم لا تشربون القهوة في المساء أبدًا. عندما كنت في لندن كان أصدقاؤني الإنجليزيون يعتبرون شربها خطيئة إذا تم مساءً. ابتسمت وقلت له رغم أنه ما زال ينظر إليّ بنفس العينين:

- نظمت! أنا لست أجنبية يا بحبي.. قلت لك إنني عشت في مصر نصف عمري تقريبًا.. كما أنني لست إنجليزية.. وعمومًا نحن نشرب القهوة في اليونان في أي وقت، فهي مشروب يوناني في الأصل، وهم أول من ابتكروها.
ردّ متعجبًا:

- مشروب يوناني! حقًا؟ هذه أول مرة أعرف.

نظرت إليه لثواني ولم أستطع أن أكتف ضحكتي العالية، ثم قلت له بين ضحكاتي:

- أنت بريء جدًا.. الكل يعرف أن القهوة من اكتشاف الأثيوبيين، وأول من صنعها هم البمنيون.. كنت أمزح معك.

قال متصنّعًا الغضب:

- أنسخرين مني؟

- لا أقصد.. لكن ألت تقول إنك غتص في التاريخ؟

قال بسرعة مازحًا:

- أنا متخصص في تاريخ اللغات القديمة.. وليس تاريخ المشروبات الساخنة.

فعلت ضحكاتي أكثر.. ووجدت يحس ينظر إليّ متأملاً وجهي وإن
أضحك وسألني بعد أن انتهت من الضحك:

- ما الذي تفعله جميلة مثلك وحدها هنا في الغردقة؟

ردت عليه:

- أنا لست جميلة.

اتسعت عيناه تعجباً من ردي، فتابعته قائلة وأنا أشير إلى الحاجز
الأنفي بين عيني:

- لدي اعوجاج هنا واضح جداً.. ألا تراه؟.. لقد ورثته من
والدي بيلا وورثت هي مثله عن جدتي روز.

قال وهو يمعن النظر في وجهي:

- لا ليس واضحاً إلى هذا الحد، ويمكنك أن تقوم به بعملية تجميل
بسيطة.. وما أكثرها.

- بالطبع لا، ما الذي يدفعني إلى ذلك، أنا أحب وجهي كما هو..
كما أنني لا أقتنع بمبدأ عمليات التجميل من الأساس.
- ولم ذلك؟

قلت وأنا اعتدل في جلستي:

- أنا عامة ضد المبدأ، أحياناً أشعر أنها قد تظهر العيوب بشكل
أكبر، تخيل أنك تعاملت مع جسد الإنسان كمنتج ولبس مخلوق
يصبح جنبها أول ما مسرف تلمحه عينيك في هذا المنتج هو أصغر
عيب فيه، حتى إنك ترى الشيء الطبيعي فيه وكأنه عيب.. بروز ما
في غير مكانه.. شفاء رقيقة أكثر من اللازم. إحدى الأسنان تبدو أكبر
مما يجاورها.. وهكذا.. كما أن السعي إلى إبراز جمال لا تملكه يبدو لي

نوعاً من الغش التجاري ليس أكثر، وأنا لست سلعة كي أسعى إلى إخفاء اعوجاج بسيط في أنفي.

هذا يجس متبهاً تماماً لما أقول، وظل ينظر إليّ بتركيز شديد، ثم اشعل سيجارة وقال:

.. أنفق معك في كل ما تقولين.. لكن لا أحد يفكر بتلك الطريقة إلا نادراً، لكنك لم تجيبي على سؤالني إلى الآن.. ما الذي فعله جملة تلك وحدها في الفردقة؟

عد إلى تكراره كلمة «جملة» ووجدت فيه شيئاً من الغزل فابتسمت قائلة:

- كنت في أحد المؤتمرات مؤخراً في الإسكندرية، وكنت أحضر لبدء مشروعني الخاص، وقررت أن أخذ إجازة طويلة قبل العصر الطويل الذي سوف يستهلكه مشروعني قبل أن يدر دخلاً.

وكان بحقي في تمامها، وأحسست أنه يعلم أنني أكذب، وأحسست أنني أود لو أحكي له عن كل شيء.. أحكي له عن روز وبلا والإسكندرية.. أحكي له عن محل الأزهار في «رودس» وعن فيليب.. أحكي له عن واقعة الكسوخ والتزييف الذي لا ينتهي.. وأحكي له عن زين.. وأحسست أنني حتى وإن حكيت له فسوف أحكي ما أسمع أنه يعرف مسبقاً كلما نظر إليّ بهاتين العينين.. أصابتنني عيناه بالفريد من الانبعاث فسألت محاولة أن أغير الأسئلة تجاهه وأنا لا أعلم عنه شيئاً بعد، وقلت:

- وما الذي يفعله متخصص في اللغات القديمة في كامب للسافاري في الفردقة؟

رد مباشرة:

- لا أعرف..

ولم يكن يجب ينفض أو استياء.. كان يبدو صريحاً، مؤشراً
إليهم هذا، وتابع:

- لكنني لن أرحل قبل أن أعرف لهذا إجابة.

ثم عاد إلى مشروده في أليخوت بالمدينة مرة أخرى..

كان عدد الموجودين في الكافيه قد بدأ يقل تدريجياً وهذا القصر
المعتاد نوعاً، وبدأ صوت الموسيقى يأخذ مساحة أكثر.. وكنت
«ميلين ديرن» تشدو بأغنية when i need you.. نظرت لشروود بعين
ونرددت كثيراً جداً قبل أن أتحمة قائلة:

- هل أنت مرتبط.. أو متزوج؟ أعني.. لا أرى ديلة في يدك!

ولا أدري كيف وانتني الشجاعة كي أسأله هذا السؤال، لكنني
لم أكن أطيق صبراً في سؤاله.. كنت نفسي مباشرة عندما لم يرد علي
سؤالي وسمعت بإحراج شديد.. لكنه ردّ بعد قليل قائلاً:

- كنت متزوجاً.

قالها في مرارٍ وحزنٍ شديدين.. ولم أشأ أن أتحم خصوصته أكثر
لكنني تطوعت بأن أخبره عني وفلت:

- أنا لم يسبق لي الزواج من قبل.

فالتفت سائلاً بفضول:

- ولم؟ هل الزواج معقد في اليونان مثل بقية الدول الأخرى في
الغرب؟

- الزواج ليس معقد في الغرب.. على العكس.. إنه بسيط مثل كل
شيء هناك، لكنه قليل بالطبع مقارنة بالشرق.

- وكيف لا يكون معقدًا؟.. ما أعلمه هو أن العلاقات تبدأ في
لورديا وأمريكا في سنين مبكرة جدًا.. لكن الزواج يكاد أن يكون
نادر الحدوث.

- ليس نادرًا.. هو قليل جدًا مقارنة بالدول الشرقية كما قلت..
الفكرة أن الغرب صريح مع نفسه في كل شيء، وصريح مع الآخر
أيضًا.. يمكنك أن تقول أنهم صرحاء في أنانيتهم بشكل كبير، والزواج
يحتاج إلى شجاعة كبيرة وتضحيات كثيرة لا يقدمون عليها مثل
الجمعات الشرقية، لكنهم هنا كما لاحظت في الفترة التي عشتها
بالإسكندرية.. يملكون قدرًا كبيرًا جدًا من الشجاعة.. لكن غالبًا ما
ينقصها النضج.

وقال يحيى مؤقتًا على كلامي:

- اتفق معك أيضًا فيما نقولين؛ لذلك تكون حالات الانفصال
والطلاق كثيرة جدًا.

طنت للحظة أنه يعني نفسه في كلامه، ومنعت فضولي بصعوبة في
سؤاله عما يقصد.. وقلت:

- لكن حالات الخيانة منتشرة أيضًا في الغرب، وهذا شيء لا يمكن
إنكاره. وهي تدل بشكل واضح على إصابتهم بالملل السريع من
الالتزام في علاقة مستقرة لوقت طويل.

فقال يحيى في تحفز واضح:

- لكن ما ذنب طرف أراد الاستمرار في علاقة رفض الآخر في
متصفها أن يكملها.. ألا يجني من هذا كله سوى الألم من الحب
والعلاقات؟

- العلاقات في رأيي لا تؤلم.. وكذلك الحب.. أعتقد أن ما يؤلم هو ما نطنه ونقنها أنه حب بينما يكون مجرد رغبة في الاحتفاظ باحتياج شخص ما إلى وجودنا.

علق يحيى قائلا في تعجب:

- الحب لا يؤلم؟ لا يوجد ما يؤلم أكثر منه.

- لا أتفق معك.. فليس الحب هو ما يؤلم في نهاية العلاقة.. الرغبة في الاستحواذ هي التي تؤلم.. بينما الحب مفهومة أكبر من ذلك.

أخذ يحيى ينظر إليّ في صمت وبدأ وكأنه يراجع كلامي ويقلبني رأسه.. ومالبث أن ابتسم قائلا:

- فليت لي ماذا تعملين؟

رددت مبتسمة وقد فهمت قصده:

- لا ألت خبيرة في العلاقات وكل هذا العبث.. بل إنني فاشلة جدا فيها بشكل لا يمكنك تخيله.

- وماذا تعملين إذا؟

- استشارية للتسويق لدى بعض الشركات في الشرق الأوسط.

تسم يحيى قائلا:

- أها.. فهمت.. ولذلك نجيد تسويق كلامك جيدا.

نضحكت لقوله ورددت:

- ربما يكون كلامك صحيحا.. لقد أضعت سنوات طويلة من عمري أكتسب خبرات كثيرة في كيفية بيع أي شيء للمستهلك دون أن يحتاجها.. وما أسهل الكلام بالطبع.

ظل يحيى ينظر إليّ نفس النظرة التي كنت قد حفظتها في عيني

طوال جلستي معه.. وأحسست وكأنه يحاول أن يقرأ ما في داخلي
أكثر وأكثر وسأل بصوت جاء حائياً:

- لكنني سأتركك فعلاً.. لماذا ما زلت وحيدة؟ واضح من كلامك
إنك تؤمنين بالعلاقات المستمرة وتدعمين فكرتها.

أرجعني بسؤاله وهرب حزني من عيني وقلت:

- ما زلت أبحث عن من لم يجدي بعد.

وعاد يجي لينظر إليّ لكنني شردت منه فيما مضى من حياتي
ووجدت الطويلة فيها منذ زمن بعيد.. وجاء النادل بعدها فوضع
قائمة حساب القهوة أمامنا وانصرف فقال بجي:

- يبدو أنهم يطردونا بأدب.

قلت و أنا أخرج النقود من حقيبتي:

- الوقت تأخر بالفعل لكننا لم نشرب به.. لقد اقترب منتصف
الليل.

- ما زال هذا مبكراً جداً بالنسبة لي.. في القاهرة من الصعب أن
بغلق المقهى أبوابه قبل الفجر.

ثم أشار بيده وأنا أخرج النقود قائلاً:

- اسحمني لي من فضلك.

فقلت:

- لكن أنا التي دعوتك.. إذا أنا من أدفع الحساب.

- ألم تقولي إنك مصرية؟

وكان يشتم فلم أشأ أن أضايقه.. ولم أكن أرغب أن تنتهي الجلسة
معه بهذه السرعة.. لم أتحدث مع رجل هكذا يوماً منذ سنوات كثيرة

مضت لم أعد أذكر عدها.. وكان هناك مفهـى لم يخلق أبوابه بعد..
وبه عدد من الزبائن يبدو أنهم يسهرون لبعض الوقت.. أشرت لى
بحيى ألقيت انتباهه إليه وقلت:

- إن لم تكن متعجلاً؟.. فهناك مفهـى..

ولم أستطع أن أضيف وقلت في نفسي ربما كان مثلي لا يريد أن
يذهب لكنه نظر في ساعته وقال وهو ينهض بعد أن وضع النشود:
- الوقت تأخر فعلاً.. ما زال أمامي طريق طويل للكاتب.

قلت بإحباط:

- على راحتك.

- أين نقيم بالغرقة؟

- في النزل الليبي.. عندما جئت كنت أسكن في فندق الواحة لكني
اكتشفت أن إقامتي سوف تطول، وجددتني فد أنفق ثروة على الفندق
فاستأجرت استديو صغير في النزل الليبي.. أتعرف مكانه؟
قال:

- بالتأكيد.. إنه قريب جداً.. تعالي أوصلك إليه.

فرحت بشدة من عرضه وتأكدت أنه كان يود لو تطول جلستنا
مثلي تماماً.. حاولت أن أخفي فرحتي وبادرت بسؤاله:

- وأنت.. كيف متعود إلى وادي حبيبة في هذه الساعة؟

- التاكسيات هنا لا تنام.. أنا زبون لقطة لأي سائق تاكسي في هذه
الساعة.

ثم ابتسم ومررنا متجاورين على الممر الخارج من المارينا ومنها إلى
الشارع.. حتى توقفنا مجبرين أمام الممر المحفور أرضاً بطول الشارع

والذي كان يضايقني عبوره كلما جئت هنا، وكانت الإصلاحات فيه
لا تنهي أبدًا.. وقال بحسبي:

- انتظري.

وعبره برشاقة الى الجهة الأخرى، ثم مد يده إليّ قائلاً: «لا تخافي»
ولم أكن خائفة لأنني أعبره يوميًا تقريبًا، لكنني كنت أنظر في عينيه
عندما سحبني وكذبت فعلاً أن أسقط في الممر المحفور لكنه أمسكني
بقوة وضممني إليه قبل أن تنزلق قدمي، وضحكك رغماً عني، ثم
رحنا نتمشي في الطريق الرئيسي المؤدي في نهايته إلى سكني ولم أشعر
بنفسي وأنا أقرب منه شيئاً فشيئاً وكأن به ما يجذب جسدي كي
ألتصق به.. حتى صرنا متلاصقين تقريباً وودت لو يضع يده حول
كففي ويضممني إليه ونحن سائران مثل عاشقين.. ثم انتهت فجأة
وتذكرت أنه أمسكني من يدي وضممني إليه عندما كذبت أقع في
الحفرة أمام مدخل المارينسا ولم يحدث لي شيء.. حتى إنني توقفت في
الشوارع من شدة المفاجأة وسألني متعجباً: «ما بك؟» فقلت كي لا
يخرج من فعلي: «لا شيء.. لا شيء» وتسارعت ضربات قلبي وأسرعت
يدي تنحس أنفسي وشفتي وكأننا طبعيتين.. فتمعجت. وكنا قد
اقتربنا من مكان سكني، وكان يحس ما زال يتكلم عن التعبير الكبير
الذي حدث في الغردقة في السنوات الأخيرة لكنني لم أكن متبهة لأي
شيء مما يقول، وكانت فكرة واحدة تسيطر على رأسي وتحتل تفكيري
كله. حتى لم أعد أطيق صبراً فتوقفت فجأة وقلت له:

- هل تسمح لي أن أجرب شيئاً.. لكن لا تفهم أي شيء خطأ.

فردة في عدم فهم:

- ماذا تريد أن تفعل؟

فامسكت يده ووضعت فيها يدي وابتسمت له قائلة: «هنا»
ثم سرت.. فابتسم وسار جوارى، وظلت كفي في كفه، ولم يمانع وإن
ظل متعجباً مما فعلت.. وأخذ قلبي يقفز في خفقانه وتسارع تنفسي،
وكنت أضغ يدي الأخرى كل لحظة أتمسس شفتي وأنفسي.. لكنني
بقيت طيعة ولم يحدث لي شيء..!

وشبكت أصابعي في أصابع يحيى وأخذت أضغط بها في رفق،
وكدت أن ألقى نفسي بين ذراعيه.. لكنه بعد فترة قليلة وجدني
بمسح يده في رفق وكنا قد اقتربنا أمام باب النزل.. ووددت لو
تركت يدي معه إلى الصباح كي أتأكد، وقال عندما وصلنا إلى البنى:
- أظن أننا وصلنا.. أليس كذلك؟

فقلت وأنا أشير إلى نافذة مضيئة في الدور الثالث بالمبنى:

- نعم.. هذه هي غرفتي.. النافذة الوحيدة المضيئة هناك.

- أنسيته إضاءتها؟

- لا لم أنس.. دائماً ما أفعل ذلك إذا خرجت ليلاً.

وابتسمت في خجل وأنا أتابع:

- لا أحب أن ادخل غرفتي فأجدها مظلمة.

فابتسم ولم يقل شيء، فسألته:

- هل ساراك ثانية؟

سكت طويلاً ثم تنهد قائلاً:

- أتمنى أن نلتقي ثانية.. لكن يجب أن أؤكد عليك مرة ثانية..

فقلت مقاطعة:

- أعلم أعلم.. إنك لا تصلح للعلاقات.

ونابت في خفوت يكاد أن لا يُسمع:

.. ولا أنا أيضًا.. سوف نكون صديقين وهذا بكفيني.. ليس لي من أحدهنا.. ولا في مصر كلها.

وتبادلنا أرقام هواتفنا، وانصرف يحبسي وأسرعني إلى غرفتي كي أكتب إلى بيلا.



دخلت من البوابة وكان حارس العقار نائمًا كالعادة ودخلت إلى المصعد متجهة إلى الدور الذي أسكن فيه.. نظرت إلى وجهي في المرآة أنفقدته، وأخذت أسأل نفسي هل كنت أبدًا جميلة هكذا كما رأي بيبي؟ أم أنه كان يحاملني.. ونظرت إلى أنفي في المرآة بدقة، وأخذت أنفحصه ووجدت أن الأعوجاج كان طفيفًا جدًا.. لكنه واضح لي لكوني أعرف بوجوده.. وسألت نفسي: هل أحتاج فعلًا إلى جراحة لتفويمه؟ وابتسمت وقلت لنفسي: «وأنا التي كانت تعترض على عمليات التجميل».. لكن ظهور بيبي المفاجئ هذا جعلني أرغب حقًا في أن أبدوا أكثر جمالًا.

دخلت الاستوديو، وكنت أشعر ببهجة غير عادية.. وفور أن صرت وحدي أحسست أنني أنفقدته بشدة.. أخرجت الهاتف لأتأكد من أنني حفظت رقمه على الهاتف فعليًا، ولما وجدت أنني حفظته وكان اسمه أماسي، أحسست أنني أرغب في عادثته.. لكنني ترددت. وفي النهاية أرسلت إليه قائلة: «من فضلك.. طمئني عندما تصل.. باسمينا» ودللتها باسمي مخافة أن لا يكون قد قام بتسجيل رقمي.

قمعت إلى مشغل الأغاني وبحثت فيه حتى وجدت بها أغنية «سبلين ديون» التي كانت تشدو بها في الكافيه.. وأعدت تشغيلها

وارغميت على الفراش أفكر في يحيى واسترجع كلامه.. وأخذت أنساء لماذا يكون قد انفصل عن زوجته؟.. وهل كان يحبها؟ أم أن كما ذكر ونحن نتحدث عن زواج الشرقيين، كان قد تزوج دون حب ودون نضج كاف؟ ثم عدت أتذكر شكل عينيه وهو ينظر إلى وجهي وينفحمني كلما تكلمت.. وشكلها وهما تفتحان روعي كلما نطقت بشيء.. وكان فيهما عمرٌ كبيرٌ أكبر مما تبدو عليه هيأته. وقلت لنفسي ترى كم يكون سنه؟ وقد رت أنه في الغالب لم يتخط الأربعين بأية حال.. رغم الخصلات البيضاء التي كانت تغزو جزءاً كبيراً من شعره الطويل.. والذي لم يصف معظمه وتركه نائراً حول رأسه.. فبدأ لي أكثر وسامة ورجولة.. ووجدتني تنهدت في حب وأخذت أنظر إلى سقف الاستوديو وقد قاومت رغبة جديدة مليحة في سماعي لصوته.. حتى جاءتني رسالة قصيرة منه بعد قليل على الهاتف كتب فيها «وصلت.. شكراً لك» ففرحت أكثر من رده علي، وكدت أنوم لأرقص.. وفكرت أن أحادثه لكنني خفت أن أكون لوحدة فكتبت له رسالة أخرى أشكره على قدمه لكنني لم أرسلها حتى لا يظنني مراقبة ترصده.

أحضرت أوراقني وكتبت إلى «بيلا» أحكي لها عنه وعن مقابله.. ثم عدت إلى فراشي أستعيد كل ما مرّ بي منذ ما حدث مع فليب في الكوخ أمام البحر في «رودس».. ولم أجد إجابة واحدة عن الاستياء الغريب الذي حدث مع يحيى.

علمت من فليب أنه غور سقوطي أمامه في الكوخ فزع وأسرع إلى أول مستشفى.. وبقيت فاقدة للوعي بعدها لمدة ساعتين. كان قد

حضر فيها أبي وتشاجر مع فلييب ومع الطيب الذي أخبره أنه لا يرجد تشخيص مبدأي لحائتي بعد. فقط قاموا بتعليق بعض المحاليل للمحافظة على ضغطتي من الهبوط الحاد نتيجة لتوبة النزيف الغربية هذه. ثم سحب الطيب بعض العينات من دمائي لإجراء بعض الفحوصات في محاولة منه لمعرفة سبب النزيف المفاجئ، وكان أبي ينظر إليّ في خوف ممزوج بعناب شديد فأشرت إليه أن اقرب.. وممست في أفنيء لم يفعل فلييب معي أي شيء.. أقسم لك.. ما زلت عذراء.. فاضطرب وجهه وأبدى استياءً شديداً من كلامي واحتضنتني قائلاً: «لم أفكر في أمرٍ مثل هذا قط».. لماذا تظنين ذلك؟»

لكنني كنت أعلم بالتأكيد أول شيء سيدور في رأسه.. فهو من أهل «رودس» ومعظم سكانها كانوا لا يزالون من العائلات المحافظة في أوروبا.. سألت عن أي شيء قد أخبره به الطيب فردّ نافيّاً. وفي نهاية اليوم، وبعد إجراء عدد كبير من التحاليل جاء الطيب وسألنا إن كان قد مرّ أي أحد في عائلتي بأمر مشابه.. فأخبرته أنني أجبت على نفس السؤال عدة مرات وقلت إنني لا أعلم.. فقد مانت أمي بيلاً من نزيف شديد مفاجئ لم نعرف له سبباً.. وامتنع وجه أبي عندما أتيت على ذكر بيلاً.. وخاف أن يكون ما مرّ بي له علاقة بمرض أكون قد ورثته منها وأن ألقى نفس مصيرها المحزن.. وفي نهاية الأمر قال الطيب:

- تحت أي ظرف ومهما كانت الأسباب.. في الغالب هي حالة مورفيليا.

سأله والدي مفسراً عما يقوله فقال له الطيب مفسراً:

- هذا مرض وراثي يسبب نوع حاد من سيولة الدم.. عوامل التجلط المسنولة عن إيقاف النزيف في حالات الجروح أو الإصابات

بكدمات أو كسور تكون غير موجودة.. ولا يستطيع الجسم أن يسيطر عليها.. وقد يظل المريض بنزف لوقت غير محدد.
خفت بشدة مما يقوله فسألته:

- لكنك تقول إن هذا يحدث نتيجة إصابة بجروح أو كدمات..
لكني لم يحدث لي أي شيء.. لقد بدأ التزيف وحده دون مقدمات أو أن
لأسباب سم قد ذكرتها.

- أعلم ذلك.. لكن التحاليل التي أجريتها لك تؤكد أن
لديك نقص حاد في عوامل التجلط التي تكون ناقصة في حالات
الهيموفيليا.. ربما حدثت لك كدمة خفيفة دون أن تشعر.. ربما كانت
حالتك نوعاً نادراً من الهيموفيليا لكنها في النهاية وطبقاً للتحاليل
التي أجريتها.. هي حالة هيموفيليا.. وسوف تظلين معنا لمدة ثلاثة
أيام لتلقي العلاج الخاص بهذا المرض، وقبل خروجك سوف نقوم
بإعطائك بعض الإرشادات الخاصة بالتعامل مع مثل هذه الأعراض
حتى تكرر ذلك.. وهو أمر وارد بالتأكيد.

وبعد أن انتهى الطبيب من شرح حالتي لي ولأبي، وقبل أن ينصرف
سألته في خوف فائقة:

- هل هي حالة خطيرة؟

فردّ بلهجة تقريرية وكأنه آلة:

- كان هذا فيما مضى يُعد مرضاً قاتلاً وليس له علاج معروف..
أما الآن بعض البلازما وعوامل التجلط تنهي المشكلة.

ثم تابع وهو يضغط على آخر كلماته:

- تنهي المشكلة بشكل مؤقت.. لكنك ستظلين عرضة لها.

أي وقت.. لذلك لن نسمح لك بالخروج قبل اطلاعك على كافة الإرشادات الخاصة بحالتك.

ثم استاذننا وانصرف ولم أفهم منه مدى خطورة حالتي.. سألتني عن فيليب فأخبرني أنه ينتظر بالخارج.. وطلبت منه أن يتأذى.. فبجاء ووجهه باهتا من الأمر.. وخرج واليدي ليتركنا على راحتنا.. فقد كان رغم كل شيء يشجع علاقتي معه لكونه من أهل «رودس» مثلنا.. ومن العائلات المعروفة فيها.. وكنت قد علمت من «بيلا» في سره أنه كان يخشى عليّ ونحن في الإسكندرية أن أتعلق بأحد الشباب المصريين قبل أن نعود.

جذب فيليب مقعدًا حول القرائش الذي كنت أرقد عليه وحاول أن ينم في صعوبة شديدة وقال وهو يمسك بيدي ليطمئنني:

- لا تقلقي.. سيكون كل شيء على...

ثم قطع كلامه فجأة وخرج مسرعًا يستدعي التمريض.. وكان التريف من أنفي قد عاد بهاجمني ثانية.

مكثت لأسبوع كامل في المستشفى، وخضعت لعدد آخر من الفحوصات والأشعة.. لكن لم يجدوا جديدًا، وأصر الطبيب وطبيب آخر غنصًا في أمراض الدم على نفس التشخيص.. وخرجت عائدة إلى منزلي مع واليدي.

ظللت راقدة في منزلي ليومين آخرين، وكنت قد حفظت كل الإرشادات التي أخبرني بها الطبيب في المستشفى يوم عودتي.. وحرصت على تناول أدويتي بانتظام.. وفي اليوم الثالث وبعد إلحاح شديد على واليدي عادت إلى محل الأزهار.. ولم أقبل أن أكون ملازمة للفراش مثل الموتى لمجرد أنني ترفضت بعضًا من الدعاء.

جاء فيليب ومعه باقة كبيرة من الأزهار وضعها أمامي على المكتب الصغير في محل الأزهار.. وأخذ يمسسني على دحسول الامتحانات وعدم التحجج بموضوع التزييف هذا.. وقد كنت أفكر جدياً في تأجيل الامتحانات لعام آخر ومع أول قبلة وضعها فيليب على جبهتي وهو يحتضنني عاد التزييف من أنفي مرة أخرى وأدركنا نحن الاثنين ماعنها أنه لا يحدث إلا عندما يقوم بلمسي.. وكان التزييف بسيطاً تلك المرة، وأسرعت بوضع أكياس الثلج الصغيرة التي كنت أحتفظ بها في مبرد بالمحل تحسباً لأي نوبة قد تأتي.. وقال فيليب «أنا لا أفهم شيئاً» فطلبت منه في هدوء أن يرحل.. وكأنه كان ينتظر ذلك.. فرحل دون اعتراض.

هربت من خوفي من يحدث إليّ بالاقراط في المذاكرة ومحاولة تجاوز الامتحانات بأية طريقة.. ونجحت في ذلك رغم ما مرّ بي.. وبعد انتهاء الامتحانات عدت إلى عملي بمحل الأزهار وقد بقيت أمامي فترة قليلة لجمع ما أريد من مال تجهيزاً لفترة الجامعة.. ولم يحاول فيليب التواصل معي مرة أخرى بعد ما حدث لي في المرة الأخيرة. بدأت تصل إلى أذني أحاديث متناثرة عن فتاة رودس الملونة.. والتي تنزف دمًا فور أن يلمسها حبيها.. وكان ما يشغل بالي في وقتها هل الموضوع متعلق بي أم بفيليب.. ولم أجروء على اختبار ذلك فترة تواجدني في «رودس».. وإن كنت أعلم أن الموضوع يخصني وحدي.. فقد كان فيليب قد أخبرني عبر علاقة سابقة له مع إحدى الفتيات في الجزيرة قبلي ولم يأت على ذكر أي شيء غريب بخصوصها.. لكنني منيت نفسي كذباً أنه ربما كان قد أخفى علي الأمر.

رحب والدي بانتقالي للعيش في سكن الجامعة في أثينا خاصة بعد

انتشار حكايتي بين سكان رودس وبين جيراننا جميعًا. وكانت الحيرة في البداية هي المفاضلة بين جامعتي «أرسطو» في «سالونيك» وبين جامعة أثينا.. وكانت النفقات ستكون أكثر بالطبع في جامعة أثينا لكنني كنت أعتقد أنها ستوفر لي فرصة أكبر للعمل عن سالونيك.. فحسنت أمري وتقدمت بأوراقني إلى جامعة أثينا للدراسة بكلية الاقتصاد فيها.. وانتقلت إلى العاصمة تاركة «رودس» وما حدث فيها وراء ظهري.

تركنت نفسي للجامعة وللدراسة فيها تحتفظني من أول يوم.. والتحقّت للعمل كنادلة بأحد المطاعم الإيطالية بعد شهر واحد من بداية الدراسة.. وكنت آخذ حذري تمامًا وأتجنب الاحتكاك الجسدي بأي شخص في محيطي، إلا أنني بعد فترة كنت قد كدت أن أنسى أو أناسي ما حدث مع فيليب.. ووجدت أن الأمر عادي.. وسلمت بأنه كان حدثًا غريبًا عارضًا وغير مفهوم.. وصرت أتعامل مع الجميع ببساطة ولم يكن الاحتكاك الجسدي أو السلام أو المزاح مع زملائي في الجامعة يسبّب أي مشكلة.. وكنت أداوم على أخذ علاجي من «فيتامين ك» بجرعات منتظمة.. وأحسست أن المشكلة قد انتهت وأني كنت واهمة.. وكتبت إلى «يلا» أطمئنها على حالتي.. لكن عندما انجذبت لأول زميل لي في الكلية.. وسمحت له أن يقبل يدي ونحن جالسان في إحدى الحدائق العامة في أثينا أمام بحيرة صناعية صغيرة بالتسوّء.. ويمجرد أن أمسك يدي وقربها إلى شفتيه حتى أحسست بخيط الدماء اللدافى وهو ينساب من أنفي وفوق شفتي فقمّت فورًا وهربت عائدة إلى غرفتي بالسكن الجامعي.. وبقيت أبكي طيلة الليل وقد تأكدت من أنني ملعونة.

ذهبت إلى العديد من الأطباء في أثينا، وبعد ذلك بسنوات إلى أطباء في إيطاليا وألمانيا، وكان الجميع يطلب الفحوصات نفسها.. وشخص نفس المرض؛ «الهيموفيليا».. لكن لم يستطع أحد أن يفسر لي لماذا لا يبدأ النزيف إلا عندما يلمسني رجل؟.. وعندما أكون قد ملت نزعاً إلى هذا الرجل.. ولماذا يبدأ دون جرح؟ وقال طبيب عجوز ذات مرة: أن ما يحفز تكرر الدم ويحد من تخثره من المستحل علمياً أن يكون عاملاً نفسياً.. فبحثت وبحثت أبحث في الكتب العلمية والطبية.. وبحثت في كتب التاريخ.. حتى رحت أبحث في الأساطير والحرفان التي تمثل بها بلدي.. ولم أجد بين كل ما قرأت أي شيء له علاقة بما يحدث لي. وعندما تخرجت من الكلية كنت قد استسلمت لحقيقة مُرة.. وهي أنني سوف أقضي ما بقي لي من عمري وحيدة دون رفيق.. وحتى أموت.

دفت نفسي أكثر وأكثر في دراسة الاقتصاد.. ومنه إلى النسوية، برعت في علومه.. وتفوقت على الكثيرين.. صار لي مع الوقت اسمٌ معروفٌ لدى الشركات الكبرى.. وصرت أطلب بالاسم من أصحابها.. ولم يعد لي مكان واحد أعيش فيه.. ولم أستقر في بلد واحد أكثر من عامين.. تنقلت بين البلدان كما تنقلت بين الشركات الكبرى وحينما كان يتقرب مني أحدهم كنت أعرب غثبة داخل كي لا أتعرض لأي خطرٍ قد يهدد حياتي مرة أخرى.. وإن كنت قد اعترفت لنفسي بين انكساراتي في وحدتي أنني شبه ميتة بهذه الطريقة. في العامين الأخيرين كنت قد اكتفيت من العمل لدى الشركات.. واتخذت قراراً بأن أنشئ مشروعاً خاصاً.. وقد اكتسبت خبرة كبيرة في مجال إنشاء الشركات والعلامات التجارية الكبرى.. وكان

علمي الوحيد الذي تبقى لي هو خلق علامة تجارية تخصني في مجال العطور.. كان تعلقي بمحل أزهار بيلا لم يتركني ليلة. وفكرت أن الطور منه وأنشئ علامة تجارية قوية للعطور تنافس العلامات التجارية الكبرى الموجودة.. والتي أعمل أحياناً على طرق التسويق الخاصة بها في الشركات التي أعمل لديها.. وكنت قد جمعت من المال ما قد يكفي لبداية مناسبة.. واستفرت خطتي على أسهل الأسواق للغزو في العالم.. وهي الأسواق العربية.

قضيت أولاً ثلاثة أشهر في مدينة دبي ما بين تلقي عروض للشراكة من بعض المستثمرين الذين نحمسوا للفكرة، وآخرون تحمسوا للمغازلة فقط دون أن يعلموا أنهم لمن ينالوا شيء من وراثتي في النهاية.. لكن هدفي الأساسي كان دراسة السوق وليس البحث عن ساهمين؛ فقد كان الأهم بالنسبة لي هو امتلاك المشروع وإدارته بشكل مستقل قبل ضمان نجاحه.. كنت أثقل فكرة الفشل وخسارة مالي فقد كنت أتعامل مع كل الأشياء منذ تقبلت لعتي وتعايشت معها على أنه لا يوجد لدي شيء قد أخسره.. وانتهى بي الأمر إلى مؤتمر في مدينة الإسكندرية عن السوق العربية وطرق الاستثمار فيها.. وكنت لم أزرها منذ تركتها آخر مرة مع بيلا، وكان وقد مضى على رحلي سنواتٍ طويلة.

منذ اليوم الأول في الإسكندرية علمت أنها ليست كما نركتها أبداً منذ سنوات. هبطت الطائرة في مطار برج العرب.. ومنها إلى سيارة مستأجرة أخذتني إلى فندق «سيسل» في محطة الرمل.. استرحت لساعة واحدة وقررت أن أخرج لأتفقد مدينتي الأولى التي قضيت فيها سنوات غالية من التزييف.. وكان الزحام الشديد هو أول ما لاحظته..

لكنه لم يكن أول ما ضايقني. أحسست طوال الوقت أن به شيئاً غريباً.. الكل يفتحهم حركتي بفضول مزعج.. يحاوطني العابرون بنظراتهم وتطفلهم المؤذي وكأنني كنت أسير عارية في الشارع.. لا تبط من على جسدي نظرات الجالسين على المقاهي أمام الكورنيش إلا بعد أن ابتعد.. حاولت أن أستر جمع ذكرياتي في هذه المدينة وقت أن كنت أعيش بها.. واكتشفت أن شيئاً كبيراً قد تغير فيها.. حتى رائحة البحر أحسست أنها قد تغيرت وليس الناس فقط.. ووجدت أنني لن أستطيع أن أسير في الشارع دون سيارة خاصة. فاستأجرت واحدة لكنني لم أستطع أن أتحرك بها في الطرقات وكل من حولي يسبني.. ويسب الآخرون بعضهم بعضاً.. واضطرت إلى استئجار سائق مع السيارة.

بعد يومين من وجودي في الإسكندرية هزم حنيني ثردي وذهبت إلى فيلا «أنطوان» ولم يكن لدي أي توقعات عما قد حدث له بعد أن تركناه وحيداً منذ سنوات.

في البداية لم أستطع أن أتعرف على المكان، فقد تغير تماماً.. ووجدت لافتة كبيرة على البوابة الحديدية الكبيرة للفيلا وقد كتب عليها «دار أنطوان للمسنين».. واختلج قلبي وكادت عيناها أن تنمعا وأنا أدخل المكان الذي كبرت فيه.. وعلمت من الإدارة بالداخل أنه توفي بعد سفرنا بسنة واحدة.. وتبرع بالفيلا لإحدى الجمعيات الخيرية.. وخرجت من المكان وكلي أسى وأنا أذكر أنطوان وهو يعلمني الشطرنج ويحككي لي عن جدتي روز.

ذهبت بالسيارة بعدها عائدة إلى الفندق، وفي الطريق لمحت على ناصية أحد الشوارع سيارة صغيرة تقدم وجبات سريعة فتذكرت

وحلني مع بيلا للبحث عن «زين» وطلبت من السائق أن نذهب إلى منطقة بحري، وتمنيت ألا أكون قد نسيت المكان تمامًا بعد كل هذه السنوات.. وفي شارع قصر التين قطعنا الطريق مرتين، وكان هذا هو آخر ما أذكره عن المكان فقد كنت صغيرة فعلاً ولم يكن قد انطبع في رأسي سوى أن الشارع موجود قبالة البحر في هذه المنطقة.. لكنني في المرة الثالثة وجدت عربة الساندويتشات المكتوب عليها «أكل بحري» على رأس الشارع الذي كان فيه المنزل.. وتذكرتها فوراً.. ووجدتها كما كانت منذ سنين لم تتغير.. حاول السائق الدخول من زاوية كبير إلى الحارة الصغيرة التي كان فيها منزل «زين» لكنه لم يستطع.. فطلبت منه أن يسبقني و ينتظرني على ناصية الشارع جوار حربة الساندويتشات.. تردد السائق وقال لي إن المكان غير آمنًا للتجول فيه ليلًا.. فأصررت.. ثم طلب أن ينزل معي فطلبت منه أن يمد مكانًا يصلح لركن السيارة فيه ثم يوافيني أمام مقهى صغير كان موجودًا جوارنا.. ربما أحاول التعرف على المنزل أو أسأل عنه.. وقد كانت ذاكرتي قد استنزفت كل ما كنت أعرفه عن ذلك اليوم مع بيلا.

نزلت من السيارة وسط تعجب السائق ودخلت إلى الحارة الصغيرة.. وكان بها عدد لا بأس به من المنازل وقلت لنفسي سأحاول.. وكان الموضوع به شيء من المغامرة لم أمتطع أن أقاومه. كان صبية صغيرًا يلعبون الكرة في الشارع توقفوا فور أن رأوني.. ونظر لي شاب شكله نحيف كان يعبر أمامي أخذ يطمع من خطواطه ثم انحسرت حتى أحسست أنه توقف، ووجدت أنني قد تهورت في دخولي وحيدة كما قال السائق منذ قليل.. وكان شيخ عجوز يجلس أمام المنازل على الرصيف ووجدت الشاب المرعب يقترب فغطت

وانتهيت إلى الشيخ العجوز وقلت له «لو سمحت» فالتفت إليّ
تثاقلاً، فسأته:

- هل تعرف أحد يعيش هنا اسمه زين؟

نظر إليّ وقد أخذته المفاجأة وأخذ يتفحص وجهي ثم قال:

- أنا زين؟ أتكونين أنتِ..

ولم أصدق أذني فصحت:

- أنا ياسميننا.. ياسميننا بنت بيلا.. هل تعرف أمي؟

(٥)

يحيى

نظرت إلى ساعتى وكانت ياسميناً قد تأخرت.. ولم يكن هذا طبعاً لها، ثم نظرت إلى امرأة الغرفة للمرة الثانية هذا الصباح، وكانت زينب كالمرأة الأولى ساكنة داخلها لكن في هدوء وسكون.. لم تكن حزينة أو سعيدة، ولا حتى بدت مرتبكة كالليلة التي قابلت فيها ياسميناً.. وقد بقي وضع زينب كما هو في المرأة وفي الغرفة وفي الجبال وفي رحلات السافاري للفترة السابقة.. منذ سهرت مع ياسميناً للمرة الأولى في المارينا منذ ثلاثة أشهر تقريباً.

ثلاثة أشهر نلتقى أنا وياسميناً بشكل يومي.. إما أن نمر على هدى في الكامب فنخرج نتمشى حول الكامب وقد صار الجميع هنا أصدقاء لها.. وإما أن أذهب أنا إليها في الغرفة.. ونذهب إلى المارينا أو نتجول في المدينة.. وكانت تلح عليّ في تعلم القيادة حتى يسهل عليّ الحركة بين الكامب وبين المدينة.. لكنني كنت أرفض دائماً.. وكنت أنتظرها اليوم منذ الرابعة عصراً كي لا تتأخر على العرس. لكنها وللأسفة الأولى منذ التقينا تأخرت عليّ.

في الليلة السابقة كنا نسير سوياً في المارينا كعادتنا.. وقد صار

المحب باردًا جدًا في الكامب ويصعب الجلوس فيه لفترة طويلة وقد بدأ ديسمبر منذ أيام.. وكنا جالسين في نفس الكافيه والذي التفتنا فيه للمرة الأولى.. وقد حفظ العاملون في المكان وجوهنا وطلبائنا المكررة، وكنا لا نتوقف عن الكلام. ولم نعتقد في حديثنا أن نتكلم عنها أو عني، كان العالم دائمًا هو محور حديثنا. لم نحاول باسمينا اقتحامي كما توقعنا. بل تركتني أذوب يومًا بعد يوم أمامها حتى اعتدت وجودها في يومي وألفتها، ثم صرت أفتقد إن غابت، ولم نحاول أن نخفي انجذابنا لي قط. وكان شيئًا ما في عينيها وهي تنظر إلي وأنا أتحدث أو ونحن صامتين يطمئنني إلى انجذابها وتعلقها. كان شيئًا أكبر من الرغبة وأقوى من الغريزة.. وكأنه شيء مقدس لا يحق لي أن أصده أو أرفضه. بينما جاهدت بصعوبة أمامها طوال الأشهر الثلاثة الماضية كي لا تشعر بانجذابها لها، وكنت قد انقلب حالي وصار فهمي لنفسي وما يدور داخلها لغزًا كبيرًا لم أسع إلى محاولة إيجاد حل له.. كي لا ينطفئ من روحي المزيد.

صارت أيامي غريبة ولبالي أكثر غرابية. استيقظت نهارًا على حلم حزين مع ميريت. ثم أنشأت قهوتي الصباحية وأنا أفكر في أيامي الأخيرة مع زينب. ويقطع شرودي اتصال من باسمينا لتخبرني بقدمها أو تطلب مني الذهاب لها فأبتهج ويغمري الفرح لقدومها. أظلم أفكر وأدخن في شراة وأقضي الليل أناجي جدي سليم عساه يملك إجابة لم يقلها بعد. لكنه يظل صامئًا. وإن كان يسم مؤخرًا في أحلامي، وصارت صور زينب لا تفارق كل ما حولي. لكنها تخفي تمامًا فور أن تظهر باسمينا. ولم أكن أرى زينب بعدها غاضبة. لكنها لم تكن سعيدة أيضًا وبدأت أشعر أنها مترقبة لشيء سوف يحدث.

وطال تفكيري في زينب وطالت سهراتي مع ياسمين. قالت ياسمين:
بالأمس ونحن ساهرين:

- الغردقة هي الحل الأمثل للحياة في مصر.

سألته مستفسراً:

- ولماذا الغردقة فقط.. هناك شرم الشيخ أيضاً، وطابا، ودهب،
وهناك الإسكندرية.. لماذا الغردقة تحديداً؟

- لو كنت عشت في «رودس» لفهمت قصدي.. ولو كنت فتاة
لفهمت أكثر. الغردقة تبدو وكأنها قرية نظيفة هادئة. ليست صاخبة
مثل شرم الشيخ. أو مهجورة كطابا.. كما أنها تخلصت من عقْد
الشارع المصري الأخيرة المبالغ في الفضول والافتحام.. عتظة أيضاً
بنوع من التحفظ يجاور التحرر لا يتركه وحيداً.

- التحفظ.. هنا في الغردقة؟

- نعم.. ألم تلاحظ الحارس في النزل الليبي عندما كنت تزورني في
البداية وتوصلني يومياً، لقد كان يرمقك في شك دوماً، ولم يكن على
وجهه الحالي.

- لم أظن الأمر بذلك الصورة.. أنا عامة قضيت معظم الأيام في
الكامب، ولم أقض وقتاً طويلاً في المدينة.. رغم أنني أحببتها فور
فلومي.

- هذا أمر أعجب منه دوماً.. لماذا لا تقيم في المدينة؟ رحلات
للسafari في الكامب قليلة جداً.. والفندق الذي يبعه الكامب أكثر
راحة لك.

- أجد راحتني أكثر في الكامب. ربما كان السبب هو الصحراء

والجمال. كان سباسبان صديقي القديم يقول لي دائماً إنني أسرى
للسحراء لا المدينة.

مزت رأسها في نعجب ثم طلبت قهوة لنفسها مرة أخرى
وسألني إن كنت أرغب في المزيد منها فقلت:
- أصبحت تشربين القهوة كثيراً في الأيام الأخيرة.

ابتسمت قائلة:

- وجردك يدفعني للقهوة.. أحب أن أشربها معك دوماً.

ورمقني بعينها الجميلتين متظرة ردي على جملتها، وقبل أن أنكر
في رد عليها جاء أحد العاملين في الكافيه ووضع قباالتنا لافتة كبيرة
تعلن عن قدوم إحدى الرافصات لاحتفال ليلة رأس السنة للعام
الجديد. وكانت معظم الكافيات والبارات في المارينا تقدم مثل هذه
العروض في تلك الليلة استغناءً لمزيد من الساتحين الذين يستمعون
كثيراً بمشاهدة الرقص الشرقي.. هاجتني ذكرى ميريت فوراً
رأيت الإعلان، وتكدرت روحي رغباً عني وظللت شاردة لفترة ولم
أنتبه لباسميننا وهي تعادني لأكثر من مرة، وبعد أن أنهت قهونها
عرضتُ عليها أن نقوم لتمشي في المارينا أو في أي من شوارع المدينة.
ولم تعترض.

قمنا وتابطت ياسميننا ذراعاً كعادتها. وكانت تفعل هذا دائماً
كلما رحنا تمشي. وكنت ألاحظ أن ياسميننا تعتمد دوماً أن يلمس
جسدنا قدر ما استطاعت.. بينما كنت أحاول دائماً أن أحافظ على
مسافة بين روحيما قدر ما استطعت، لكنني كثيراً ما كنت أفضل في
ذلك؛ ففي البداية كنت أخاف على نفسي منها، لكنها اقتربت من
روحي كثيراً حتى فرأت روحها جيداً؛ فحسرت أخاف على روحها

الطيبة من نفسي.. وكثيرًا ما كنت أجعلني في حيرة من علاقتي بها..
أؤكد لها طوال الوقت أنني لا أصلح للدخول في علاقة.. لكنها إن
غابت عنها وشكوتها بغضب حقيقي.. وإن اقتربت كثيرًا هربت أنا
منها حتى لا أتورط أكثر.. وإن كنت أعترف أحيانًا أمام نفسي ليلًا
أنني بالفعل قد تورطت معها.. وكانت باسمينا غاية في الذكاء.. نحترم
صمتي الطويل، بل أشعر أحيانًا أنها تحب وتقدره، وكنت بالمثل أعشق
سكوتها وشرودها إن زار جلسائنا سويًا.. وكنا نجد في صمتنا ألفه. ولم
تكن ألفه نقل عن حبنا لكلامنا الذي أحيانًا قد يطول لساعات..
إنما كانت الرفقة أقوى من كل ملل قد يصيبنا، ولم نترك لفضولنا عن
ذكرياتنا السيئة فرصة أن يكدر صفو هذه الرفقة المحنون.

مالت باسمينا على كتفي وهي ملتصقة بذراعي وقالت ونحن
سائران جوار رصيف المارينس البحري:

- مالك يا يحيى.. لماذا تغيرت عينك فجأة؟

لم أرد، بقيت على صمت.. وعلى غير عاداتها تابعت تـأـل:

- لماذا ضايقت إعلان الراقصة إلى تلك الدرجة.. ألا يحب الرجال
الرقص الشرقي؟

وكنت أنجيلها تبتسم في خبث وهي تـسـال فقلت:

- بالطبع.. فهو أجمل الأشياء قبل الذهاب إلى فراش الرجل.

نوقفت وضربتني في كتفي مازحة، وقالت وهي تتصنع غضبًا:

- يحيى، راقب كلامك.. هذا تحرش.

فسألتها:

- أنت عرضين؟

- على رايبك في الرقص أم على التحرش؟
ثم ضحكت عالياً ودفعتنى للضحك رغم عبوسي وقالت سائلة
في جدية:

- قل لي فعلاً، أنت عرض على الرقص الشرقي؟ الرقص ثقافتة
موجودة في كل الشعوب بالمناسبة.. ليس الرقص في البلاد العربية فقط.
كان أكثر ما يجذبني في باسمينا هو تناولها الدائم لكل الأمور
برؤية فلسفية وتحليلة خاصة.. لا تترك موضوعاً دون أن تناقش أصله
ومنشأه.. وما نتج منه وما أدى إليه. كانت تذكريني بجدي سليم.
وحكت لي باسمينا مرة عندما عقيبت لها على طريقتهما هذه فقالت
أنها كانت وحيدة لسنوات طويلة.. وكانت تقضي معظم لياليها في
التفكير والشروء. تتخيل آلاف المواقف والأحداث. لها ولمن حولها،
ولا تنوقف عن التحليل المستمر لتلك الأمور، وكانت تراقب الجميع
في فضول وتحاول أن تتوقع ردود أفعالهم طوال الوقت.. لم أتعجب من
كلامها وهي ابنة البلاد التي صدرت الفلسفة للعالم كله قبل قرون.
خرجنا من بوابة المارينا وعبرنا النفق المحفور كالعادة وتثبت
بي باسمينا حتى إنها كانت تحتضنني وأنا أساعدها على العبور..
ثم اتخذنا مساراً جانبياً في طريق مختصر إلى شارع النصر.. وعادت
باسمينا تسأل:

- لم تقل لي رايبك في الرقص الشرقي.. أصر أن أعرف.

قلت لها بعد إلحاحها لمرتين:

- أنا لم أعترض على أن الرقص ثقافة لدى كل الشعوب ومنذ قديم
الزمان.. أنا رجل تاريخ لا تنسي هذا.

.. ما مشكلتك مع الرقص الشرقي إذا؟

قلت في صر:

- عند كثير من الشعوب، بل عند معظم الشعوب يكون الرقص ثقافة تعبيرية بشكل أو بآخر.. تفرقاً لطاقة سلبية أو استدعاء لطاقة إيجابية.. نوع من البهجة محزوج بليونة الجسد مع إيقاعات لها معنى واضح ومقصود، لكن الرقص الشرقي ليس له علاقة بذلك. أراه في الحقيقة مخاطبة مباشرة للفريزة الجنسية، وليس للموضوع علاقة بملابس الراقصة بالمناسبة.. فالكثير من الراقصات يؤدين بعض الرقصات بزي محتشم.. لكن الموضوع له علاقة بطريقة أداء الرقصة.. وتعامل الراقصة مع جسدها أمام المتفرجين. بل ونوع المتفرجين أنفسهم وتفاعلهم مع الراقصة.. الموضوع كله يذكرني بنوادي التعري في الخارج.. وإن كانت أكثر صراحة ووضوحاً في ذلك.. وكما قلت من قبل.. المجتمعات الغربية بسيطة وواضحة مع نفسها في تعاملاتها.

- إلى هذه الدرجة من سوء ترى الرقص الشرقي؟

- قولي لي أنت.. ما الذي يدفع فتاة جميلة أو على قدر ولو بسيط من الجمال إلى التعري وإبراز مفاصل جسدها والقيام بمجموعة من الحركات لإبراز هذا الجمال بشكل لا يحرك سوى غريزة الرجل؟

- لا أعرف.. ربما المال.. في الغالب المال بالطبع.. لكن ليس هذا مؤكداً.. لا بُد من عمل استبيان مع عدد كبير من الراقصات للتأكد.

ضحكت من سذاجتها وقلت لها:

- استبيان؟! أنظنين أن الراقصة الشرقية ستقبل أن نجيب عن أسئلة استبيان لعمل إحصاء لما دفعها إلى العمل كراقصة.. وإن قبلت ستجيب بالأسباب الحقيقية؟ أنت ساذجة يا ياسميناً فعلاً.

ضربتني على كتفي مرات ومرات وقالت في خبث:

- هناك حل إذاً لو رضيت أنت به ..

- وما هو أيتها الفيلسوفة؟

- أن أعمل راقصة وأقوم بافتحام هذا العالم السري .. ربما عرفت

الحقيقة.

التفتُ إليها وقلت وأنا أدفع يدي مهدداً بضربها في دعابة:

- وما رأيك أن أكرس عنقك ونستريح نحن الاثنين؟

ابتعدت إلى الطريق وهي تضحك في مرح وقالت وسط مرغان

سيارة للأجرة جوارها:

- أنت رجل تاريخ أم رجل الكهف؟

ثم عادت تسير جوارى مرة أخرى وقلت لها بعد دقائق:

- الأمر صعب فهذه عليك يا ياسميننا .. أنت امرأة أوروبية في

النهاية ولن تستطيعي أن ..

توقفت ياسميننا وقالت في غضب حقيقي:

- بحبي!! قلت لك مائة مرة أنا مصرية .. «مصرية»

وكانت تضغط على حروف الكلمة في غضب وتابعت قائلة:

- كما أنني أفكر في الاستقرار هنا نهائياً.

نظرت إليها في فرحة لم أستطع أن أخفيها أمامها وقلت لها:

- فعلاً؟

- قلت أفكر ..

ثم عادت ثانية وتابعت ذراعني في قوة .. والتصفت بي أكثر

وأكثر فأرحمت لها كفتي كي غيل برأسها عليه في راحة أكبر

وسألت ونحن مسائران:

..هل تحب فعلاً لو بقيت هنا معك في الغردقة؟

وفيل أن أفكر في ردِّ عليها قاطعني اتصال هاتفني، كان الشيخ ياسين.. رددت عليه مباشرة وألصقتُ ياسمينا وجهها بوجهي كي نستمتع لما يقول.. وكان يؤكد على حضور زفاف ابنه «يزيد» في اليوم التالي.. وبعد أن باركت له وأكدت عليه حضوري ثم أنهيت المكالمة قلت لياسمينا:

- سأقترح عليك شيئاً سوف يمدك.. هل تريدان أن نرقي رقصاً حقيقياً؟

فقلت بسرعة شديدة في فرح:

- هل ستأخذني معك إلى القرية أخيراً؟

أومات برأسي إيجاباً.. فانسعت عينها من الفرحة وقالت هامة وهي تلنصق بي أكثر:

- شكراً!!

ثم أكملنا سيرنا وحمدت الله أنها نسيت موضوع سؤالي عن استقرارها في مصر.. وإن كنت أشك أنها تجاوزته ممداً.. ولم تكن لدي إجابة واضحة عليه، وقبل عودتي للكاتب اتصلت بالشيخ ياسين استأذنه في قدوم صديقة معي لزفاف ابنه فرحبت بشدة.



نظرت مرة أخرى إلى الساعة، وكانت قد تجاوزت الخامسة.. ونفقت مكالمة من الشيخ ياسين لكن التغطية لم تسمح لنا بإكمالها وكنت أعرف أنه اتصل بي لتذكيري بالموعد الذي قارب.. كان أماننا ساعة من القيادة على الأقل بسيارة ياسمينا التي تقودها في بطء

شديد.. ولما وجدت الوقت سرّفت سرّقتنا اتصلت بيّاسمينا أنتمبلها
فأخبرتني أنها ستكون أمام مدخل الكامب خلال دقائق.. اقترحت
عليها أن أنتظرها أمام المدخل فرفضت تمامًا وأخبرتني أنها ستكون
أمام غرفتي خلال دقائق قليلة.. وبالفعل وصلت سيارتها أمامي
بعدها مباشرة، وكنت قد مللت من الانتظار فوقفت أنتظرها خارج
الغرفة.. وقبل أن أتوجه سرّعتا إلى جوارها أشارت إلى نسوتفني
ونزلت من السيارة.

كانت ترتدي فستانًا جذابًا به شريط أحمر يجسد خصرها في بطن
وبالفستان بعض الوردات المنقوشة بلون وردي خفيف جدًا.. وكانت
تبدو كأميرة جميلة من عصر قديم.. ظللت أتأملها ودارت حول
نفسها فبدت كفراشة جميلة ثم اقتربت مني في دلالٍ مقصود وقالت:
- ما رأيك؟

قلت دون أن أرفع عيني من عليها :

-تبدين كملكة جميلة.. ستغار منك العروس هكذا.

وظللت أنظر إليها وقلبي يخفق لها.. بعدها اتجهت لأغلق الغرفة
وسألتني:

- لماذا لم تضع رابطة عنق؟

فأجبتها وأنا متجهة إلى السيارة:

-ليس لدي واحدة.

وصعدنا إلى السيارة وفور أن تحركنا، ناولتني هدية صغيرة ملفوفة
من تابلوه السيارة، وقالت مبتسمة:
-لقد عملت حسابي.

وفدحت الهدية فوراً فوجدت داخلها رابطة عنق طويلة اللون لها
لحة خفيفة عند حوافها.. فابتسمت وشكرتها.. ثم انعرفت إلى بداية
الممر الجبلي المؤدي إلى طريق القرية عبر المهد، وقالت وهي تعمل
من وضع امرأة السيارة ناحيتي:
- يمكنك استخدام المرأة لارتدائها.

ولأنت على ذكر المرأة اختفت ابتسامتي فوراً



بقي جدي سليم في المستشفى لأسبوعين كاملين.. وكنت أقضي
مع معظم الوقت تقريباً، وكانت زينب تزورنا بشكل يومي.. ولم تكن
حاله تحسن كما تخيلنا.. لكنه لم يعد إلى غيبوبته المربعة مرة أخرى..
وكن قد أحست بذنب كبير لتركي إياه وحيداً في الفترة التي كنت
غارقاً فيها مع ميريت.. وكانت تصل بي كل يوم وترسل معذرة عن
كلامنا الأخير سوياً.

لكن حالة جدي الصحية منعني من ممارسة التفكير في الرجوع
لإشباتها مرة أخرى.. وكذلك ظهور زينب في حياتي من جديد..
كانت قد تغلبت تماماً عن آخر مرة ألتقينا فيها.. وكان عمرُ فـد
مضى علينا.. أنهيت فيه كُليتي وحصلت على الدبلوم وسافرت إلى
لندن وعدت، ثم دخلت ميريت حياتي وخرجت، أو أن هذا ما كنت
أقبحه. أما زينب.. فقد بدت وكأنها شخص آخر عندما التقينا في
المستشفى.. أم أقول إنها صارت شخصاً إضافياً لزينب التي عرفتها
صغيراً.

صارت امرأة قوية أثقلها الحزن.. وزادها الخذلان حكمة في
الحديث والحركة.. فلم تعد حجة للكلام مثلما اعتدتها.. أو ربما كانت

ثقل من حديثها في وجودي فقد كنت أسمعها تنثر مع جدي كلما دخلت عليهما غرفة المستشفى بعد عودتي من عملي... لكننا إذا ما تحدثنا كانت ترد الجملة بالكلمة.. والكلمة بالإماعة أو الانقسام الخفيف.. لكن ما كان واضحاً طوال الوقت في عينها هو الانكسار والإحساس بالخذلان.. لكنها ورغم ذلك لم تكن تقصر في مراعاتها لجدي في المستشفى، وكانت تحفظ أنواع الأدوية كلها وتوقيت كل دواء وجرعته، وتأتيه بالطعام المسموح كل صباح.. وبعد يومين من تردها على المستشفى صارت تحضر طعاماً لي أيضاً.. ولم أكن أقدر أن أرفضه في وجود جدي.

كان الحزن يعصف بي ونفثني الوحدة والكآبة.. وكان وجهي شديداً العبوس في الأيام الأخيرة وقد أقلق ذلك جدي علي كثيراً فسألني:

- ما بك يا ولدي؟ ما الذي حدث؟ لماذا تركني لقلقي هكذا؟

كنت أحاول أن أقامك أمامه وقلت:

- وعلام القلق يا جدي؟

ردّ في نظرة عتاب قائلاً:

- ألا تعلم؟

فسألته هرباً:

- أعني زينب؟

- بل أعنيك أنت.. زينب لا يخاف عليها أحد.. كل خوف عليك أنت، وخوفي عليك من نفسك.. ما الذي حل بك؟ صار لك أكثر من عام وأنت لست بحيي الذي عرفته وكبر بين يدي.. ماذا بك؟ لم كل هذا التيه؟

ولم أكن أعرف ماذا بي ولا أعرف بماذا أرد.. كنت متعبًا وكأنني أنا
الذي شاخ عمره.. ما زلت شابًا لكنني بدأت أشعر أنني لا أرتب
في الوصلة.. لا أعلم ماذا أريد من هذه الدنيا؟ وكل يوم أمتي نفسي
أنني سوف أعرف الإجابة.. وكل الذي أصل إليه هو طريق جديد
ممل ليس له من نهاية ولا أفهم له معنى.. وكانت حكايتي مع
ميريت قد أنت على ما بقي مني.

وعاد جدي يال:

- تكلم يا بني ماذا بك؟ قد لا أكون معك بعد ساعة.. وانت لم
تكن تتكلم طيلة عمرك مع أحد سراي.
قلت له:

- صدقني يا جدي لا أعلم ما بي.. ولا أعلم من أين يأتي كل هذا
الحزن وكل هذه الوحدة.. لم أعد أعلم لماذا أحببت التاريخ، ولا أعلم
ما الذي سوف أجنه من ورائه.. لا أعلم لماذا نبذني والداي هكذا
وكأنني لست ابنًا لهما.. ولماذا فعلت ما فعلت مع زينب؟.. ووسط هذا
كله.. لا أعلم الطريق.. ولا أعلم إلى أين يذهب بي؟ ولا طاقة لي على
المزيد من مشقته.

فقال وهو يربت على كتفي:

- ولماذا تفكر من الآن في مشقة الطريق.. ففكر في متعة الوصول.
- الوصول إلى ماذا؟ أنا لا أعرف ماذا أريد كي أسمى أن أصل
إليه.. ولا أفعل شيئًا سوى إبذاء نفسي وإبذاء من حولي.
- نفسك لوامة يا ولدي.. نفسك لوامة.
ثم اعتدل وتابع قائلاً:

- يا يحيى.. قال الصالحون قبلنا.. النفوس ثلاث: نفس مطمئنة، ونفس أمارة بالسوء، وبينهما نفس لواقصة.. تأبى هذا وتسمى إلى ذلك.. وما أنت فيه ما هو إلا نفس لواقصة تجاهد أمارتك بالسوء.

- صدقني يا جدي لقد تعبت.. تعبت مبكرًا جدًا عما ظننت أنني قد أحمل.. تعبت من قلة صبري ومن أنانيتي.. تعبت من كوني أجلس معك الآن وأنت المريض.. ورغم ذلك أنت ممن تواسيني وتطيب خاطري.. تعبت يا جدي ولا أصدق أنني في الثلاثين من عمري.. أحيانًا أشعر أنني أحمل قلب شيخ في نهاية حياته وقد استسلم للموت وصار ينتظره وهو راضٍ بقدومه.

- لم يأتِ أوان التعب بعد يا يحيى.. سيكون طريقك طويلًا فلا تعجل التعب. أنت لم نلقَ شيئًا بعد وما زال طريقك طويلًا. ثم أراح رأسه على الربرير وقد أنهكه الكلام. ففقت أسعد، وقبل أن يغمض عينه قال:

- لن أوصيك على ابنة عمك يا يحيى.. لم يعد لها من أحد سواك.. وليجمعنا الله عمل الخير.

في نهاية الأسبوع الأول استدعاني الطبيب المقيم المشغول عن حالة جدي بومها وكان بمسك في يده آخر الفحوصات التي أجريت له.. وقال إن الحالة سيئة وربما تسوء أكثر خلال أيام.. مآله مستقرًا عما يقصده فقال لي دون تحميلي للكلام:

- الأعمار بيد الله، لكن يجب أن تستعدوا.

وقبل أن يدخل إلى غرفة جدي ناديت وقلت في حزني:

- من فضلك لا تحبره بأي شيء، لا أريد أن يفقد الأمل، نهج رجل مؤمن ومصل.

نظر إلى الطبيب الشاب، وخلع نظارته الطبية، وأخذ يفحصني بعينين بدا عليهما إرهاق السهر ثم سألني:

- ماذا تعمل؟

- أنا معيد في كلية الآثار.

- وهل يصح أن يصدر هذا الكلام من شخص مثلك؟

لم أفهم ما الذي يقصده فتابع:

- هذا حقه عليكم.. لم أكن لأخبره بنفسي بالطبع إلا إذا أردت أنت

ذلك لكنك أنت من يجب أن يخبره. هذا حقه يا أستاذ.. أم أقول يا

دكتور؟

وابتسم في برودي ولم أرد أن أغضبه لكني قلت:

- لكن.. ربما يؤدي هذا إلى تأخر حالته.

بدا مستاء بشدة من قلبي وأشار بالأوراق التي في يده، وقال

بصوت خرج عاليًا:

- يا حضرة جدك يحضر.. أي سوء تكلم عنه؟ يجب أن تخبره

بذلك.

- وما الفائدة إذا؟

- ما الفائدة؟ لا تكن أنانيًا.. المستفيد الوحيد من عدم إخباره هو

أنت.

- أنا!! وما الذي أستفيد.

- سوف تريح نفسك من فسوة المواجهة.. تتركه يحضر في هدوء

دون أن يعلم ذلك.. لكن قل لي.. لو كنت أنت مكانه.. هل كنت

تحب أن تعرف معلومة كهذه أم لا؟

قلت مباشرة دون تفكير:
- بالطبع لا.. ولماذا أحب أن أعذب نفسي؟

نظر متعجباً مرة أخرى وقال:

- امرك غريب حقاً.. من يرفض فرصة كهذه؟ أن ينجهز للقاء
ربه؟ أن يكسب وصية قبل رحيله؟ أن يصلح شخصاً قد أخطأ في
حرفه وسعه كبريائه من الاعتذار له.. أن يتطهر من ذنوب في حق
نفسه أو في حق غيره.. أن يعترف لأحد أنه يجهل ولم يصرح بذلك
قط.. أن يتصالح مع نفسه قبل أن يرحل.. الأمر قاسي ومؤلم بالطبع..
لكنه أجمل شيء قد تمنحه لشخص بينه وبين الموت أيام.. ألا تقول
أنه رجل مؤمن؟ كيف نحرمة من نعمه كهذه! أحياناً تكون النعم
التي ينعم بها الله علينا في منتهى القسوة لكن هذا من وجهة نظرنا
الغيبوية فقط.

ألجمني كلامه غامضاً، ولم أستطع أن أرد عليه بأي شيء، ووجدت أنه
كان محققاً في كل حرف قاله.. لكنني فكرت كيف أخبر جدي بذلك؟
بل كيف أخبر نفسي أنه سوف يتركني ويرحل بعد أيام؟!

وعُدْتُ الطبيب أن أخبر جدي بحالته وأقسمت له على ذلك..
وقلت لنفسي إنني لن أكون جباناً وأترك غريباً يخبره بشيء كهذا بينما
أنا أرى أنا خلف حزنٍ.. وحاولت أن أتحملى بالشجاعة.. ودخلت إلى
غرفة جدي وأنا أكاد أرتجف وترنمش يداي من الحزن.. لكنه لم يكن
في فراشه.. كان قد نزل مع الممرضة إلى الدور الأرضي لعمل أشعة
جديدة، وكانت زينب فقط في الغرفة تبحث عن الأشعة القديمة..
وفور أن التفت عيني بعينيهما لم أستطع أن أحبس دموعي.. فبكيت..
وعندما عاد جدي إلى الغرفة سألت زينب لماذا لم تأتِ بالأشعة القديمة

لأنهم طلبوها منه.. ولماذا وجدنا داعمين.. ولكنه صمت ولم يكمل
استك.. وانصرفت زينب باكياً ومعها الأشعة.

سأعدت جدي على الاستلقاء فوق سرير.. وطلب مني أن
أجلس معه وقال وهو يحاول أن يتسم:

- كلنا ملاقوا الله يا يحيى.. أنظن أن جدك سرف يُخلد؟

ولم أستطع أن أردد، وأخذت أقبل يديه ولم أعلم ما الذي قلته له
لكنه كان يمنّني عما أقول في ترسل ثم في غضب.. ولما هدا أراح
ظهره على السرير وقال لي:

- أنظن أنني غائب عن حالتي.. يا بني أنا أعلم ما بي خير منك
ومن زينب ومن الطبيب نفسه.. لكل أجل كتاب.. وأنا عشت ما
عشت من الدنيا ولم أعد أطمع منها في شيء.. يكفي هذا يا بني.. بل
يكفي ويزيد.. ولكنني لم أكن أريد أن أذهب وكلي قلق عليك هكذا..
أرجوك يا يحيى من أجل راحة جدك.. لا تنس شيئاً مما علمتك..
يوماً ما ستصل إلى كل ما ترجوه.

وعدت لأقبل يديه في حزن شديد.. وقبل نهاية الأسبوع الثاني
صعدت روحه إلى بارئها فجراً، وعندما ذهبت إلى المستشفى كانت
زينب تجلس وحدها تبكي في الغرفة.

قالت باسمينا وهي تشير بيدها ناحية منازل القرية التي بدأت
تظهر أمامنا من بعيد:

- أهذه قرية الجبل؟

انتهبت على قولها ووجدتنا قد وصلنا تقريباً فقلت لها:

- نعم، لا يوجد غيرها هنا بين الجبال.

فتابعت باسمينا القيادة متجهة ناحية القرية، ورأت حزني البادي في عيني من أثر تذكيري لحدي.. وخيم الصمت على روحنا رغم أننا كنا قد أتينا في بهجة. وأدركنا مدخل القرية الوحيد ووجهت باسمينا حتى مجلس القرية جوار المقام. وكان المجلس مزدحماً وقد اجتمع أهل القرية كلهم أمام الساحة الكبيرة الواقعة بين مجلس القرية وبين المقام.. ولمحت بعض الوجوه التي أعرفها من العاملين في وادي حية.

أقبل علينا الشيخ ياسين فور أن رأنا وابتهج بشدة.. كان يرتدي عباءة سوداء تلمع وفوقها كوفية بيضاء مطرزة بخيوط ذهبي رفيع.. احتضنتني عندما اقترب ورَّحَّب باسمينا في تبجيل شديد.. ثم نادى صلي ولده يزيد وطلب منه أن يأخذ باسمينا إلى حيث تمكث نورة القرية.. فظفرت لي باسمينا في قلبي فقلت:

- لا تقلقي.. سيجمع الكل بعد صلاة العشاء هناك.

وكننت أشير إلى الساحة الواسعة وقد فُرشت أرضيتها بعشرات السجاجيد اليدوية التي ينسجها نساء القرية بأنفسهن، وتباع في سوق المدينة بالغردقة للسائحين.

ذهبت باسمينا إلى حيث يمكث النساء، وجلست مع الرجال في المكان المعتاد.. وكان الكل يرحب ويبارك.. وبعد أن عاد يزيد فمت إليه وباركته له ثم وضعت في جيب صدريته الجديدة اللامعة طرفاً صغيراً به مبلغ من النقود على سبيل المباركة.. فشكرني في امتنان شديد ثم دعانا الشيخ ياسين إلى صلاة العشاء فقمنا جميعاً إلى المسجد جوارنا.

فورا أن خرجنا ولم نكد أن تمضي دقائق قليلة حتى بدأ صوت
الربابات والمزامير يعلو تدريجياً وأضاء أحد الرجال المصابيح الملونة
المعلقة على جدار المسجد أمام الساحة وقد جلسوا محمولاً كبيراً
للكهرياء يستخدمونه خصيصاً لهذه المناسبات.. ثم رُصت عشرات
المقاعد على شكل مربع كبير في الساحة الواسعة وجلس الشيخ
باسين على رأس المكان وإلى جواره ولده يزيد، وأصر الشيخ ياسين أن
يجلس إلى جوارهما، وقام أحد الرجال فأنشد على خلفية هادئة من
موسيقى المزامير والربابات:

نبدأ فرحنا بالصلاة عالمصطفى .. صلوا على خير الأنام المصطفى

حلوا الكلام من القصايد كلها .. يا زين قدره ما وفاه وما كفى

وارفعت الأصوات كلها بالصلاة على النبي الحبيب ثم قام
العازفون من ركن المكان وتقدموا إلى وسط الساحة وهم ما زالوا
يعزفون وردد المنشد متابعين:

قولوا العروستا القمر من ضيها ... لولا الملام من الأحبة لاخفى

قولوا العرينا ابن العرب زين الرجال ... كرم العرب جمع القلوب وألف

ثم علت الآلات بالنداء على النسوة اللواتي كن قد أنبن، وبدأ
الجميع يصطف في مربع صغير داخل المربع الأول، وقام بعض
الرجال بالوقوف في صف مقابل للنسوة اللواتي وقفن في صف مماثل..
ونظرت إليهن أبحت بعيني عن ياسميننا حتى وجدتها بصعوبة
وسطهن وقد اجتمعن في أحد أضلاع المربع الذي رسمه أهل القرية
بالقاعد.. ووجدتها تبسم في فرحة وقد وضعت على كتفها شالاً
طويلاً يبدو أن إحدى النساء قد منحته لها بسبب البرودة التي تحمل
مساءً في الجبل.

خرج ثلاثة أزواج من الرجال متأبطين بعضهم بعضاً في صف
مستقيم، وبدأوا يتحركون في إيقاع واحد على ضربات الدفوف،
وتحرك نفس العدد من النساء والتقوا في منتصف الساحة ثم
وأخذوا يرقصون جميعاً في تناغم رائع على صوت المنشد الذي قال:

يا زينة الليلة الليلة الليلة . . . والقمر ما هو عادي

زينة البنات يا الليلة . . . ربي احفظها ما لحساد

ثم قام بعض الرجال وهضوا في حماس وسط زغاريد النساء

التهليلات رفصاً:

لا نعادي ولا تعاديننا . . . البسمة الحلوة تكفيننا

بنينا ونزرع في واديننا . . . وبنفدي اللي بيقدينا

ثم صاح كل من في العرس تقريباً بصوت عالٍ:

لكن ما نخاف ما العادي

وعلى التزامير أكثر وأكثر وأخذت النساء الراقصات يدن حول
الرجال في حلقات كبيرة أخذت تصفيق تدريجياً مع حركة الرجال
المصطفين على الجانبين، ونظرت إلى يميننا مرة أخرى فوجدتها تصفق
مع النسوة في فرحة وقد تعلمت كيف تصفق على إيقاع الدفوف
بانتظام وهي تحبب على كفيها بشكل رأسي مثل الجميع، وكانت تتمايل
مع موسيقى التزامير والربابات بانتظام حتى أنقست الإيقاع بسرعة
شديدة وأخذت تلوح لي أن انضم إلى صفوف الراقصين فأشرت
لها من بعيد معترفاً.. ورغم أنني حضرت تلك الأعراس عدة
مرات كما حضرت الكثير من عروض الدبكة البدوية في حفلات
السمر والتي ينظمها الكامب ضمن أنشطة المسافاري للساحين،

إلا أنني لم أشعر بمثل تلك البهجة من قبل.. وعادت باسمينا نلوح
لي في الحاح وقام يزيد من مجلسه جولنا فجأة ودخل بدوره إلى حلقة
الرقص، وكان يحمل خنجرًا في يده وأخذ دوره في حلقة الرقص وحيا
اهل القرية بيديه وردوا عليه بالصياح والوقوف، وزاد حماس المنشد
أكثر فعاد ليفول:

يا قارم الفرسان يا شرف العرب ... ما أحلى السهر وحببك الزين اقرب

لأنستحي مالفرح وعدك تنتشي ... لو تستحي مالفرح ولي أو هرب

ثم أخذ الرجال يدفعونه فبها بينهم وهو يدور حول نفسه في مرج
وبقي يرقص مع الرجال وحول النساء لفترة ثم عاد إليها، وقبل أن
يجلس قبل يد والده.. وعادت الصفوف والحلقات إلى نظامها بعد
أن بعثها قليلًا دخول يزيد إليها وخروجه منها.. ووجدت باسمينا
تتقدم بثقة وسط مجموعة من النسوة في حلقة جديدة للرقص مكان
الحلقة الأولى، ونظرت إلى الشيخ ياسين فكان يتسم وأشار إليّ ولم أكن
لأنظره.. فمت أشار كها الرقص واتخذت موقفًا مقابلًا لها وانتظم
الإيقاع من جديد متسقًا مع صوت الدفوف والربابات وأخذ الصغان
يقتربان ويبدأ رويدًا حتى صرت أمامها تمامًا.. وكانت عيناها تلعبان
من الفرح وقد كحلتهما عندما ذهبت مع النسوة بكحل خفيف
زانها وجعلهما أكثر اتساعًا وأشد إغواء.

اقتربنا من بعضنا البعض وأخذت تدور حولي وتهايل في خفة
على الإيقاع وتتموج بجسدها مع الموسيقى ولم أدرك كيف حفظته هذه
السرعة وأنتشته حتى تناعمت حركتها مع حركته تمامًا.. وتابع المنشد
صائحًا من خلفنا:

خف عني حول ما الدنيا من الليلة... كل ما أبغاه في الدنيا نونسي

وكنْتُ أحفظ بعض الآيات وأردد معهم في فرح ولم أدر من أين
أُتيت أنا أيضًا بكل هذه القدرة على الرقص في تناغم ومهارة.. ولم
أبعد عيني عن ياسمين حتى إنها كلما دارت حولي كنت أحرك رأسي
لأتابعها حتى تعود لتمايل أمامي من جديد.. وبقينا على هذا الحال
رقصة فرقة حتى صرنا وحدنا نرقص في إحدى المرات.. ولما انتهى
المشهد البيت الأخير في قصيدته عدنا إلى أماكننا وسط صيحات الرجال
وزغاريد النساء.. وظل الكل في القرية على حاله وفي مكانه حتى
جلست.. ثم عاد الرجال والنساء يشكلون مجموعات أخرى لرقص
جديدة.. وبعد أن انقضت حوالي ساعتين من الغناء والرقص نظرت
إلى ساعتني متعمدًا أمام الشيخ ياسين كهادتي كلما وددت الانصراف
فقال بصوت سمعته بصعوبة وسط الغناء:

- ليس قبل أن نكرمك ونكرم الضيفة.

وكان يشير إلى ياسمين، وكنْتُ أعلم أنه يقصد تناول الطعام كالعادة
فالحجت في الانصراف متعللاً بياسمين وبالطريق.. وقبل أن يقسم عليّ،
وعدته أن يعود مرة أخرى، وكنْتُ أعرف أن ياسمين ستحب المجيء
إلى هنا ثانية.. وأصر أن يرافقنا حتى تحركت مع ياسمين بالسيارة إلى
الطريق المؤدي للممر الجبلي مرة أخرى.. وبمجرد أن تحركنا قالت في
فرحة شديدة وهي تتلمس طريقنا وسط ظلام الجبل:

- لم أحضر في حياتي عرسًا فيه كل هذه البهجة من قبل..

كنْتُ ستحرمني من هذه الليلة الجميلة؟

قلت وأنا أنظر إليها وأنا ملها في افتنان:

- لم أكن أعلم أنك تستطيعين الرقص بحرفية هكذا..

- الرقص غريزة في كل أنثى يا يحيى.. كما أنك أيضًا كنت ترقص بشكل رائع.

- احفظ معظم الرقصات والأغاني هنا.. هذا جزء من يومي في الكامب، لكنني لم أرقص من قبل.
- لا أصدقك..

وقبل أن أرد عليها لمحت أمامنا على يسار الطريق من بعيد أحد اللعين في عباءة بيضاء.. وكانت باسمينا تنظر إليّ وهي تسألني فلم تلمح، واختفى فجأة قبل أن تلاحظه عندما اعتدلت إلى الطريق.. وكانت تابع:

- لم ترد عليّ.. أنا لا أصدق أنك لم ترقص معهم من قبل.

فلم أرد وإنها رحت أنظر في مرآة السيارة الجانبية بعد أن مررنا بجوار المكان الذي ظهر فيه المثلث منذ لحظات.. لكنني لم أر شيئاً من شدة الظلام.. ولم أرد أن أخبر باسمينا عنه كي لا تقلق دون داع.. وظللت باسمينا طوال الطريق إلى الكامب تحكي عن العُرس وعن النساء في القرية وقالت:

- أتصدق أن زوجة يزيد الأولى كانت ترقص معنا؟.. بل إنها من جلبت لي الكحل الذي وضعته حول عيني.

- العادات هنا مستقلة ومختلفة عن أي مكان آخر.. الانتهاء للقبيلة أكثر من الانتهاء للشخص.. هذا سر بقائهم طوال هذه السنين رغم غزو المدينة لمعظم الأماكن التي يعيش فيها البدو والعرب.

- هذا حقيقي.. لقد كانت ترقص وسط النساء وكأنه عُرس ابنها
أو أخيها وليس زوجها.

ثم عادت تحكي عن كل التفاصيل التي مرت بها مع النسوة
حتى وصلنا إلى الكامب، وقبل أن ندخل إليه طلبت منها أن تكمل إلى
المدينة.. فلم أرد أن تعود في وقت متأخر كهذا في الطريق وحدها.. كما
أنني لم أكن أرغب في أن أدخل الغرفة في الكامب وأصير وحدي من
الآن.. كنت أود أن أبقى برفقتها لوقت أطول وفرحت باسمينا بسلة
من طلبتي.. ثم أخذت تدندن طوال الطريق ببعض الأبيات التي كان
المشد يشدو بها وقد حفظت بعضها.. وكنت أصحح لها ما أذكره
منها.. ثم تعود لتشدها سويًا.

وصلنا إلى النزول اللبني حيث تسكن.. ونظرت إلى المبني الذي
تسكنه ولم ألع الفؤء المعتاد الخارج من نافذة غرفتها فقلت لها:
- لقد نسيت وأغلقت ضوء غرفتك.

فردت:

- لم أعد أتركه مضاء.

نظرت إليها في تساؤل فتابعته قائلة:

- لم أعد أشعر بالوحدة.

فابتسمت لها وتركها تمسك بيدي فليلاً حتى اضطرت إلى تركها
لتقوم بركن السيارة في الجراج الخاص بالنزل.. ونزلنا وتمسكت بها
حتى مدخل المبني وسألتني وهي تنظر إلى الحارس النائم كالعادة:
- ماذا ستفعل عندما تعود؟

- لا شيء جديد.. القهوة وبعض القراءة حتى يزورني النوم.

ونظرت هي إلى الحارس من جديد وقالت:
- تعال معي أعمل لك قهوة قبل أن تعود.

ابتسمت وقلت لها:

- شكراً.. لا داعي.. لا أريد أن يراني أحد وأنا أدخل معك إلى

الاستوديو.

- لا يوجد أحد.. وحتى لو رأنا أحد.. لا يهم.

وكانت تنظر إليّ بعينيها الجميلتين بعد أن جعلها الكحل أكثر فته
حتى في الليل.. وحاولت أن أقاوم أكثر وقلت:

- لا داعي للمشاكل يا ياسمين.. لا داعي.

فردت في استياء:

- رفضك هذا يسيء لي ولك.. اصعد معي يا مجي أنت تعرفني
وأنا أعرفك جيداً.

وظلت تنظر إليّ في توسل من جديد.. ولم استطع أن أرد توسلها
أردت جمال عينيها.. فتحركت معها في سكون.. وغور أن دخلنا إلى
المصعد أمسكت يدي وشبكت أصابعها فيها وعندما دخلنا إليه
وقبل أن نضيء النور قالت:

- لا نسخر من الاستوديو.. فلم أرتبه منذ قابلتك تقريباً.

وبعد أن دخلنا سبقتني إلى الداخل وقامت برفع كومة كبيرة من
اللابس كانت على المقعد الوحيد بالغرفة وألقتهما على الفراش..
وجنبتني من يدي وقالت مشيرة إلى المقعد:

- اجلس هنا ولا تتحرك.

وذهبت مسرعة إلى ركن صغير في جانب الغرفة ووضعت أسطوانة

في مشغل للموسيقى وبدأت «سيلين ديون» تشاركنا الجلسة وقالت باسمينا:

- هذه الأغنية سمعتها أول مرة التقينا فيها في المارينا.

ثم اقتربت وهي تنسم في رقة.. وقالت:

- ساعد لك أجمل فنان قهوة في الغردقة كلها.

وانصرفت إلى عمر جانبي، قمت فوراً إلى النافذة الوحيدة بالغرفة وفتحتها ببطء شديد.. وكانت تطل على شارع النصر مباشرة ودخل منها هواء خفيف بارد. ونظرت عالياً إلى السماء وكانت النجوم هناك مجتمعة في أعداد كبيرة واضحة وكأنها تنظر إليّ في ترقب.. تركت النافذة وقبل أن أجلس على المقعد مرة أخرى أخذت عيني مجموعة من الكتب فوق طاولة صغيرة في ركن الغرفة.. وكان عنوان أحدها بارزاً فقرأته بسهولة وكان عنوانه «مبادئ لقراءة الهيرغليفية» فتعجبت.

انجذبت إلى الكتب أنفحصها فوجدت كتاباً آخر تحت عنوان «اللغة المصرية القديمة والدولة الحديثة».. ثم عدد آخر من الكتب كلها عن اللغات المصرية القديمة وطرق لتعلم قراءتها.. وكنت أعرف معظمها بحكم عملي ودراستي السابقين.. وجاء صوت باسمينا من الداخل سائلاً:

- ملقعة واحدة سكر يا يحيى؟

لم أرد، وكنت أحاول أن أفهم ما الذي يجعلها تقتني مثل هذه الكتب وكل هذا العدد.. وجاءت وهي ممكة بعلبة السكر في يدها وقبل أن تتكلم نظرت إلى الكتاب في يدي وبدأت المفاجأة والارتباك على وجهها.. فازداد شكّي في وجود ما يربب فسالته:

.. لماذا نفعلين بهذه الكتب؟

لم ترد، وإنما ظلت جامدة في مكانها.. فعدت أسأل:

.. لماذا تحاولين أن تتعلمي الهيروغليفية؟

لم ترد أيضًا فوضعت الكتب على الطاولة.. ورحلت أنظر لها في صمتٍ وسألتها سؤالاً آخرًا:

.. إنكِ لست هنا في إجازة.. أليس كذلك؟

ولما ظلت صامته أيضًا قمت إلى الباب لأنصرف.. فحاولت أن تمنعني وتجذبني من يدي فدفعتها في قسوة وقلت: «كاذبة!»

وعدت إلى الكامب مباشرة وكنت لا أفهم شيئًا مما جرى.. وعندما دخلت الغرفة نزعرت رابطة العنق التي منحني إياها باسمينا وألقيتها لرُفًا.. واستعدت كل ما مرَّ بي مع ميريت.. ثم استندت ناظرًا إلى زينب الراقدة في مسكون خلفي في المرأة وقلت مخاطبًا وجهها الساكن في المرأة: «لقد قلت لي لا تحزن.. لكنتي حزين منذ يومها يا زينب.. لها حزين ووحيده يا زينب»



فاجأنا والداي وعادا إلى مصر لحضور جنازة جدي سليم.. وكانت أبلًا حزينة ثقيلة على قلبي لم أتمكن من تجاوزها بسهولة وكل ركن في البيت كان ينطق بصوته.. وفاجأني حزن والدي الذي بدا صادقًا رغم هجره الطويل لنا وزياراته المحدودة منذ سافر إلى العمل في الخليج.. وكانت عيناه في العزاء تنطقان بإحساس قوي بالتقصير والذنب في حق جدي.. وكانت أكثرنا حزنًا بالطبع هي زينب.. وفي البيت جلسنا جميعًا نترحم على ذكراه الطيبة.. وقد فاجأنا عدد المراسين في العزاء الذي أقمناه في

مسجد السيدة زينب.. ثم عدنا جميعاً بعدها إلى البيت.. وأصررت أمي
أن نبيت زينب وأمها معنا.. فلم نمانعها.

جلست في الصالة التي طالما جلست فيها مع جدي يحكي لي
سير الأولين والنوادر من قصص الغزاة والفاتحين في تاريخ مصر..
وشهدت سهراتنا سوياً وشرب القهوة حتى الفجر وسماع الأغاني
القديمة على الجرامافون الأثري الذي كان يملكه.. وطالما كانت زينب
ثالثتنا في تلك السهرات إلى أن تركتنا وأمها بعد امتحانتي في الثانوية
العامة.. وأخذت ذكرياتي معها تعصف بي خاصة عندما جلست زينب
قبالي على الكتبة التي اعتاد جدي الجلوس عليها.. وفور رؤيتي لها
في تلك الصورة اشتفت إلى قهوتنا بشدة.. ولم أجد تحرجاً في أن أطلبها
منها.. فاليست بينها مهما حدث، على الأقل بالنسبة لي كان الأمر مثلاً
كذلك.. وربما تعددت فعل ذلك أمام أمي التي لم يبد أنها لاحظت
شيئاً.. وجاءتني انصالات عديدة من ميريت لم أرد عليها ثم أرسلت
لي رسالة تعزيني فيها لوفاة جدي وتطلب مقابلي في إلحاح.. ونادت
علي زينب من المطبخ مستفجرة عن شيء لم أسمعها فقمت إليها
ورسالة ميريت ما زالت مفتوحة على الهاتف في يدي.. ولما ذهبت
إليها سألتني من بين دموعها عن مكان البن الذي كان يجنيه جدي..
فأشرت إلى مكانه وأنا أحنق في عيني زينب.. وأحسست وقتها كم
صرنا وحيدتين في هذه الدنيا من بعده.. وجذبتها إلى حضني وصرنا
نحكي سوياً في صمت.

وبعد مرور شهر واحد على وفاة جدي تقدمت إلى والدة زينب
طالبا الزواج. فوافقت على الفور وردت زينب بابتسامتها الصائفة
المعشاة منذ صرنا نلتقي مؤخراً.. ولم أخبر والداي بشيء إلا قبل
إعلان الخطبة رسمياً يومين.

جائتني مكاملة طويلة من أمي لم تخلُ من الصباح واليوم..
فاستمعت إليها في صبر طويل حتى أنهت كل ما كنت أعرف أنها
سغوله.. ثم أكمل أبي المكاملة معي مباركًا ومهنيًا.. وأخبرته أن الزواج
سيكون في خلال شهرين وفور أن أنتهي من بعض التجهيزات القليلة
في شقة عابدين. وأكد عليّ أنه سيحضر العرس معها كانت ظروف
عمله. وكان زفافنا متواضعًا. حضر عدد قليل جدًا ممن تبقى لنا
من أقرباء.. وعزمت زينب بضع زميلات لها. ولم أدع سوى زميلتين
في الجامعة إضافة إلى باستيان وقد خشيت أن يغضب إن لم أقم
بدعوته.. وفاجأني والدائي للمرة الثانية بقدميهما من الخارج وكان
ذلك من أجلي فقط تلك المرة.

وكانت أمي جامدة الوجه وصامتة لا تتحدث مع أحد ولم يكن
وجهها الغاضب الذي أعرفه دائمًا.. كان به قلق لم أعهده.. قلت لها
وهي ترتب غرفة نومنا الجديدة في ليلة الزفاف:

- استظنين غاضبة هكذا؟ حتى في فرح ابنك الوحيد؟

ردت في يأس لم أعهده عل وجهها أبدًا:

- لست غاضبة منك يا يحيى.

- ماذا إذا؟ لماذا كل هذا الحزن؟

- لأنني خائفة يا بني.. خائفة.

- ولم الخوف؟ زينب طيبة يا أمي وأنت تعرفين ذلك جيدًا.. لقد
كسبنا تحبينها وهي طفلة.. ما الذي حدث؟

- ومن قال لك إنني خائفة من زينب؟

- من نخافين إذا؟

صمتت قليلاً وبدأ أنها لن ترد ثم وضعت ما في يديها من ملابس
على الفراش وقالت في حزن:
- أنا خائفة على زينب.. خائفة عليها يا ولدي ولست خائفة
منها.

- خائفة عليها؟ ممن؟

- منك.. أنت ابني وأنا أعرفك جيداً حتى وإن كنت غائبة عنك
طيلة هذه السنوات.. زينب لن تملاً عينيك ولا ذنب لها في ذلك..
سامح الله جدك هو الذي وضعها في رأسك.

حدمني كلام أمي ولم أدري أتعني ما تقول أم إنها تتعمد مضايقتي
فقط لأنني سأ تزوج زينب على غير رغبتها؟ ومتى صارت أمي
تخاف على زينب وتعمل معها وهي التي لم تحمل همي أنا؟ أم أن
غضبها الدائم من وجود زينب قد ذهب بعد أن استردها أبي منذ
أعوام؟ وكيف لأمي أن تعرف ما في نفسي وتدعي أنها تعرفني جيداً
وأنا الذي لم أعرف نفسي بعد؟!

ضايقتني كلامها وبدأ أنها أفلحت في تكدير فرحتي البسيطة
بالزواج من زينب.. إلا أنني وبعد بضعة أشهر من الزواج أدركت
كم كانت محقة في كلامها وفي خوفها.

رفضت زينب السفر لقضاء شهر العسل بعد الزواج مباشرة
واقترحت أن نؤجله بعد تجاوز الامتحانات الخاصة بالمماجستير والتي
كانت قد اقتربت.. ودخل روتين الزواج القاتل إلى بيتنا بشكل مريع
لم أتخيله.. وكنت قد ظننت أن ميريت قد ذهبت من حياتي إلى الأبد..
إلا أن أثرها علي لم يكن قد ذهب.

كانت زينب تراها في عيني وفي شرودي طوال الوقت.. وصرت إنساناً شديد الكآبة غارقاً في الصمت مفرطاً في الشرود الطويل.. ثم مررت أناخراً في العمل لأتفه سبب، غير راغب في العودة إلى المنزل.. ركنت أبحت عن زينب الصغيرة في أركان البيت فلا أجدها.. لكنني اصطدم بزينب الزوجة.. زينب العمامة دائماً.. الناظرة إلى في لوم طويل يعرف كلانا معناه ولا يحموؤ على الحديث عنه.. وخفت أن تخجل ميريت المنزل أكثر من ذلك.. فصرت أتسكع ليلاً على المقاهي في وسط البلد مع سياستيان مرة أخرى.. خاصة بعدما علمت أن ميريت سافرت في إجازة إلى بيروت منذ أشهر.. وأحست براحة كبيرة عندما علمت أنها خارج مصر.. خاصة عندما أصبح وجهها بطاردتي مؤخرًا في كل مكان.. وأحست بالخوف من نفسي للمرة الأولى في حياتي.. ولما وجدت ما في نفسي من إحساس بالراحة من كون ميريت بعيدة.. اكتشفت أنني شخصٌ جبانٌ أخشى المواجهة وأنعمد الهرب منها دومًا.. لكنني تقبلت أن أتعامل مع صفة الجبن بدلاً أقل سوءاً من الخيانة.. ولم أكن لأسامح نفسي لو عدتُ إلى ميريت وخنت زينب.

ظلمت المسافة تباعد بين زينب وبينني يوماً بعد يوم.. وصار كلامنا يشبه متعذراً وانخرطت هي في عملها بالتدريس. ورحت أنا أنقل الأيام بين الجامعة والماجستير والمقهي مساء مع سياستيان ورفقاء جدد لا أعرفهم ولا أعرف أسماءهم ولا ماذا يفعلون.. ولم أعد أذكر متى وأين نعارنا.. لكنني كنت أقضي الوقت بصحبتهم بشكل يشبه يومي بعد انتهاء الجامعة والكورسات الخاصة.. وأحياناً أخرى كنت أصر على سياستيان في الجريدة.

انتهت مناقشة الرسالة بنجاح وصرت على مشارف حلم التدريس
كما تميت دروساً.. وكما تمنى لي جدي سليم رحمه الله.. وافتقدته كثيراً
إنشاء المناقشة الخاصة بالرسالة.

لكنني كنت أراه طوال الوقت في عيني زينب الفرحتين في صدى
طوال المناقشة.. ورغم الجمود الذي كان يبتأ.. إلا أنني كنت أشعر
بالفخر كلما نظرت إليها في المناقشة.. وبعد إصلائي رسمياً حاصلاً
على شهادة الماجستير وبعد تلقي المباركات.. عرض عليّ سباستيان
القدم مساءً إلى شلة المقهى وقد اعزموا تنظيم حفل صغير لي
احتفالاً بحصولي على الرسالة.. وعرضت عليّ زينب بشكل عابر
أن تأتي معي إن أردت.. لكنها اعتذرت في رفق وعرضت هي عليّ
الخروج مساءً للاحتفال وحدنا إن أردت.. فقلت في غير نية حفيظة
للذهاب:

- لا أمانع.. إذا سمح الوقت.

وفي مقهى البنان بأحد الممرات العتيقة بوسط البلد كانت
تنتظري مفاجأتان أحدهما سباستيان.. الأولى كانت احتفالاً مسلياً
نظمه مع إحدى زميلاته في الجريدة والتي كانت من المدلومات على
الحضور معه إلى القهوة مع صديقين آخرين..

أحضروا كعكة صغيرة وبعض الهدايا التذكارية احتفاءً بي.. أما
المفاجأة الثانية فكانت مبريت التي فاجأتني ومسط الوجوهين
ووجدتها أمامي على نفس المنضدة.. وكانت تبسم في رقة وتلمع
عينها الجميلتان في مكر.

مدت يدها الناعمة في سلام جاهدت ألا يكون حاراً.. وكانت
يدها باردة بشدة وأبعدت عيني عنها ناظراً إلى سباستيان في استغمام:

لماذا به ينسجم في بلاهة كعادته.. وهز كتفيه ومط فمه معلناً أنه لم يكن يعلم بقدمها.

لكني لم استطع أن أضع نظرة اللوم الحادة التي رمقته بها.. ميريت لم تنفراً الغيب وتعرف عن وجودي هنا اليوم من نفسها بالتاكيد.. وترددت في اتخاذ قرارى بالرحيل أو البقاء.. لكن توترى البائن وارتفاعه يدي بعد سلامي عليها أنذراني بضرورة الرحيل، وأخذت أنكر في حجة أقوم بها من المقهى دون أن أتسبب في إحراجهم.. خاصة وأن التجمع الليلة كان معداً خصيصاً للاحتفاء بي.. مدت ميريت يدها بعلة قطيفة صغيرة الحجم وقالت:

- ألف مبروك يا دكتور يحيى.

وعادت تبسم ابتسامتها القديمة.. ونظر في ولي وكأنا كنا سوياً بالأمس.. تناولت الهدية من يدها مجبراً وشكرتها ولم أقم بفتح الهدية إلا أنها أشارت إليّ أن أفعل دون أن تتكلم.. وتعجبت من طريقتها هذه.. أعدت النظر إلى وجه ميريت وكانت دقات قلبي قد انتظمت وهذا انفعالي من مفاجأة رؤيتها بهذه الطريقة.. كانت تضع الكثير جداً من مساحيق التجميل على وجهها وطلاء شفيتها شديد القناعة بشمرك أنهما نعيمان.. وأخذت أنظر إلى عينيها الجميلتين اللامعتين.. ثم أنظر ثانية إلى ملابسها المثيرة الملفتة وصدرها البارز المكشوف.. ثم أعود أنظر إلى وجهها وأصابعه الكثيرة مرة أخرى وقلت في سري: لم كل هذا؟ كنت جميلة دون تجميل.. ووجدتها تحديق في عيني باستغراب شديد.. وتسل جفنيها بطريقة قصدت أن تجعلها مثيرة.. لكني وجدتني مبتذلة بشدة.. ثم أرحت ظهري على مقعد المقهى وأشرت إلى صبي المقهى وطلبت قهوة مركزة.. وقبل أن يذهب قلت لها:

- اطلب لك فهوة ممي؟

وكنيت ابتسم بطريقة لم تفهمها وقد أربكها سؤال السذي نخرج هادئا تماما.. وشكرتني في غير ود.. ثم عدت أناملها من جديد.. ولم استوعب كيف ذهبت ميريت الجميلة من العالم الواقعي فجأة هكذا لتستقر فقط في ذاكرتي.. تاركة أمامي هذا المسخ الملوّن المبذل.. أم أن ميريت الجميلة كانت مجرد وهم ولم تكن واقعا أبدا وما أراه أمامي الآن هو الواقع الوحيد.. ولم تكن الابتسامة تغارق وجهي طوال الجلسة.. وكنيت أمزح معهم واضحك وأسخر من كل واحد فيهم وأحدث مع ميريت بغفوية شديدة وكأنها زميل عمل قديم.. أو كأنها أحد زبائن المقهى الغريباء.. وكان ارتباك ميريت يزداد كل دقيقة وقد أحسنت أنها لا تفهمني بعد أن بطل مفعول سحرها المزيّف فجأة؟.. أو أنها خافت من قد فهمته.. وقد علمت أنها انتهت فعلا بالنسبة لي.. بينما كان الأمر مسل جدا طوال الجلسة.. وأخذت أتعامل مع الجلسة الطويلة وكأنها لعبة ممتعة.. وإن كان في الأمر بعض من الشغفي الذي لم أنكره أمام نفسي.. ولا أعلم لم أحسست فجأة برغبة شديدة القوة في العودة إلى المنزل.. ولولا ذلك لبقيت أمارس لعبتي المسلية هذه طوال الليل رغم الفهوة شديدة السوء التي كان يقدمها المكان.. وعندما استأقنت منهم وأشرت إليهما بيدي مودعا كانت ابتسامة جديدة على وجهي ولم أعرفها من قبل.. وانصرفت إلى الممر الجانبى المؤدى لشارع طلعت حرب وأمام مقهى ريش وقفت أشير إلى سيارة للأجرة وجاء صوت ميريت من خلفي وكانت ممسكة بالعلبة القטיפيّة التي كنت قد تركتها على الطاولة وقالت:

- على الأقل افتحها.

قلت لها:

- ليس لدي أي فضول لمعرفة ما فيها.

فقامت هي بفتحها وأخرجت منها ميدالية لأحد التماثيل الفرعونية
وكان له رأس طويل مذهب وأذنان شديدا الطول، وقالت:

- ظنتها سرف تعجبك.. فقال لي صاحب البازار أنه إله العاصفة
القوي عند القدماء.

لم أستطع أنه أمنع نفسي من الابتسام وقلت لها:

- أنتِ أول شخص أعرفه يشتري ميدالية للإله «ست» كهدية
لأحدهم.. كلمة «إله العاصفة» هذه بديل مهذب جداً لما مبريت
نستخدمه فقط مع الساتحين.. «ست» عند المصريين هو إله الشر.

وضحكت مرغماً ودون قصد حقيقي للسخرية منها.. وتركزت
البالية في يدها وركبت سيارة الأجرة التي توقف صاحبها أمامنا
وقد جذبته بالطبع جسد مبريت المثير واتجهت مباشرة إلى المنزل.

عند دخولي كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء.. ووجدت
نسيب تنظر إلي متعجبة من قدومي مبكراً وقد ظنت أنني سوف
أغيب عنها كالعتاد.. وظلمت أنظر إليها وكأنني أراها للمرة الأولى..
وقلت:

- ارتدي ملابسك سريعاً سوف نخرج سوياً.

ولم تصدق هي ما سمعت وابتسمت وأخاضت ابتسامتها الواسعة
منزلنا الكثيب دوماً.. وكنت ابتسم لها أيضاً في صدق.. وقالت
نحن غارجان:

- ماذا بك.. تبدو غريباً.

ولم ارد.. نزلنا إلى شارع الشيخ رجحان وكان مزدحمًا كالمنعشاد.. واشترى
إلى سيارة أجرة وسألت زينب:

- إلى أين تحبين الذهاب؟

- لا اعرف.. أنت غريب حقًا.. قل لي ماذا حدث لك؟

فأعدت السؤال، وكنت أضحك هذه المرة وسائق السيارة ينظر
إلينا متعجبًا فأخذت زينب تفكر وقالت مرة أخرى:

- لا اعرف.. قل أنت.

فألتها:

- ما هو أكثر مكان تريد الذهاب إليه؟

فقالت:

- نفسي أعمل عمرة.

وأخذت تضحك وتضحكت أنا أيضًا بصوت عالٍ وخجل إليّ أن
السائق أطلق سبّة لم أسمعها وانصرف مسرعًا.. وعرفنا أنا وزينب في
نوبة ضحك شديدة ثم أعدت سؤالها لكن بجديّة فأجابت:

- نروح الحسين.. شارع المعز.

فوافقت على الفور.. وتحركنا إلى شارع بور سعيد مشيًا وكان المنزل
قريبًا منه ثم عبرنا الشارع إلى الناحية المقابلة واشترت لأول سيارة
أجرة لمحتها.. ودخلنا إليها وقال السائق:

- هل اتفقتما أخيرًا؟

وفوجئت بأنها نفس السيارة التي أوقفناها منذ دقائق.. فقلت لي
أدبٍ وكأنني اعتذر:

- الحسين بإذن الله.

وكنمت ضحككتي بصعوبة.

كان المكان مزدحمًا بشدة عندما وصلنا والناس تتخبط في بعضها البعض وسألني زينب:

- ألن تخبرني ماذا حدث لك اليوم؟

ولم أرد، وكنت أحاول أن أعبر بها وسط الحشود الكثيرة التي لم أكن أتخيل وجودها في هذا الوقت.. وأحسست كأنني والد لطفلة صغيرة يحاول أن يجمعها من التيه وسط كل هؤلاء البشر.. بينما كانت زينب منكشحة في ذراعي تستمع في نفس الوقت بالمكان.. وكل دقيقة كانت تشير إلى مفهى أو بازار وتطلب أن تدخله.. لكنني كنت أتابع في رفض وأقول:

- اصبري.. عندي لك مكان سيعجبك.

فنزوم بشفتيها في طفولة.. وظللنا نحارب الزحام حتى هذا أخيرًا عندما وصلنا إلى عطفة يبدأ عندها مسجد شديد الجمال سألتني عنه زينب فقلت لها:

- إن هذا هو الجامع الأحمر

وسألني:

- لماذا اسمه الأحمر؟ ما معناه؟

- حسب الكتب فالأمر عليه جدال.. أما ما أخبرني به جدي رحمه الله فالسبب هو نوع الأحجار البيضاء التي شيد منها، وقديما كان انعكاس ضوء القمر عليها يجعل المكان كله قطعة جميلة من نور. ثم ابتسمت متابعًا:

- والمهلة على جدي.

فقال زينب:

- أريد أن آخذ صورة أمامه.

وكانت الإضاءة لا تساعد على التقاط صورة واضحة بالهاتف الذي كنت أحمله وقتها إلا أنها ألحّت عليّ، وأخذت أحاول أن ألتقط لها عددًا كبيرًا من الصور ربما تكون إحداها واضحة.. ومر جوارنا رجل عجوز يدفع عربة صغيرة بيديّة أمامه وقد حمل عليها عددًا من الطرايش الطويلة.. فطلّبتُ منه زينب أن يلتقط لنا صورة سوياً وأضمت ونفاً كبيراً أشرح له كيفية التقاط الصورة بالهاتف.. وبطفولتنا التي عادت إليها اليوم فقط، ابتاعت زينب أحد الطرايش منه وأخذت تصور به أمام سور المسجد وعلى الرصيف الحجري المقابل.

عدنا تمشي سوياً في شارع المعز وسألت زينب عن المكان الذي أبحث عنه وكنا قد وصلنا تقريباً.. وكان الزحام شديداً.. ربما أكثر من ذلك الذي كان عند ساحة مسجد الحسين.. وقلت لها:

- هذا هو بيت السحيمي.

وكانت إحدى فرق المولوية في أحد عروضها بالداخل ويذا أنها سبب هذا الزحام الشديد.. فقالت بقلبي:

- أتاب إلى هنا كثيراً؟

- لا.. مرات قليلة.. كان لي صديق يعمل إدارياً في هذا المكان فكنت أزوره أحياناً.

فنظرت في عدم تصديق لكني ابسمت وقلت:

- أتشكين في يا زينب؟

لكنهما لم ترد على سؤالتي.. وجاهدت في صعوبة كي ندخل وسط

هذا الزحام الشديد أمام الباب رغم تأخر الوقت.. وتسللت معها بصوت من أحد الأبواب الجانبية التي كنت أعرفها.. وردت زينب بصوت مسموع «مرات قليلة؟» فابتسمت وأمسكت يدها داخلين إلى القاعة المزدحمة والتي كان العرض قد بدأ فيها.. ولم أصد أستطيع أن اسمع أسئلة زينب الكثيرة عن المكان من ارتفاع صوت الفرقة المؤدية.. وكل ما كان يشغلني هو الزحام الشديد ومحاولاتي المستعينة لمنع أي من الواقفين من الاحتكاك بجسدها ومسط هذا الصخب، حتى صرنا ملتصقين تمامًا ويدها في يدي واندجنا مع العرض وموسيقاه الرائعة، وكانت الفرقة تنشد «أكاد من فرط الجمال أذوب» على رقصات التنورة.. ولا يوجد مكان لقدم.. وبدأت زينب بعد اندماج طويل في القصيدة تضغط على يدي برفق كل فترة ثم بقوة شديدة وغاصت بجسدها كله تحت ذراعي.. فطوقتها بكلتا يدي وبدأ كأن العازفين والمنشدين والراقصين جميعهم يقدمون العرض لنا وحدنا.. والتفت إلى زينب وكانت عينها دامعتين والمنشدون يرددون بحمسين في صوت واحد:

«شافني وجدي وجك مطلب.. من شاف حب الجمال يصب»

وكان راقصو التنورة يدورون في وجد حولنا ويأخذونني مع زينب إلى أماكن لم نطأها من قبل.. وخرجنا متأخرين بعد أن انتهى العرض وكانت زينب متعلقة في ذراعي بقوة وتدمع عينها كل فترة حتى وقفنا أمام بازار صغير يكاد صاحبه أن يغلقه وكان يضع عددًا من التحف والجرامافونات القديمة أمام واجهته في الشارع واسترقتي زينب وسألت صاحبه إن كان يبيع أسطوانات جرامافون فردًا بالإيجاب.. وطلبت زينب أن أنظرها بالخارج وغابت داخل البازار لدقائق قليلة ثم خرجت وكان معها أسطوانة لأسمهان.. ثم نحررنا عائدين إلى

البيت.. ووجدتني قد اثقت بها.. وفور دخولنا انهلست عليها تقيلاً
فقابلتني بقُبل أكثر سخونة وانفرط جبل جوحنا تلك الليلة حتى
صرنا نكتشف ما في أجسادنا من غريزة كامنة للمسة الأولى، وكان
عطشي إليها شديد فكانت تسقيني في كرم حتى أنهكتنا جسدينا بشكل
بالغ، وفور أن هاجمتني ذكرى قُبَلتها الأولى لي في الشرفة منذ سنوات
وجدتني أطلب جسدها مرة أخرى فأقبلت مليئة في شوقي.

انقلبت حياتي وزينب في ليلة واحدة فصرت شخصاً جديداً لم
أعرفه من قبل وعادت إليّ زينب كاملة كما عرفتُها قديماً.. وصرت
لا أصبر على الابتعاد عنها كثيراً وأعود إليها في لحظة متجلدة كل
يوم.. ووجدتني قد وقعت في حب زوجتي بعد أكثر من عام من
الحياة الرتيبة الجافة.. وأخذ وجهها يضيء نوراً وجمالاً ويزداد برز
عينيها حتى صارت روحها تضيء المنزل من جديد بعد أن استقرت
فيه الكتابة لأعوام طويلة.. ولم أدرك كيف كنت غيباً ومغيباً كل هذه
السنوات الحزينة؟

في إحدى الليالي الطويلة من ليالينا الشقة قلت لها بعد أن انتهت
أنه يجب أن نبدأ في التفكير بالإنجاب.. ووجدتها قد ارتبكت قليلاً
سألتها عن سبب ذلك قالت:

- أرجو أن تساعدني.. عندما تزوجنا كنت أشعر أنك لم تكن لي
إبناً.. وكنت أتناول أدوية لمنع الحمل.. فلم أكن أعلم إلى أين
ستذهب بنا في هذا الزواج.

ولما وجدتني نحاول الاعتذار مرة أخرى عن ذنب لم يكن يخصها
من البداية، تناولت يدها وقبلتها وسألتها المغفرة.. وقد تفاجأت أنني
لم أسأل نفسي من قبل لماذا تأخر موضوع الإنجاب هذا.. فاكشفت
أنني لم أكن أفكر فيه من قبل.. وقد كنت بالفعل مغيباً عن حياتي

لحقيقية.. وعن كل ما هو رائع بين يدي.. وأخبرتني أنها توقفت
من تناول هذه الأدوية منذ شهرين تقريباً.. فاقترحت أن نذهب إلى
زيارة الطبيب ولو بشكل روتيني فوافقت.

أخبرنا الطبيب بعد كشف عادي أنه لا توجد أي مشاكل ظاهرية،
وطلب منا بعض الاختبارات العامة في ولها بإعادة المرور بعد
أسبوعين.. وبدأنا نفكر أنا وزينب ونحدث في موضوع الإنجاب
بشكل مستمر، وقالت إنها تمنى لو تنجب بشأ.

أخذ الطبيب في زيارتنا التالية يتفحص النتائج الخاصة بتحليل
زينب لفترة طويلة وبدأ القلق يغزو وجهه.. ثم أخذ يسأل زينب
هدفاً كبيراً من الأسئلة الغريبة ولم تكن لها أي علاقة بموضوع
الإنجاب.. ثم استأذنها أن تنتظرنا في الخارج للانفراد بي.. وقال في
لمحة بآانوع من المواساة:

- هناك ارتفاع خفيف في عدد كرات الدم البيضاء.. أنصحك
بالترجة لختص في أمراض الدم فوراً.. الآن لو تستطيع.

سألته وقد كنت لا أفهم أي شيء مما يقول:

- أتعني أن هناك مرضاً ما بالدم يسبب عدم القدرة على الإنجاب؟

فرد في نفس الأسى:

- لا علاقة لموضوع الإنجاب هنا بما أقول.. المشكلة أكبر من
ذلك بكثير.. طبقاً لهذه التحاليل والفحص البدني.. قد يكون
هناك أورام حمادة بالدم.. الموضوع ليس في نطاق اختصاصي بالمرة..
لا بد من اختصاصي لأمراض الدم فوراً.. وكذلك إعادة التحاليل..
وأصف عليها ما سأطلبه منك.. لكن إن كانت هذه النتائج حقيقية
فالأمر غير مبشر.. أرجو من الله أن يكون ظني خاطئاً..

ثم صمت ولم استطع أن استوعب منه ما يقول، وحاولت أن
استفسر أكثر لكنه أكد على أن زيارة طبيب أمراض الدم هي التصرف
الوحيد السليم حالياً... ورشح لي عددًا كبيرًا من زملائه.. وخرجت
إلى زينب ووجهي يتحدث وحده عن كل شيء.. وكل ما استطعت قول
لها أن الطبيب وجد شيئًا غريبًا في الفحوصات لم يستطيع تفسيره..
فانكمشت زينب في نفسها وعلمت أنني أخفي عنها شيئًا كبيرًا..
وتوجهنا إلى عيادة أقرب طبيب لأمراض الدم.. وفور اطلاعه على
الفحوصات التي كانت معنا رفض أن يعلن أي تشخيص ولو كان
مبدئيًا إلا بعد عمل عدد كبير من التحاليل والأشعة التي ملأت
الروثة التي أعطاها لنا.. ولم تعد زينب إلى أي من الأسئلة الكثيرة
التي كانت تفتلها.. لكنها التزمت الصمت التام وظلت تمسك يدي
في خوف شديد، وكنت أتعلق بيدها وقد تهت تمامًا.. وعندما دخلنا
إلى البيت هربت إلى الحمام سريعًا ورحت في نوبة بكاء لم تنته أبدًا..
وانتهى بنا الأمر بعد ستة أشهر من العلاج الكيميائي والإشعاعي
والفحوصات والمزيد من الفحوصات إلى جسد ممتص هزيل ذبل كل
ما كان فيه من محبة وحياة.. وفي تلك الليلة السوداء كانت زينب ترفد
جواربي وقد استسلمت لصيرها، واستسلمت أنا لبأسي ودموعي،
وقالت وهي تمسكة يدي في ضعف شديد: «لا تحزن».. فكنت أقبل
يديها وقدميها وأبكي كطفل تائه ووحيد، وكان عجزتي يقتلني وقد
اقتصر دعائي أن تنام دون الألم اليومي الشر من الذي يهاجمها ويقتلني
جوارها.. وقالت وقد بدأت عيناها تغيبان في استسلام للنوم:

- «إذا كانت تقول تلك الأغنية في الحسين؟

وحاولت أن أتذكر وقلت باكياً:

- كانت تمحكي عن جمالك يا زينب.

لكنني لمحت انعكاس وجهها الذابل في المرأة وقد راحت في نوم
هادئ أخيراً فعمدت الله كثيراً، ثم احتضنتها برفق شديد ونمتُ إلى
جوارها من فرط إرهاقي الطويل.

جاءني حدي سليم في نومي وكان وجهه مضطرباً ثللاً ابتسام
الطيبة وكان يشير بإحدى يديه في بطة وهو يقول مكرراً: لا تحزن..
لا تحزن.. وفُقت من النوم على سرودة شديدة في جسد زينب بين
ذراعي.. وكان انعكاسها ما زال أمامي في المرأة وقد غادره الشحوب
الآخر إلى الأبد.. وبرزت عروقي رفيعة وسط بياضه الجديد. وخفت
أن أنظر إليها مباشرة جواربي، وبقيت أراقب وجهها الساكن في المرأة
والبكى في صمت ثم خائني صوتي وعلا نجيسي وهزتها في عنقب
نادياً عليها، وكانت قد رحلت نهائياً وبقيت وحدي مع حزني
ووجدني إلى الأبد.

في العزاء الصغير كان مهابتيان هو آخر الراحلين من البيت..
وودت ألا يرحل ويتركني وحدي في الشقة ولم أعرف كيف أطلب
ذلك منه.. ورحل الجميع وصرت وحيداً لا أفهم ماذا أفعل.. أقوم
من نومي أبحت عن زينب في الشقة فلا أجدها فأظل أنادي عليها..
وعندما لا ترد أرتدي ما أجده متاحاً من ملابس وأخرج أبحت
عنها في الشارع بين أوجه المارة وفي انعكاسات وجهي أمام فائرنات
المحلات التي كنا نقف أمامها سوياً في الماضي، ثم أتعب من البحث
فأعود إلى الشقة الخاوية.. أترك أنوارها جميعاً مضاءة من شدة الوحدة
والخوف.. ثم أنظر إلى وجهي في المرأة لأجدها راقدة جوار انعكاسي
فيها.. فأعود لأبكي.

أدارت الحياة وجهها الطيب بعيداً عني تماماً.. وسلمتني إلى وجه
فيسح لم أعرفه من قبل.. واستسلمت ليأسي في ضعف ورضا.. وجاءني

الإنذار الأول بالفصل من الجامعة بعد أن تعد صبرهم الطويل على
 انقطاعي.. وكان سباستيان لا يتركني كثيرًا.. وداوم على زيارته
 المستمرة محاولاً إشغالي من الغرق في دوامة حزني هذه لكنه لم يستطع
 أن يفعل لي أي شيء.. وأحياناً ما كنت أنفعل عليه وأعامله بقسوة كلما
 ألح عليّ في عدم الاستسلام.. أو ألح عليّ للخروج.. وفي مرة فقدت
 أعصابي وقمت بطرده من المنزل.. وبعد أن قمت من ثورتي حزنت
 أكثر على ما فعلته معه من تكرار للعجيب.. فعاودت الاتصال به
 ورفض أن يقبل الاعتذار ما لم أخرج لمقابلته.. على المقهى أو في أي مكان
 أريده.. قبلت.. وعدت أنظر إلى وجهي في المرآة بلوم شديد ولم أقم
 بتهديب هبتي وارديت ما وجدت من ملابس وخرجت إلى ملاقاته.
 رحلت أتمشى في وسط المدينة أراقب الأراجفة في فضول ومفت..
 كانت الشوارع شديدة الازدحام.. والناس كلهم على عجلة من
 أمرهم.. أوجههم جميعها عابسة كثيفة ربما أنشأ من وجهي.. وكان
 وجه المدينة قبيحاً.. قبيحاً إلى درجة منفرة.. وأسذت أعجب من قول
 جدي سليم دائماً أن بلدنا «جميلة».. وقلت مخاطباً إياه في غضب: أي
 جمال وسط كل هذا القبح؟ سألت نفسي: أي بلاد كان يقصد جدي؟
 وأين ذهب هذا الجمال الذي كان دائماً يتحدث عنه.. أم أن زينب قد
 تكون أخذته معها عندما رحلت؟

ووجدت عيني لا تلتقط من الشارع إلا كل ما هو سيء مشر
 للفتنة.. ملابس الشباب والفتيات أشبه بمهرجي السيرك..
 تقليعات عجبية تحت معنى الموضة.. نعرش وشجار ونظرات جرع
 في أعين الجميع.. وتعمجت ثامناً.. أحدث للبلد هذا كله في تلك
 الأيام القليلة الماضية؟ أم إنني لم أكن أرى شيئاً قبل رحيل زينب؟
 ولم أستطع أن أتحمل الجلوس مع سباستيان على المقهى لأكثر من

نصف ساعة واعتذرت له كثيرًا قبل أن أنصرف.. وعدت سريعًا إلى المنزل وقد حسبته أكثر رحمة.. لكنني فور دخولي عادت إليّ هواجس الوحدة وأنياب الخوف. وعندما عدت أنظر إلى المرأة وكان وجه زينب منتظرًا، قمت بتغطية المرايا في الشقة كلها ولم أعد أستطيع أن أنعمل أنظر إلى وجهي الذي صرت أكرهه.. ولم أعد أحتمل ذكرى زينب والرحلة في تلك الليلة الخزينة الباردة.

حاولت مرات ومرات الاندماج ثانية في الحياة.. لكنني كلما خرجت إلى الشارع وجدتني أصاب بنوبات من الاختناق والهلح الشديدتين حتى أصبحت لا أنعمل منظر الشوارع والعابرين من المارة والجالسين على المقاهي.. وأحسست أنني أعيش داخل مسخ كبير اسمه القاهرة.. وعندما حاولت العودة للجامعة صار الجميع يتأفف من حين خلقي وفلة ذوقي الواضحين.. وأصبح الدكتور يحس الطيب رمزًا للمشاكل والخلافات في الكلية ووجهًا مكروهاً لدى زملائه من الأساتذة والمعيدين بالقسم، حتى تعاملاتي مع الطلبة صار يشوبها نوعٌ شديد من الإهمال واللامبالاة في مسئولياتي تجاههم.. فصارت سمعتي باللغة السوء لدى الكلية فعدت للانقطاعات المتكررة.. وقبل أن يأتيني إنذار جديد بالفصل قمت بتقديم استقالي وذهبت إلى إحدى من شركات السياحة أعرض عليهم خدماتي.. وكان طلبي الوحيد هو العمل في أي مكانٍ بعيدٍ عن القاهرة.

بدأت العمل أولاً في شركة صغيرة ألتفتني للعمل في طابا، ومن طابا إلى سانت كاترين، حتى استقرت في المقام في كامب وادي حبيبة بالقرنفة.. وجدت جزءاً من نفسي في الصحراء.. لم أستطع أن أتقبل نفسي بالكامل.. لكنني في نهاية الأمر ومع مرور الوقت وجدت طرقاً عديدة للتعايش معها.. كان إحساسي القائل بالذنب تجاه زينب

يقتلني في البداية.. إلا أنني استسلمت لإرادة الله في النهاية.

لكنني لم أستطع أن أنظر في وجه امرأة أخرى من بعدك يا زينب..
حتى جاءت ياسمين.. منذ التقينا في بازار عارف وشيء قوي يدفعني
بعنف شديد إليها.. شيء لم أفهمه إلى الآن.. أحيانًا كنت أشعر ونحزن
معًا أنها تتكلم بروحك يا زينب.. وتعاتب وتلوم بلسان جدي..
حتى إنها كانت عندما تمزح تذكرني بسباستيان.. كل أرواح من عرفهم
في حياتي كانت تحملها ياسمينًا معها.. ونظورها وقتها تشاء.. وكيف
تشاء.. وعندما كانت تصمت أو تحزن فإنها كانت تحزن مثلني يا
زينب.. وتصمت مثل صمتي.. وقبل أن أشعر أنه ثمة ما يمكن أن
يعيد لي الأمل في حياة جديدة.. وجدتها تخدعني.. تعلقت بأمل بدا
جيدًا في بدايته لكنه انقطع في النهاية.. ساعك الله يا جدي.. قلت لي
قبل رحيلك ألا أفكر في مشقة الطريق.. وأن أفكر في متعة الوصول..
وها هو الطريق قد طال.. طال كثيرًا يا جدي حتى صرت متبوءًا في
الصحراء.. فإلى أين أذهب بعد ذلك.. وأين وكيف يكون الوصول؟
انتصف الليل وأنا غارقًا في أفكاري بين الماضي وياسمين، حتى
سمعت صوت سيارة تتوقف أمام الغرفة.. بعدها جاء صوت
طرقات قوية غاضبة على الباب، وعندما فتحت وجدت ياسمين
أمامي، وكانت تحمل في يدها مجموعة من اللغائف دخلت وألقت بها
على المنضدة جوار الجرامافون وقالت في غضب:
- كنت سأخبرك بكل شيء.. لكنني لم أعرف متى كان يجب أن
أفعل ذلك.

ونظرت إلى رابطة العنق الملقاة على الأرض في أسف بالغ وقالت
وهي تشير إلى اللغائف:

.. مانت جلدتي روزه من أجل هذه.

ثم خرجت من الغرفة في نفس الغضب نازكة بابها مفتوحًا.

بقيت واقفًا في مكاني لا أفقه شيئًا مما قالت.. ثم ذهبت وأغلقت الباب ورحلت إلى اللغائف أنفحصها.. فوجدتها مجموعة عريضة مطوية حول بعضها وملفوفة بعناية في أكياس بلاستيكية شفافة.. وفور أن أخرجتها وجدتها لغائف من أوراق البردي مكتوب عليها بالهروغليفية، وعندما لمست أولها ونظرت إلى الأحرف التي فوقها عرفت فورًا أنها برديات أصلية وليست مقلدة.. فهالتني المفاجأة.. قمت سريعًا إلى باب الغرفة وتأكدت من إحكام إغلاقها بالمفتاح من الداخل ثم عدت إلى البرديات أنفحصها.. مررت بعيني فوق بدانها وقرأت في السطر الأول الكبير

«الاول العظيم من ثلاثة»..

ثم في السطر الذي يتبعه:

«أنا الزعفرانة.. أنا الجميلة فوق كل جميلة»..

ثم مررت سريعًا بعيني فوق بقية الأسطر في البردية الأولى فوجدتها قد رُئيت بالنقوش والخراطيش الملكية التي أعرفها جيدًا للسلوك الدولة الحديثة في العصر القديم.. وأخذت عجبني وفضولي يتفانان حتى زاحماني في الغرفة.. تفحصت البرديات أكثر بين يدي وكانت من القطع المتوسط أو الصغير للمكتابة في ذلك الزمان.. نظرت إلى زينب في المرأة خلفي مرة أخرى وكانت تنظر في ثقيب.. ثم أخرجت كل الأفكار من رأسي قدر ما استطعت وأحضرت أوراقًا وقلما ثم جلست لأدوّن ما أترجم.



(٦)

الزعفرانة

«الأول العظيم من ثلاثة»

١

أنا الزعفرانة.. أنا الجميلة فوق كل جميلة.. أنا التي رضي الإله ملكي وما
رضيت.. أنا التي تقدّست أسمائي وتجلّت ألقابي من الشمال إلى الجنوب..
فتبدّت هذا كله وسعت مع مَنْ آمَنَ بي نحو الشرق.. حيث يمكث رب
الشمس والمها «رع» طوال الليل يدبر لنا مَبَلنا في النهار.. فتقتات من عطفا
أو تصارع من غضبه.. أنا التي حُملت فوق ما حِلّ من في مثل قداسي.. لما
ضعفت وما خنعت.. وعندما حاول أعدائي دس السم لي قبل أن أكشف
خباياهم.. قلبت الأمر عليهم.. وتركتم لهم الشر يتعمون به ما شاءوا وكذت أن
أُتصر.. وثرت ثوري الكبرى ساعية أكثر إلى الحقيقة.. فأقسمت أمام «رع»
المقدس ألا أهدأ حتى أصل إلى قلب الحقيقة.. وإلا ما استحققت نسي إلي
بكلمته التي يحب.. ومفضله بين من سبقني من الأميرات..

أنا جميلة الإله «نقرو- رع» ابنة سيدة الأرضين الحرة. النبيلة في ملكها

مهمة الحياة والبقاء الأبدى على عرش «حورس» الذهبى. أنا ابنة جلاله
الملكة العظيمة المعظمة. خليفة آمون المقدمة على الأميرات.

أنا الأميرة «نفرور» ابنة الملكة المقدسة دومًا «ماعت» - كا - رع.
«حتشبسوت».

أنا الزعفرانة.

خبرني أمي الملكة «حتشبسوت» في مهدى المقدس الأول أن أبي الملك
«تحتمس الثانى» قد زاره طيفٌ في حلم خافت بعد نوبة تعب طويلة وقد
بأه الطيف بقدمي.. لما كان منه إلا أن ابتجج ابتهاجاً لم يعبده.. وقام بنشر
الصلوات في أرجاء القصر الملكى.. وبشر الشعب العظيم بالنبوة الرائعة..
ولم تلبث أن تباركت بطن أمي المقدسة.. وأعطى رب الأرباب الإذن لي
بالقدوم.. فجئت.

سألت وزير القصر الحكيم «سن-موت» ذات مرة بعد أن انتهينا من أحد
الدروس التي اختصه جلاله الملكة بتقديمها لي وقلت مستغرة عن سبب
اسمي.. فقال إن جلالتها هي من اختارته لي.. وردد بيجلي «أنت جميل مرآك
يا «نفرور» منذ جئت إلى الخفاء.. وتبارك هذا القصر بهالك منذ ذلك
اليوم العظيم».

عُهدت أمي ومولاقي الملكة «حتشبسوت» إلى ستموت الحكيم برعايتي
منذ المهد.. وكان أن اختصتني بذلك وحدي.. فلم تنعم بذلك أخوتي
«ميريت-رع».. وبالطبع لم يمنح تلك الرعاية «تحتمس الثالث» ابن أبي.. وأخي
من المظلية «إيست» والتي كان يفضلها أبي الملك عن سائر المظليات..

ولم أكن أعلم لذلك سبباً سوى رغبة الملك المقدس في أن يحظى بكهدي الأكبر
 بابن ملكي يرث الأرض ويملك العرش من بعده.. وكانت أمي جلالة الملك
 لم تمنح الإبن الذكر. لكنني عندما كبرت نفّث لي أمي الملكة ذلك.. وقالت
 جلالتها إن «إيست» أعجبت والدي الملك فقط.. ولم يكن يسى إل الزيد
 من الورثة.. خاصة أن «إيست» لم تكن من دم ملكي صافٍ مثلي ومثل
 «ميريت» وبالتبعية فإن «تحتمس الثالث» ابن أبي من «إيست» محروم من
 الصفة الملكية.. لكنني لم أكن أستوعب ذلك كثيراً.. فقد كانت أمي الملكة
 أجمل جيلات القصر.. وإن قارنتُ جمال «إيست» بها فكأنني كنت أفلن
 الثور الممثل بالفرزال الرشيق.

لارننا أبي الملك وأنا صغيرة.. لم أكن قد رأيت سوى خمسة فيضانات للنيل
 العظيم.. وذهب أبي إلى حياته الأخرى ليعتقر بالنجم الأبدي.. وكان هذا في
 نفس العام الذي ولدت فيه أختي «ميريت» التي جاءت بعد موته مباشرة في
 نفس الحريف.

بينما كنت أنا أكبر من «تحتمس» ابن أبي بفيضان واحد.. لكنني كنت
 أيضاً.. كما أخبرني «سنتموت» الحكيم - الأكثر ذكاءً والأكثر جمالاً.. وكيف
 لا أكون.. وأنا جميلة جيلات الإله رع؟!

كانت لي خصلة شعر ذهبية تادرة تبتت وسط شعري الأسود الليلي بعد أن
 ولدني أمي.. وحكي لي الحكيم «سنتموت» أن أبي الملك كان قد قام بإزالة
 بمقص ذهبي وأنا وليدة عندما لها فوق رأسي أول مرة.. بل وتنام منها
 لأن مرآها قد دُفّرت بلون شعر «أبناء بحر» الذين طالت حروبنا معهم. ولم يكن

بقي لمدهم عليه وعلى جدي من قبله. وبعد أن مات أبي الملك، وجلست
الملكة أبي مكانه على العرش. وأخذت الوصاية على «نخمس» والذي لم يكن
قد جاوز الأربعة فيضانات.. أحببت أبي هذه الخصلة. وقد كان لونها يمزج بين
الأصفر الذهبي تحت شعاع روع المقدس نهاراً، والأحمر البرتقالي كقرصه الليل
عندما يذهب مساء.. وقالت لي سيده الأرضين وأنا صغيرة:

« ليتقدس اسمك يا «نغرو»، أنت جميلة جميلات الإله.. لقد اصطفاك
روع دون جميع الأميرات من دمن المقدس، ومنحك لمسة مقدسة من يده
الطاهرة، طبعها ناعماً على جانب رأسك كي يصحبك نوره أينما ذهبت.

ثم دقتني ناطقة باسم الزعفران، تيمناً بلك الزهرة الجديدة التي اكتشفوها في
إحدى الحملات التأديبية التي قام بها جدي الأكبر «نخمس الأول المقدس»
والتي كانت خصلة شمري تملون بلونها تحت شعاع روع المقدس.. وصار اسم
الذلال يفي وين أي لفترة. ثم شاع بعد ذلك بين جدران القصر، حتى صار
اسماً لي.. مثله مثل اسمي الملكي.

في ذكرى مولدي الثامن.. كانت الملكة قد أحكت قبضتها على العرش
وصار كل من بالقصر من الكهنة والنبلاء في طيبة يذكرون اسمها جنباً إلى
جنب مع اسم الآلهة.. ونجحت في إنهاء عصر الفترحات الذي كان قد بدأه
جدي منذ عقود. وقالت في حزمها المعهود للنبلاء المهتمين والمعرضين على
لؤلؤها الحكيم:

« لقد ولى الهكسوس إلى غير رجعة منذ زمن، ولم تعد اقترادات تشكل
خطراً علينا حتى في أقصى الأقاليم البعيدة.

ثم قامت من جلستها وصاحت بصوتها الذي كان يشق أذني القلوب من
انفوف:

. لقد حان وقت العمل الخفي، لمن أراد بقي، ومن اعترض لأنني سرف
أكون أكثر كرمًا مع التماسيح في «حاجي» تلك الأيام.

لم تكن أمي ملكة قاسية لكنها كانت امرأة قوية.. أو هكذا كنت أراها
دائمًا.. كما أنها كانت أمًا عظيمة، ولم أكن أحب جلسات البلاط الملكي..
كان رأيي يتصدع من زحام الأرقام ومضاميل الجبايات ومناقشات جماعي
الضرائب، وخلافات القادة العسكريين التي لم تكن أكثر سوءًا من نزاع
الكهنة معها في معبد آمون. وعندما كنت أشتكي لـ«سفنموت» وكلّ خوفًا
من أن نسمعي كان يقول:

- هذا واجب من واجبات الملكة، أم أنك لا ترين «ميريت» أختك التي
تجلس دومًا تحت قدميها؟.. وكذلك ابن أهلك الجالس دومًا إلى جوارها على
العرش

فكنت أضحك وأقول:

- وكأنه يفهم ما يقولون.

- يومًا ما سوف يفهم يا بني، ويجب أن تفهمي أنت أيضًا كل شيء..
أنت الأكثر ذكاءً وجمالًا ونبلًا.. أنت الدم الملكي الصافي.. ويجب عليك أن
تستدي باكرًا لمسئولية الحكم، لبعد سنوات سوف تصبحين الزوجة الملكة
لـ«نختمس» الابن.. وتجلسين إلى جواره على العرش مكان جلاتها.
فرُححت أقول:

زوجة ملكية.. لمن؟ لأخي ابن أبي؟ أنا لا أحب أن أكون زوجة ملكية.

وكنْتُ أهتم في مِربي حتى لا يسمعي سوى «رع» العظيم: «أنا أحب الفِر.. وأحب الموسيقى».

وكان «سمنوت» يثام من ردي كل مرة، ويظل يقول أنه يوماً ما سوف أسير وأدرك سترلي وواجباتي تجاه مصر، وتجاه الشعب، مثلما فعلت أي بعد أن مات أبي الملك.

كنت أحب «سمنوت» وأثق في حكمته أكثر من أي شخص في القصر.. كان أباً إلهاً لي دون أن أخبر بذلك أحداً سوى «رع العظيم».. ومنذ مهدي كانت قد أسندت إليه مهمة حمايتي ونشئتي.. وكنْتُ أتهيج من مرآه وأجزع من رحيله. كنْتُ أحب هدوءه حين يتحدث ويطلق بلسان له من حكمة الآلهة ما فيه.. وكان دائم التطيب بأجود وأنظر العطور التي كانت تأتي منها ونحبها حتى إنني كنْتُ أميز رائحة عطور أبي بين ثجابه كثيراً، وكنْتُ أحب اقترابه كلما شق عليها مجالستي لانشغالها بشئون الحكم ومشقته، وكان «مختس» ابن أبي ينشغل بأمور السيف والرمح، وينشغل «مهرت» بزيارتها لكن يومي الحقيقي كان يبدأ عندما يسمح لي «سمنوت» الحكيم بحضور دروس الموسيقى مع العازفين المهرة على القيثارة.. أحب الآلات إلى قلبي وأكثرها طرباً، حتى كنْتُ لأشعر أحياناً أنها صوت المروي لـ «رع» المقدس وقد هبط إلى حديقة القصر حيث كانت تبدأ الدروس، والتي كانت تؤنس حياتي المملة في القصر، وكان حرماًني من حضور دروس الموسيقى عقاباً عيأ لذي الملكة إذا ما أملت في دروس الحساب ودروس الإدارة العامة..

لخاصة أن من كان يطبخ هو رئيس الديوان الملكي للتعليم بنفسه.. وقد كنت أكرمه، ولا أطلق صبراً إذا ما جاء موعد الدرس الخاص بالموسيقى فأصيح زينقي وأومعني وأنتقل فرحة إلى حيث كانت العازفات ينتظرنني، وإلى حيث كان يوجد الصبي «حور».

آه يا ربّ الله المقدس.. ماذا أقول عن «حور» الطيب.. «حور» البهيل ذو الذراع القوي والساق الطويلة والأعين السوداء المكعلة بالأحجار المقدسة والتي كان اتساعهما يشملني في أوقات دروس الموسيقى. حتى إنني كنت لأرى انعكاسي فيهما وأحب النظر إليهما كثيراً.

كان البهيل «حور» أكبر مني سنّاً، وشهد هو موسمين من الربيع قبل.. قبل الحكيم «سنموت» بعد أن صار كبير خدام آمون.

كان البهيل «حور» صامتاً دائماً لأنه ولدَ أصمّاً لا يسمع ولا يمكنه الكلام. وقد اختاره «سنموت» الحكيم لهذه المهنة تحديداً لكي يكون حارساً أميناً لي أنا وأختي «ميريت» الصغيرة، ولم تكن تحب دروس الموسيقى ولعب القيثارة بعد أن أدمنت جلسات البلاط الملكي جوار جلالة الملكة، بينما كان «تحتس» ابن أبي قد أدمن ألعاب المبارزة والمخروط فيها آتياً المخروط، لكن أمه «أيس» كانت تجبره دوماً على عدم تهويت جلسات البلاط مع أبي الملكة. لأنه الحاكم والفرعون المنتظر.

كان البهيل «حور» أكثر مني طولاً، يقف دائماً عاري الجذع، حلق الرأس، يبرق بهالاً تحت أشعة رع المقدسة.. يظل طوال دروس القيثارة واقفاً قبالي ضاماً ذراعاً إلى صدره حتى إذا ما احتجبت شيئاً لبأه لي بجو

الإشارة.. وقد كان يفهمني دون كلام.. يقف في عزلة وهموخ أمام كل
الوصفات الجذيلات وكأنه أمير نبيل.. حتى إذا ما جئت أنا، انكسرت سدة
هموخه.. ونظر إلي في ابتهاج وخشوع وكأنه يتعبدني..

عندما كنت أقوم بالعرف على فيثاري الذهبية كنت لا أنقطع عن النظر
إليه، فإن جاء عزفي طرباً حسناً وجدته يتسم في إجلال واستحسان رغم أنه
لم يسمع شيئاً.. وإن جاء أدائي مبعثراً قلقاً وجدته ينظر إلي في تشجيع وحث
على المثابرة.. وأحياناً كان يخالف قوانين القصر بمخاطبة الأميرات عن طريق
الإشارة، فهو يرمي إلي أن عاودي مرة أخرى، فأستعيد حماسي وأجدي قد
منحت رشاقة ونعومة في يدي حتى يخرج عزفي رائعاً يطرب كل من حوطني
في حديقة القصر.. وبالتأكيد يكون «حور» أكثرهم طرباً لما لم يسمع.

طالت توسلاتي إلى أمي الملكة.. وكثرت صلواتي وابتهالاتي إلى إلهي
الحبيب رع الذي خلق كل أشكال الحياة، كي توافي أمي على ترقية «حور» من
زمرة الخدم الخارجيين للقصر وضحه إلى خدم الحاشية الداخلي لقصر الأميرات..
حدث أمكت أنا و«ميريت»، وكنت قد مللت من الجارية الكوشية^(١) غليظة
الصوت المستولة عن جناحنا. وضقت ذرعاً من ملاحظها القاسية.. ولم تفلح
أي من توسلاتي أو صلواتي في شيء، ولم يفلح مع أمي الملكة سوى ما كنت
أعرفه مسبقاً.. الحكيم «سنتموت» بالطبع، والذي أقنعه بذلك في سهولة..
وقد ضمته بنفسه لتفخته الشديدة في إخلاص «حور» وولائه لنا.

كان «حور» يشعري قبل أن أشير، ويراجد أمامي قبل أن أفكر في طلبه،

^(١) مملكة كوش: مملكة قديمة كانت في المنطقة من حوض نهر النيل الواقعة بين مصر
والسودان حالياً

وكنْتُ أعتقد طوال الوقت أن الجمل «حور» تحرَّكه الآلهة المقدسة وتواصل معه أكثر منا.

كانت «ميريت» دائمة السخرية من عدم قدرة «حور» على السماع.. فكانت نسبة أمام الجوّاري بصوت عالٍ، وتظل تضعك معهن لعدم قدرته على الرد، حتى وإن كان يستطيع الكلام؛ فهو خادمها المطيع مهما كان تصرفها بذيء معه، وليس يده شيء سوى أن يطيع ما يؤمر به.

في أي عمر بدأت أكره الذهاب إلى المعبد.. لا أعرف تحديدًا.. لكن هذا كان بالتأكيد بعد الريح العاصف، وكانت أي لا تسامح في هذا الأمر أبدًا.. ولم تكن تسمح لي أو لـ «ميريت» بالتغيب عنه أبدًا.. لكنها أحيانًا كثيرة ما كانت تترك «تحتمس» يتغيب عن حضور الصلاة فيه.. وإن كانت أمه «إيست» سرعان ما ترسل به مع أحد الجنود خلفنا ليلحق بنا في الصوات وأحيانًا كثيرة ما كانت «إيست» تأتي بنفسها معه.. وتظل بعد رحيلنا جالسة مع كهنة المعبد لتوطد علاقة ابنها -ولي العهد المنتظر- بهم.. وكانت أوامر مولائي الملكا صارمة بشأن احتكاكها بها إذا ما تواجدت معنا في نفس الوقت.. كانت أي تنبه على الحرس بمنع الاختلاط مع «إيست» تمامًا.. بل وتجريمه.. خاصة بعد الإشاعات التي دارت في القصر عن سقوط بردية في يد حرس القصر.. أرسلت إليها ردًا من أحد صحرة الشمال المنبوذين

يرع «تحتمس» ابن أبي في الصيد والقنص سريعًا.. يرع فيه إلى درجة أن كان يذهب في رحلات الصيد مع قادة الجيش قبل أن يشهد الفيضان الثاني عشر.. وعاد ذات مساء إلى القصر وفي يده رأس لبؤة كبير اصطاده من

صرا. الجنوب في رحلته الأخيرة، وكان أن قدم الرأس في كهدة حوره
سالماً من رحلته.. لرفضتها لمنظرهما الدموي المفزعة.. ونهتني أمي الملكة على
ذلك.. وقبعتها منه نوبة عني بل وشكره كثيراً عليها، ثم أشارت إليه كي ينهوا
ملكته جوارها على كرسي العرش.. وقالت لي مولاتي الملكة قبل أن أعود إلى
غرفتي بقصر الأميرات:

- لا تقمقي كثيراً يا «نفرو» قريباً سوف ألقى بأهلك الملك إلى عالم
الفلود.. ولا بد أن أطمئن على ملكك جوار أخيك من بعدي.

ولم أرد عليها، فلم يكن هذا مسموحاً.. فقط نظرت إلى «حور» الواقف
وقد نظر أرضاً حيث لم يكن من المسموح له أن ينظر إلى قداسة الملكة
باشرة.. ثم انتظرت أن تذهب جلالتها ودخلت إلى غرفتي وأشرت إلى
«حور» أن ينبغي، فدخل ورائي في صمت.

خلعت الأكاليل الزهرية من فوق رأسي، ونزعت منها الأشرطة الكتانية
حتى أترك شعري ينسدل على ظهري في حرية، ووقفت أمام المرأة أنزع
الأقراط الثقيلة التي تورمت من أثرها أذني، وكان «حور» يقف خلفي بعيداً
أراه في المرأة في سكونه المعتاد.. قلت مخاطبة انعكاسه:

- لا أحم في هذا القصر يفكر سوى في رغبته.. وكأني غير موجودة.
فشد «حور» على أسنانه معطاً مشاركته استهائي مما يدور وتابمت وأنا ألتفت
لألفه:

- لماذا أشغل بالي من الآن بالعرش والحكم؟

مال برأسه مشاركاً اعتراضه.. ثم اقترب منه في بطء، وقلت:

- أهي الملكة بدأت تفكر في زواجي من الآن.. ألا ترى معي أنني لا زلت
مضجرة على الزواج.

ثم وضعت يدي حول خصري وهبطت بها على جانبي لخلاقي وتابعت:
قائلة:

- أعلم أنني قد بلغت حد الكمال في جمالي.

وشددت على صدري أمامه وبدأ مرتبكاً وأنا أقول:

- قل لي أنت ماذا ترى؟ هل تراني قد صرت أنثى ناضجة صالحة للزواج
والمعاشرة.

فزاد ارتباكاً وابتم في مخرج، وكنت أحب كلامي معه في أموري
الخاصة كثيراً.. بل ويسعدني كثيراً عندما أراه وهو يحتسب النظر إلى ما قد
يصري من جسدي بقصد أو بدون قصد أمامه.. ثم تركته وعدت إلى مرآتي
أخاطبه فيها وتابعت:

- والآن ما العمل؟ الملكة تصر على زواجي من «تحتس» أنني.. وهو
امرأت لا عمالة، شئتاً أم أيتها يا «حور» الطيب.. ماذا أفعل الآن ونحن لا
نحب هذا الـ «تحتس» غليظ القلب الذي لا يجتمع شيء في الحياة سوى الدبح
والقتل؟

والصفت إليه وكان يتأملني في خشوع ولعللما أحبيته عندما ينظر إلي بظن
الطريقة بعينه الجليتين الواسعتين وما بهما من ككل أصبلي.. اقتربت منه
ثانية حتى كدت أن أكون ملتصقة به.. وضعت أصبعاً على صدره وقلت له
وايتسامني وعيني فيهما ما فيهما من خبيث ولجنتي:

هل تعلم أكثر ما يثيرني فيك؟ صدرك العاري دوماً هذا.

وبدا «حوره» المسكين يتنفس في سرعة ويصثر نفسه كلها هبطت بأصبعي على جسده حتى ضحكته من منظره المسكين رغم اشتغالي أنا أيضاً له.. وانصرفت في مكاني دون كلام وفردت ذراعي بطولهما إلى جانبي في إشارة معادة كي يسدل الرداء من على ظهري.. فأزاح الرداء من فوق كسفي بيد مرمية أكثر من المرة السابقة.. وكنت أبسم في رضا وأنا أنامله في المرأة وهو بالكاد يلفظ أنفاسه.. ثم تركته وانصرفت نصف عارية وأنا أوله ظهري إلى حوض الاستحمام في القسم الشرقي من الفروقة.. وظل مكانه حتى اختفيت من ناظره ثم انصرف في صحته.

بعد أن انتهت من الاستحمام وقفت عارية أمام المرأة أنامل جسدي وأخصه وقد فاضت مفاصله منذ أكثر من عام إلى الآن.. وقلت لنفسي: «ألم ين غدا الجمال اليبس أن يرحوي؟».. ثم ثمت وأخذت أحلم بـ «حوره» طوال الليل وقد صرنا شبرين يافعتين أمام قرص الشمس هبطت أشعتها علينا فأغرنا سوباً في آنٍ واحدٍ ثم نخرج كلٌّ منا من إحدى الثورات ولحن عراء فامتزج كل منا بالآخر حتى تخلصت الأرض من تحتنا بما بقي منا فأبنت أنهاراً لتشر من جديد.. وهكذا..

في اليوم التالي طلب مني «سنعموت» الحكيم أن أحضر أنا و«ميرث» إلى جلسة خاصة بينه وبين جلالة الملكة في بلاط القصر.. ولما دخلنا عليه كان ساجداً ولم تكن الملكة قد حضرت بعد.. وسأله عما سيحدث فطلب مني أن أنظر حتى تأتي أمي.. وبعد قليل صاح الحارس:

- مولائي الملكة.. سيدة الأرضين.. العظيمة في قدرها «حتشبسوت».

ودخلت علينا الملكة فالتحينا جميعاً في تجميل حتى جلست جلالتها على عرشها وأشارت بيدها حتى انصرف كل من في القاعة الملكية ولم يبقَ غيرها أنا وأخوتي «ميريت» و«سنموت» الحكيم وقالت جلالتها بعد تهنئة طويلة:
- لقد عثر الحراس مرة أخرى على رسالة قادمة من أحد الكهنة المرتين المنبوذين لممارسة السحر.. والرسالة قادمة من الشمال.

ثم قامت من مجلسها الذي لم تكن قد انتهكت عليه بعد وصاحت:
- البردية هذه المرة كانت ردّاً على أخرى ثم إرسالها منذ فترة ولم يضبها أي من الحرس!

وكانت تنظر بلوم شديد إلى «سنموت» الذي ارتبك فور أن علا صوت جلالتها وقال في أسف:

- لو تسمح لي جلالتها.. إن إخفاء البرديات هو أمرٌ يسير على أي شخص في القصر.. وإني لأرى أنه كان من رفق «آمون» بنا أن وجدنا هذه البردية قبل أن تصل إلى صاحبها.. وقد أراد بهما سوءاً كما ظهر من مضمون البردية.

وكان يشير إلي وإلى «ميريت» ورددت جلالتها عليه في وقارها:

- أنا لا أؤمنك على التفتيش الأمني يا «سنموت».. المسائل الأمنية في البلاد ليست في نطاق اختصاصك.. لكنك أنت من عارضت رأيي في البداية بالتخلص من تلك الحبة التي لن تهدأ قبل أن تلحق الأذى بالصغيرات. والآن ها هي صارت كما يبدو على اتصال وثيق بكهنة السحر الذي حرمت لور اعتلائي العرش.

ثم نظرت إلى الكرسي الملكي الشاعر جوار كرسيا وأكلت فاضية:
- والرعاية..

لم أكن أفهم ما يقصدون وهم يبتكرون بحدينهم هذا فنظرت إليها بعيني
هذه في تساؤل مستمرة فقالت:
- أسألي ما شئت يا «نفرو-رع»

فقلت:

- من قصد جلالها بالحية التي لن تهدأ قبل أن تؤذيها؟

فأشارت يدها إلى «سنموت» كي يجيبني هو فقال:

- قصد «إيست» من كانت زوجة أمك الملك يا بنقي ومولائي.

فصاحت في صوت كاد أن يشق جدران القصر:

- عطية الملك.. لم تكن زوجة أبداً.

فراجع «سنموت» طالباً غفرانها وقال في احتذار:

- تسامحني جلالتك وليغفر لي «آمون» إنما قصدت ما قلته يا مولائي.

ثم تابعت الملكة وهي تضرب على يد كرسي العرش:

- والآن.. بعد أن قويت شوكة «تحتس» وتوطدت علاقته بقيادة

الجيش.. لم يعد من الممكن القضاء عليها بسهولة.. لقد قضيت سنوات عديدة

أدفع بهذا البلد نحو الاستقرار والرخاء.. حتى إذا ما حلت مواجهة صرنا في

صفوف المهاجمين لا المدافعين.. أما الآن.. وبعد أن صارت الحرب داخل

طوية وليست خارجها.. صار علي أن أقف ذليلة في موقف المدافع عن نفسه

وعن أهله.. لا في موقف من يهاجم ليبيد أعداءه!!

سأل «سنموت» في قلبه:

- وما الصواب الذي تراه عظمك حفاظًا على جلالتهما من شرّ قد يأتي؟
- الكثير يا «سنموت».. الكثير.. لكننا سنبدأ أولاً بنقل الأميرين من مكانهما.. أريدكما أكثر قربًا مني بعد اليوم. لم يعد مكانهما آمنًا الآن.. ولربما معي هنا في القصر ولا يأكلان ولا يشربان إلا بإشرافك أنت على ما يقدم لهما من مطبخ القصر وليراهنهما ضعف العدد من الحرس.. واجعل ضابطًا على رأس كل مجموعة من الحرس وابتعد عمن يديون لك «تخصّص» بالولاء.. هؤلاء أيضًا غير آمنين.

فرد «سنموت» في إخلاص:

- أمر جلالتك.

وقالت «ميريت» في فرحة:

- سيكون هذا جميل يا أمي.. القصر هنا أجمل وأوسع من الآن.

فتطلعت إليها أمي الملكة في لوم شديد وقالت بحزم:

- الأميرات لا يتكلمن في حضور الملكة دون إذنها، تأدبي يا «ميريت».

فردت أخفي في حرج:

- عفوك مولاتي.. لم أقصد.

ولم ترد عليها أمي وإنما أشارت إليها بالانصراف عقابًا على سوء تصرفها

فانصرفت «ميريت» في غضب فشلت في أن تخفيه، وقالت الملكة بعد أن أغلق باب الديوان ثانية:

.. أما الأمر الثاني فسوف أنفذ ما اقترحت أنت يا «سنموت» منذ الفيضان الأخير.. لقد آن الآن الأوان أن نذهب إلى «بوت».

ها أبدي «سنموت» الحكيم عجبه من قول أمي وسأله:

- «بوت» الآن جلالتك؟ لا أقصد أن أشكك في حكمة مولاي لكن لا تزن أن الوقت الآن أصبح متأخراً على هذه الرحلة؟ سوف تكلف هذه الرحلة الكثير من النفقات.. وسيكون هذا مدخلاً للكهنة في المعبد للزيادة على القرارات الأخيرة التي تخص القصر.
ردت أمي في هدوء:

- أعلم.. هذا ما سوف نعمل أنا وأنت عليه يا «سنموت».. سوف ندير سرياً كيف نجعل الطرح يأتي منهم أولاً.. ولن يكون قرارنا سوى استجابة لرغبات الكهنة.

- تأسرني حكمة جلالتك دائماً يا مولاي.. لكن هل في أن أسخر كيف سيكون ذلك؟

عادت أمي إلى كرسي عرشها وجلست عليه في وقار، ثم أشارت إلي وإلى «سنموت» بالجلوس وقالت بصوت رخم:

- اسمعني جيداً يا «سنموت»، وأنت أيضاً يا زعفرانة.. اصغي لما أقول جيداً.. إن التجربة الأخيرة لتجراً المكسوس على أقطارنا وحروبهم الطويلة قد تسببت في ارتعاب رعايانا من كل ما هو أجنبي بشكل مبالغ فيه.. بل إنه الأجنبي صار مبيوذاً لدى الجميع.. رغم أنه لا أحد يستطيع أن يعيش منعزلاً طوال العمر.. لا بد من التعاون والتبادل والتجارة بهما ساءت أحوال الأقطار..

والآن بعد أن استقرت الأوضاع في بلادنا منذ زمان بعيد.. ولم يعد أحد يبرز أو يفكر لجرد التذكير بالمساس بحدودنا مرة ثانية.. وصار الجيش في أقوى حالاته.. لم يعد هناك مبرر للزيد من الحملات الحربية والتأديبية.. أصبح الكل يدن لنا بالولاء الكامل.. وقادة الجيش الذين أدوا واجبهم على أكمل الوجه أصبحوا غارقين الآن في النعم والثروات بفضل الخلطة التي أقامها أبي وذوحي.. وفضل تدبيرنا الحكيم من بعدهم.. كما أن الضريبة المفروضة على سائر البلاد المجاورة تأتي إلينا في وقتها دون أي تأخير.. لقد سيطرنا على الجميع في الخارج.. وقد آن الأوان أن يتمم من في الداخل بالمكاسب من وراء ذلك.. مثلهم مثل قادة الجيش وكهنة المعبد.. كما أنني أخشى أن تزيد توسعنا في الخارج أكثر من اللازم إلى الحد الذي نفقد فيه السيطرة بكافة على الجميع.. ولذلك..

ثم قامت من مجلسها ونظرت في شموخ إلى الأفق البعيد قائلة بصوت جهوري:

- بأمرى أنا الملكة «عنتشيسوت».. سيده الأرضين.. ملكة البلاد شمالاً وجنوباً.. سوف توفى جميع الحملات العسكرية بدءاً من اليوم.
ثم نظرت إلى «سفنموت» بنظرة آمرة فردد في إجلال بعد أن وقنا احتراماً لها:

- أمر جلالة الملكة.. إن السماء كلها الآن تمطر من أجلك فوق بلادنا وفوق البلاد الأجنبية فتكن مشيتك أمراً إلماً ما علينا إلا تنفيذه.
ثم عادت لتجلس وأكملت:
- أما الأمر الثاني فهو ما أحتاج منكم فيه إلى المشورة.

وقالت وهي تنظر إليّ:

أنت معي في هذا يا «نغرو-رع»

قلت:

- ما تأمر به مولاتي الملكة هو أمر سيكون بمشيئة آمون الإله.

فطرت إليّ وهي ممثلة وتابعت:

- نحن الآن محتاج إلى فتح سُبُل التجارة مع الحدود المجاورة بكل أشكالها..

وليس أفضل من أن نبدأ بأصحابها.. وهي «بونت».. تا- تر.

فردد «سنموت» في ورع:

- تا- تر.. أرض الإله الرب.

وأكلت أُمي:

- الفكرة الآن التي تشغل رأسي، تكن في دماغ الكهنة بمعبد آمون أنفسهم

إلى طرح الفكرة وتقبلها.. بل ومباركتها.. وقد هداني آمون الإله إلى فكرة

أراها مناسبة.. لا بد أن تبدأ موارد «بونت» التي استقدمناها مؤخراً في النفس

الشديد.. أخضع بذلك البخور والعنبر^(٣).

فدخل «سنموت» قائلاً:

- لكن جلالتك.. ما لدينا في مخازن المعبد والقصر يكفي لعامين.. بل يزيد.

- وهنا يأتي دورك يا «سنموت» أيها المخلص الحكيم.. أريد أن تخفي هذه

المخازن من أرض طيبة كلها.. أريد أن ينفذ كل ما بها من موارد.. وأعلم أنك

لست في ذلك سُبُلَكَ وحيلَكَ.

الأنوع غامض جداً من البخور

أطرق «سنتموت» الحكيم مفكراً متأملاً كلام جلالته وبعد برهة اقترح قائلاً:

- إن حدث الأمر في هيئة سرقات متكررة فسوف يشك قادة الجيش وفي الأمر.. وكذلك الكهنة في المعبد.
- إذا، ماذا ترى بحكمتك؟

- الضمير مولائي.. إنما الحكمة والتدبير ما تعلنا من جلالتك.. وما منعك إياها آمون العظيم.. لكنني أرى أن الحرائق هي أفضل وأسرع الطرق. وفيها ما فيها من المميزات.. أولاً سوف نقضي على مخزون طيبة من البنود والعتيق في آنٍ واحدٍ. ثانياً سوف يبتلع أهل طيبة لو رأوا السماء فوقهم وقد غطت بالبنود ومخابه المقدس.. ولن يذكر الشعب الحادثة بشراً، وإن شك أحدٌ من المعبد أو غير المعبد سيجدون أنه أمر وارد حدوثه ولا ريب فيه.

- الصواب ونعم الصواب ما رأيت أنت يا «سنتموت» الحكيم..

هنا أشرت لأمي رغبة في الكلام فأذنت لي، فقلت:

- لكن كيف سيدفع هذا الكهنة في المعبد إلى عرض الذهاب إلى «بونت»؟

فردت جلالته:

- لن يطلبوا هذا بشكل مباشر بكل تأكيد.. بل سيدفعهم هذا إلى الزجاجة على القصر وسياسته ويكر مؤلفيه لعدم قدرتهم على توفير ما يحتاجه المعبد من هذا التراب المقدس.. وسيقومون بالإشارة إلى القصر تحديداً بشكل مباشر في لومهم هذا.. وهنا..

لم أشارت بعدها إلى «سنتموت» الحكيم الذي اجتمع وتابع مفسراً ما
نقصه:

«وهنا تفرم جلالها بالتضحية بقدر لا بأس به من المال في رحلة مقدسة
إلى أرض الرب».

عليه فضولي فسألت أي دون استئذان:

«لكن جلالك.. ما الذي يمنعنا من جلب ما يحتاجه كهنة المعبد من
احتياجاتهم بالطرق العادية؟ التجارة المعتادة مع القوافل التي تأتي من هناك
كل عام.. أعني أن هذا ما قد يسألونه..»

«يجبني تفكيرك في كل شيء يا زعفرانة.. لكن اعلمي يا بنتي أن ما
نجلبه القوافل عامة لا يكفي ما سوف يضيع في المخازن.. كما أنهم لن يستطيعوا
أن يمنحوا فضولهم وطعمهم إذا ما اقترح القصر الذهاب في مناصرة محلك..
لأنها إن نجحت سوف تفرق معابدهم ومنزلهم في العطايا المقدسة من تلك
الأرض المباركة».

«لكنهم يقولون يا أمي إن الطريق إلى «يونت» شاق وعنيف وعمل
بالخاطر.. وهي بلاد بعيدة وغريبة.. ربما لهذا السبب من الأساس لجلب
بضائنا من القوافل التي تمر بها ولا نذهب بأنفسنا إليها».

«أعلم يا زعفرانة كل ما يقال.. وأعلم مجرد قول.. لقد كان أجدادنا
يذهبون إليها في سلام منذ زمان.. ولم نسمع بمثل هذه الأمور.. وإنما هي
أكاذيب روجها التجار في الشرق وفي الجنوب للرفع من قيمة تجارتهم والحد
من المنافسين فيها».

ثم نظرت إلينا وبدأ أنها قد حسمت أمرها بشأن التخطيط للذهاب إلى
بونت وقالت لـ«سنموت» سائلة:

- كم سوف يستغرق الإعداد لتلك الرحلة يا «سنموت»؟

- قد يستغرق التجهيز أشهراً ثلاثة جلاتك.. لكن بالطبع لو توفر المال
والعتاد والرجال.. قد يستغرق أقل بكثير.

فابتسمت جلاتها قائلة:

- فلتنتك لاهمني من البداية أيها الحكيم.. سيتوفر المال بالتأكيد فور توفر
الغلات العسكرية.. وكذلك الرجال.. أدراك لم تربط بين الأمرين بعد.

فابتسم «سنموت» من دهائها وتابع:

- ليس لنا من قدر حكمتك إلا القليل جلاتك.. لكن هل لي أن أسأل
أي الطرق تفكرين في اتخاذها إلى «بونت»؟

وردت مباشرة وكأنها كانت تنتظر سؤاله:

- الأخضر العظيم^(٤).

ووقف «سنموت» من المفاجأة، وقلت سائلة وقد هالتي المفاجأة أيضاً:

- هل ستخذ طريق البحر إلى بونت؟!

- نعم يا «تفرو-وج».. سوف نتخذ البحر شرقاً ثم جنوباً إلى بونت.. سوف

تذهب خمسة من المراكب المائلة إلى هناك.. وفريق ظهر كل منها ما بين من
الجند الباسلين.. وأكفأ الضباط في الجيش.. ولتُحمل السفن بالطايا والهدايا
من معبد آمون ومن كل طيبة.. لتعود إلينا بكل حال من تلك الأراضي المقدسة.

(٤) البحر الأحمر حالياً

فقال «سنموت»:

. لكن حل السفن من طيبة إلى سواحل الأخضر العظيم سوف يستهلك الكثير من الرجال والعتاد والأموال أيضاً.. وربما لن يصير الكهنة ولا القادة في الجيش على ذلك.

. هذا أمر يمكن تديره مع الوقت.

وهنا تدخلت مقترحة وقلت لهم:

. ولماذا نذهب إلى البحر بالسفن.. يمكننا أن نجعله جوارها؟

فقال «سنموت»:

- ماذا تقصدين يا زعفرانة؟

. أقصد أنه بدلاً من مشقة صنع السفن في موانئ طيبة.. ثم مشقة نقلها مع المطايا إلى سواحل الأخضر العظيم.. لماذا لا نقيم ميناء جديداً على ساحل البحر.. ونقوم بصناعة السفن في الورش البحرية بها.. بدلاً من تلك المشقة؟
ابتهج وجه أمي الملكة بما اقترحت وانفجرت أساورها، وقالت مخاطبة «سنموت»:

- تباركت لما علته ابنتي من حكمة يا «سنموت» الرائع.. لقد أحسنت وأبدعت في تعليمها.

فرد فرحاً من إطرائها:

. إنما هو نسلكم المقدس بعلم آمون يا مولائي.. ما علنا إلا ما تعلمناه.

ثم قامت أمي معلقة الاستقرار على ما اقترحت، وقالت في ختام مجلسنا قبل أن تنصرف:

- إذا فقد استمر الأمر على ما اقترحتَه ابنتا.. ولتبدأ يا «سنموت» في إنها.
موضوع الكهنة هذا.. ومن الليلة تبثت الأميرات معنا هنا في القصر.
ثم انصرفت فللمحظينا لما في إجلال.. وعيس وجهي بعد أن أعادت ذكر
اتصالنا من قصر الأميرات.. وأول ما فكرت فيه هو وجه «حور» الجليل.. ولم
أكن أعرف إلى أين سيؤول مصيره..

جاءت غرفتي الجديدة في القصر على شرفة واسعة لحديقة كبيرة في
ساحة القصر.. وجواري كانت غرفة ميريت.. وأمام الغرفتين حرس مدجج
بالسلاح.. كانت أوامر جلالتها ألا يتركوا أماكنهم مهما حدث.. بينما كان
يراقبنا عدد آخر من الجنود والضباط إذا ما تحركنا.. وكانت نحر كاتما كلنا قد
انصرفت تقريباً على معبد آمون للصلاة.

سألت الحكيم «سنموت» بعد ذلك عن مصير «حور» فأخبرني أنه نُقل
إلى العمل مع بعض الخدم في ساحة الرماية الخاصة بجنود القصر.. وقد
عائلات جديدة نقله «سنموت» للعمل في حديقة القصر منقياً للزهور في
أحد البساتين تحت غرفتي.. وأصبح «حور» أول ما تراه عيني في كل صباح
عندما أتف في شرفتي لأقوم بصلاتي إلى القرص المقدس للإله المعبود..

بعد أيام هاجم حريق كبير مخازن الغلال في طيبة.. كان هائلاً إلى الدرجة
التي جعلته يمتد أثراً لينال من مخازن القمح والشعير.. وكذلك مخازن البخور
والعنبر.. وكما ظننتُ أمي ووعد «سنموت».. ابتج أهل طيبة رغم الكارثة
واصبروا أن ما حدث علامة رضا من آمون.. وذهبوا يقيمون الصلاة شكراً
وامتناناً للإله.. حتى انتهت الحرائق وأنت على كل ما في المخازن من خير.

واشتمل كهنة آمون غضباً.. بعد أن جاءتهم الأخبار بفناء مخزون البلاد من
 بخورهم المقدس.. وأعدوا حملة تطوق البلاد تنذر الناس بالوعد السيء الذي
 ينظرهم إذا لم يوفر لدى معبودهم ما تحتاجه الكهنة من بخور لإقامة الشعائر
 المقدسة.. وأتوا في حشد كبير إلى الملكة في القصر.. وبدأوا يتذرون بنضبة
 الآلة ويخذرون من شر انتقامها إذا ما جاء يوم ولم تجد المعابد ما يقيم به
 صلواتها إليهم.. وفاجأتهم أي الملكة بحرضها الكريم بأن توقوف بعض الحملات
 الخاصة بالجيش.. وتستبدلها برحلة كبيرة إلى بلاد «بونت»^(١٥).. وقالت جلالتها
 إنها مستعدة لبذل كل التضحيات في سبيل إرضاء آمون وإسعاد كهنة معبده
 للقدس.. ضاد الكهنة يملأهم الحبور بعد قرارها هذا الذي صاغته بدعائها
 في صورة اقتراح.. وركع لها كبيرهم في إجلال معلناً رضاهم الأبدي عن
 ملكها.. ولم يد أي من كان في المجلس تدمراً سوى «تحتمس» ابن أبي
 المجلس جوار أي الملكة على العرش.. وقد ساء ما عرضته أي بشأن إيقاف
 الحملات الخارجية الخاصة بالجيش.. لكنه لم يعلن عن ذلك صراحة.. وبعد
 أن انصرف الكهنة مسرورين بما قاله لهم الملكة أشارت إلى الملكة أن أنظر
 مع «تحتمس» وعصرت الجميع بمن فيهم «ميريت» و«سنموت».. ثم أشارت
 لها بالجلاس وقالت مخاطبة «تحتمس»:

- أجد لك أيها الملك ابن الملك العظيم.. أما الآن لك أن تسخر فوق عرشك
 وعصم بملكك؟

ثم أكملت وهي تنظر إلي:

^(١٥) بلاد كانت تطل على البحر الأحمر، لا يوجد إجماع بين العلماء على مكانها الفلكل ولكن أغلب
 لقن أنها في سواحل شمال غرب الصومال

.. وإلى جوار الملكة القادمة للأرضين.. «نفرو-رع» ابتسما.

ابتهج وجهه وانفجرت أسنانه بعد أن كان عابساً فور إعلان الملكة إيقاف حملات الجيش الخارجية.. ثم اقترب منها ومال على يدها في خشوع مبدئياً ولاءه وامتنانه الشديد بعرضها.. ولم يكن هذا التجليل الشديد وارداً بينهما من قبل. فرغم أنها ما زالت واصبة عليه إلى الآن.. لكنه في نهاية الأمر كان الملك الفرعون الذي ينتظره الجميع تقريباً.

أبدت أي راحة كبيرة بعد خضوعه لها بتلك الطريقة ووضعت يدها بعد ذلك فوق رأسه مباركة وجوده.. ثم سألتني في حزم:

- مالك لم تتطقي بشيء يا «نفرو-رع».. هل ترين شيئاً آخر غير ما تراه الملكة؟

وكان «نحتمس» ينظر إليّ منتظراً ردي في جوع إلى جسدي وإلى العرش من بعده.. وكنت قد لاحظت أن نظراته الجائعة إليّ هذه قد زادت في الفترة الأخيرة ومنذ جثا لنقيم معه ومع أي الملكة في القصر.. لم أستطع أن أردد على جلاتها بشيء.. فالتزمت الصمت.. لكنها صاحت في حزم أكبر:

- تكلمي يا زعفرانة..

فرددت في جمود :

- ما تراه مولائي دائماً هو أمرٌ مقدس

إلا أنها لم يبدُ أنها قد اكتشفت بردي الجاف هذا فتأملت نساءً وقد بدأ الغضب يغزو صوتهما:

- مالي أراك غير متبهة بقراري.. هل لك من رأي آخر غير رأي الملكة؟
إن كان كذلك فتكلمي الآن.

.. لو تسمح لي بجلالتيها.. أريد أن أتكم معك وحدنا..

ونظرتُ إلى «مختمس» في مقبٍ لم أُلح أن أخفيه.. فهرب شرٌّ من عنده
المادين ثم انصرف قبل حتى أن تأذن له الملكة.. واقرتُ أمي من بعدها
وكلها غضب وصاحت:

.. ماذا دهاك يا «نفرو»؟ هل أفسد الشعر والموسقى عقلك؟ لماذا تبهذين
أخاك الملك هكذا؟

لم أستطع أن أرد عليها في وسط صياحها.. وبقيت في صمتي غارقة لا أذكر
سوى في الهروب إلى غرفتي.. إلا أنها أصرت أن تستنطقني وعادت تسأل
لكن في لهجة أقل حدة قائلة:

- تكلمي يا ابنتي.. أنت لا تخفين عني شيئاً.. أليس كذلك؟

وقامت تمشي في هدوء وهي تفكر قبل أن تقول مازحة:

- أم أنه قد أفسد لك الصبي الأصم قلبك؟ ماذا كان اسمه؟

ارتبكت من كلامها ثم قلت بصوت خافض وكلي نهار:

- أقصدين «حور» جلالتك؟

فالتفتت مني ووقفت إلى جواربي واضحة يدها فوق شعري وداجبت
عنك الصفراء بأصابعها وقالت:

.. لم يعد لكلمة «جلالتك» معنى الآن.. نحن الآن أم طيبة وابنتها الجميلة..

لصكتني في دون قلبي.

ترددت قبل أن أتكم إلا أن عينا التي كانت معظري في حنو بالغ فبصتني
على الكلام فقلت:

- اصمعي يا أمي أنني أذكرك أنتِ وأبي عندما كنت صغيرة.. قبل أن يتركا ويرحلا إلى نعيمه الأبدي.. أعلم أنني كنت صغيرة وقتها لكنني أذكر جداً كيف كنتما تجلسان في بهجة طوال الوقت.. وكيف كان يحبك ويحبك.. وأعلم أيضاً كم كنت تحبينه.. وكل بكيتك في صمت رغم إخفاك هذا عنا طوال الوقت.

بدأ حزن يزور حينها فور أن أثبت على ذكر أبي الملك الراحل ولم ترد علي..
ترددت قليلاً قبل أن أتابع قائلة:

- بل إنني أعلم دون الجميع لماذا تصفين علي «ميريت» من وقت لآخر..
لأنها تذكرك برحيله الذي كان وقت قدومها.. رغم أنه لا ذنب لها في ذلك سوى الأذى.

ردت بسرعة:

- أنا؟ أقسى علي «ميريت»؟

- نعم يا أمي.. يحدث هذا كثيراً.. أنتِ لا تلاحظين نفسك.. أعلم أنها كثيراً ما تكون مزعجة وكثيراً ما تبدو أنانية في ضكيرها.. لكن ألم ضكري أن هذا ربما يكون سببه هو معاملتك القاسية لها.

بدأ حزنها جلياً وهي تقول لي:

- اصمعي يا «نفرو».. اصمعي يا ابنتي.. أنتِ صغيرة لا تفهمين شيئاً.

- كما تشائين.. لكنني فقط كنت أطلب منك ألا تحرمي ابنتك من سعادته مثل التي عشقتها مع أبي.. وأنت تعلمين كل العلم أن ذلك لن يكون مع لطيف القلب هذا.

.. ولئن ترك الحكم ؟ لقد كبر «تحتمس» .. وفي غضون عام سوف يحكم
ببلاد وحده .. وإن لم تكوئي إلى جواره فسوف يعم العرش لنفسه.
.. وما في ذلك ؟ أليس هو ابن الملك ؟

.. به الكثير .. ألم أقل لك أنت لا تهمين شيئاً .. إن حدث ذلك واستقل
بهرش سوف وحده سوف يأخذ البلاد إلى حروب طويلة لا تنتهي .. وهذا
ما أخاف على البلاد منه ..

.. وما الغريب في ذلك ؟ «تحتمس» وإن كنت لا أظفقه إلا أنه سيكون
ثقلاً قوياً .. فهو الآن محارب بارع ويعلم الجميع ذلك .. وإن استقل بالبلاد في
الحكم سيكون ملكاً قوياً ..

.. هذا غير حقيقي .. إن أصبح ملكاً قوياً سيكون هذا بفضل حكمي
وحسن تدويري .. وأنا أخشى أن يأتي ليضيع كل هذا في حروب لا تحتاجها ..
كما أنه ليس من دم ملكي صافٍ ولا بد له من الزواج من ابنة الملك حتى
يسمح له الكهنة بتولي الحكم ويدبرون بالولاة لحكمه.
قلت في ضيق:

.. الدم الملكي .. الدم الملكي .. فليتزوج من «ميريت» إذا ما دام الأمر بطك
السفاهة.

فردت أمي في سرعة:

.. لا .. هذا لن يكون أبداً .. كما أن أختك لا تزال طفلة .. وهو لن ينتظر
كل هذا الوقت ..

ثم بقينا في صمتٍ طويلٍ وقد انتهى الكلام إلى غير نتيجة قالت بعدها أمي
في سرود:
لا بد أن يجد حلًّا قبل أن يأخذ الأمر مأخذ النزاع.. لا أريد صراعاً
بين أبناء عائلتي.

وعادت إلى الكرسي وأتت بجسدها عليه في همٍّ وأشارت إلي أن أذهب
فانطلقت حزينة إلى غرفتي.

بعد أسبوعٍ كنت في غرفتي أبصت من نافذتها عن «حور» كي أسرناظري
به لكنني لم أستطع أن أجده في البستان.. وكان القصر كله في حالة تأهب
شديدة استعداداً لإرسال البعثة التجارية إلى «يونت» وما كدّر هذا التأهب
والحاس إلا ما علم به «تحتس» من رفضي للزواج منه. وأخبرني «ستسوت»
أن أمي سريت خبر رفضي الزواج من تحتس إلى كهنة المعبد.. وكانت
تحاول أن تدرس ردة فعلهم بعد خير كهذا.. وإرباكهم بذلك وسط اقتنائهم
بشأن الرحلة الكبيرة المنتظرة إلى يونت.

جاءني إفطار لم أطلبه في الصباح.. وضعه أمامي أحد الجنود المكثفين
بحراسة الغرفة.. وقبل أن يذهب، أخبرني أن أمي المالكة هي من أمرت
بذلك.. وعندما همّ بالانصراف اندفع «حور» فجأة إلى داخل الغرفة منجأواً
الضابط والحارس الآخر الذي أمسك به في عنقبٍ قبل أن يصل إلي.. وكنت
بمسكة بكأسٍ من الحليب الدافئ وأهم أن أحاوله.. عندما صاح «حور» مفاجئاً
الجميع:

احترسي يا مولاتي إنه كأسٌ مسموم.

نظرت إليه غير مصدقة أن هذا الصوت كان خارجاً من فيه، وأنه مثلنا
يستطيع أن يتكلم، وأفلت بصعوبة من بين ذراحي الحارس ودخل إلى الغرفة
هدلج الكأس من بين يدي.. وحاول الحارسين والضابط أن يحاصروه وأخذت
أنا في الصراخ منادية على أمي وعلى «ميريت».. وعندما لم يجد «حور» أي
مهرب، قفز من شرفة الغرفة العالية إلى حديقة القصر.



(٧)

يحيى

انتهت قراءة البرديات للمرة الثانية بعد ترجمتها، وأخذت ألقها بين يدي غير مصدق أنها انتهت عند هذا الحد، وغير مصدق لما هو كائن بين يدي من أسرار لم يقرأها أحد غيري حسب ما أعرف وما وصلني من دراستي للتاريخ.

أحفظت هذه البرديات الأميرة «نفرو» بع «بنفسها» تلك الأميرة التي اختفت تمامًا من صفحات التاريخ بعد أن تولى الملك المحارب «نختمس الثالث» الحكم خلفًا لختنشموت زوجة أبيه.. ولم ترد أي مصادر لتوضح مصير بنات الملكة بعد رحيلها.

بقيت راقفًا على حالي متوترًا كذليل عقرب متحفز من عقارب المكان المنتشرة في الكامب.. وكانت ساعات النهار الأولى قد حلت ومر الليل كله علي في ترجمة البرديات حتى إنني لم أشعر بالليل وهدر بصر من حول الغرفة.. وصرت أفكر ما الذي يجعل الأميرة «نفرو» بع «تأون هذا الجزء فقط من سيرتها.. وبدأ فضولي البحثي بأكلني حتى صرت ألقف في الغرفة كالمجذوب.. وأخذت أسأل نفسي كيف ومن أين لي اسمينا أن تأقي ببرديات أثرية خطيرة وهامة كهذه؟!

إنكون قد جاءت بها من إحدى العائلات الأوروبية المتخصصة في سرقة واقتناء الآثار من مصر منذ العهد القديم؟ عندما كان الأجانب يدخلون ويخرجون بالقطع الأثرية من مصر على مرأى ومسمع من العالم كله.. ورأس الملكة «نفرتيتي» في برلين خير شاهد على تلك المرافعات المشينة لسرقة شواهد ذلك التاريخ العظيم.

لكنني عدت لأقول إنه حتى لو كانت باسمينا قد أنت بها من بلادها.. فكيف لها أن تدخل وتخرج بها من المطارات؟ هذا ليس بالأمر السهل.. لكنه ربما يكون ممكناً وأنا الذي لا أعلم.. كما أن هذه البرديات لو كانت موجودة من قبل فلا بُد وأن أكون قد سمعت عنها بأية صورة.. ولو بمجرد سماع من الممكن سرقة وإخفاء البرديات. لكن حكاياتها وأسرارها مستحيل إخفاؤه. فهم اكتشاف في حد ذاته يساري ثروات.

أخذني التفكير في البرديات كثيراً وبعد تفكير طويل وجدت أن كل الطرق لا بُد وأن تؤدي إلى باسمينا في النهاية.

ترددت كثيراً وأنا أفكر في الاتصال بها.. لكنني أيضاً قلت مبرراً الاتصال لنفسي أنني لن أصل إلى أي شيء دونها.. لا بُد من سؤاها عن البرديات.. هي وحدها من تملك الإجابة.. ثم عدت لأقول أنه يمكنني أن أسأل البرديات إلى المتحف المصري.. ويتولى هو مسؤولية البحث عن المصدر.. وعن بقية الرسائل إن وجدت، خاصة وأن مقبرة الأميرة نفرو-رع التي اكتشفت في وادي الملوك كانت فارغة.. مثلها كمثل معظم مقابر الملوك والأسر الحاكمة في العصور القديمة. نبذت فوراً فكرة تسليم البرديات مباشرة إلى المتحف هكذا.. فأنا لست بمواطن عام وجد أثراً لا يفقه معناه وقرر أن يسلمه..

أنا أثري مصري.. وقد جاءت هذه البرديات إلى يدي لسبب لا يُد
أن أعرفه.. ونظرت إلى انعكاس واضح لوجهي في المرأة وسألت: هل
أتحجج بذلك للاتصال بياسمينًا ومحاولة رؤيتها مرة أخرى؟ وطردت
السؤال من رأسي مباشرة.. وقد كان وجه زينب معي في نفس المرأة..
وكان ساكنًا على غير عادتها.. وأخذت أنظر إليها في صمتٍ متطوِّراً لي
إشارة أعتدي بها وعلى أثرها أقوم بالتصرف السليم.. لكنها ظلت
ساكنة وكأنها تحملني مسؤولية كاملة لما قد أفعله.

في النهاية حسمت أمري، وقمت بالاتصال بياسمينًا.. وردت هي
بسرعة شديدة إلا أن صوتها جاء حزينًا.. لكن فيه فضول وقالت:

- هل قرأت ما في البرديات؟

- من أين أتيت بهذه البرديات الملكية ومن أعطاها لك.. هذه
البرديات أصلية.. ألا تفهمين؟ مر عليها أكثر من ثلاثة آلاف عام..
كيف وصلت إليك؟

ردت في تعجب من قولي:

- برديات ملكية؟؟ هذا غريب.. سأخبرك بكل ما تريد لكن هذه
حكاية طويلة.

ترددت وأنا ممسك بالهاتف واستدرت ناظرًا إلى المرأة خلفي
وكانت الشمس قد أشرقت على الكامب وبدى النور الشديد من
الخارج حول الغرفة واضحًا.. قلت في النهاية:

- سأنتظرك إذاً.

- سأغرك فورًا.

وأنيبت المكالمة.. ولم أعرف لم انتابني حالة من البهجة فور إنهابي
المكالمة.. هل هي البرديات؟ أم أنها ياسمين؟

وبقيت أنتظرهما وأنا أفكر مرارا في البرديات حتى سمعت صوت
السيارة أمام باب الغرفة فأسرعت لأفتح.. ووجدتها أمامي وكانت
عينها متفحختين كعيني باديا عليهما السهر.. وتأكدت أنها لم تنم ليلتها
مثل.. ولمحت عمارف في نهاية الطريق ينظر إلينا بفضول شديد.. ولم
أشر إليه بآية نحية ودعوت ياسمين إلى داخل الغرفة ثم أغلقت الباب
خلفها.

(٨)

ياسمينا

عزيزتي بيلا:

كانت الليلة حلماً جميلاً يا حبيبتى.. لكنها سريعاً ما تحولت إلى كابوس مزعج مثله مثل حياتي كلها.. لقد تعبتي يا أمي.. تعبتي من معاناة الحياة لي بهذا الشكل المرهق.. واستنزفتني سوء حظي الليلة لأبعد الحدود حتى كدت أباأس بعد أن أحياني بحبى وزرع الأمل داخلي بأن يكون لي حياة طبيعية.

ذهبت الليلة سوياً يا بيلا الحبيبة إلى عرس مبهج في قرية نائية بعيدة وسط الجبال.. قرية جميلة وبسيطة بعيدة عن ضوضاء المدينة القاتلة.

في العرس تزينت مع النسوة.. من أجل يحبى فقط وتعبت أن يراي جميلة.. وأحست بذلك عندما رأيته ينظر إليّ في حب وغزل.. فأبقت داخلي كل ما مات منذ سنين.. أو هكذا كنت ظننت.. وانطلقنا لرقص سوياً وكنا نرقص يا بيلا وكأننا نحن العروسين.. وكان العرس في القرية قد أعدّ لنا لا لغيرنا.. وكان يحبى بمسك يدي وكأنني حبيته التي يعشقها.. وكنت أدوب أمامه كلما نظر في عيني وأنا أدور حوله وأكاد أحلق كالطير من نشوة الرقص.. وبعد أن عشنا

إلى الاستوديو وصرنا وحدنا أخيرًا أخذت أفكر فيه يا أمي وأثناء
نفسي

سألت نفسي يا بيلا لماذا لا أكون مثل باقي الفتيات أعشق أحدهم
ويعشقني هو الآخر؟ لماذا كُتِب عليّ هذا السفر الطويل وتلك الوحدة
للهلكة؟ ولماذا منحني الله هذا الجمال وتلك المشاعر ثم حرمت من
الاستمتاع بها مع رجلٍ أحبه؟ خاصة بعد أن انتهت أمر ذلك التزيف
وأحسست أن تلك اللعنة قد غادرتني بعد أن عرفت بحبي.. ورغم
أنني لم أجده لذلك سببًا إلا أنني وجدتني قد أحبته حقًا.

نعم يا بيلا.. الآن أعترف لك دون أن أخفي عليك ذلك.. لقد
أحببت بحبي منذ رأيته للمرة الأولى في البازار.. وأحبته دماغي قبل أن
يحب قلبي.. ولا أريد أن أعرف السبب.. كل ما أريده الآن هو بحبي
قط.. وقد أضعته بفجائي يا بيلا.

نيت الكتيب التي كنت أحاول أن أفهم منها ما كُتِب في تلك
اللقائف الملعونة. والتي أخبرني زين أن يحبي هو من سيساعدني
على فهم أسرارها وما كانت تسمى إليه جديتي روز. لكنني في
النهاية لم أصل لشيء.. وها هو يحبي أيضًا قد رحل.. مثله مثل
جديتي.. ومثلك.

عدتُ إلى وحدتي من جديد يا أمي.. لكنني لا أحتمل أن يتركني
وهو بظن أنني كنت أخدعه تلك الأشهر السابقة.. سوف أذهب إليه
الآن.. فانا لا أستطيع أن أجلس وحدي هكذا وأتركه ليظن بي الظنون.
سأعطيني يا بيلا.. سوف أخذه إليه اللقائف. وأتركها بين يديه..
عساه يصدق أنني لم أكن أنوي به غدًا.. وربما استطاع أن يحبيب
عن السؤال الذي كانت تسمى إليه روز طيلة هذه السنوات..

أو على الأقل.. عسى أن أراه مرة أخيرة قبل أن أعود من جديد إلى
وحدتي القاتلة.. ادعوا الله أن يكون زين صادقاً فيها قال. وآلا يجيب
يجيب ظني فيه.

أحبك يا بيلا.. أحبك وأنتفدك وأحتاجك كثيراً الآن

أبتك المخلصة والوحيدة.. ياسمين!



لم أحتمل نظرات يحيى إليَّ عندما ذهبته إليه وتركت له اللقائف..
كنت أفكر طوال الطريق أن ألقى بنفسي بين ذراعيه.. وأحكي له
كل شيء.. أحكي له عن أنطوان وعن اختفاء روز، وعن موت بيلا،
وعن فيليب، وعن نزيقي الطويل الذي لم ينته إلا على يديه.

إلا أن نظرتني في أمام غرفته ألقت بكل أحلامي أرضاً.. وزرعت
مكانها يوماً وإحباطاً قاتلين.. ولم أستطع أن أقبل له أي شيء. تركت
اللقائف بين يديه ورحلت. وأخذت أبكي طوال الطريق من الكاب
إلى الاستديو. وعندما عدت إلى غرفتي وكانت أنوارها مغلقة ندمت
على تركها كذلك قبل رحيلي وانتويت أن أعود إلى طقوس الوحدة
من جديد. وقضيت ليلتي أفكر فيه. وسألت نفسي في خوف شديد:
هل أكون قد فقدته ببائسي؟

طوال الفترة التي عرفت فيها يحيى أدركت من كلامه القليل
انعدام ثقته بالآخرين إلى حد كبير.. ثم جئت أنا وبمتهى الغباء
لأؤكد له شكوكه وأفقد ثقته إلى الأبد.

لكنني لم يكن لدي اختيار.. ما الذي كان يجب عليَّ أن أفعله؟
لقد ذهبته إليه كما طلب مني زين.. ولو كنت أخبرته بذلك من
البلدية لما كنت استطعت أن أقرب إليه هكذا.. وكان انجذاباً إلي

من البداية أقوي بكثير من فضولي وهفتي لمعرفة سر هذه اللغائف
وما كتب فيها.

كنت أرى الحب الصادق في عينيه الليلة في الجبل ونحن نرقص
سويًا.. ربما للمرة الأولى في حياتي.. وللمرة الأولى أيضًا أشعر بكل
هذا القدر من الانجذاب والأمان معًا في نفس الوقت تجاه رجل..
رجل كان ياملني دون أي طمع في شيء.. دون رغبة واضحة أو كرامة
في استغلامي. كان كل ما يطلبه هو الرفقة فقط. وكانت كل ما أحناه
في البداية. لكنها الآن لم تعد تكفي.. أردته لي كاملًا.. فضاع مني
وضاعت صحبته.

الآن أعود إلى الليالي الحزينة المليئة بالوحدة.. لأكمل رحلتي في
هذه الدنيا حتى أموت دون أحد جواربي.

أخذت الساعات تمر عليّ وتأكّل في روحي بنهم وشراسة، وجاء
نور الصباح وأنا ما زلت بقطة أندب حظي ولعنتي التي لعنت
بها ولم أعرف لها سببًا.. حتى جاء اتصال يجي لي بعيد لي الأمل من
جديد.. قال أشياء غريبة لم أفهمها عن برديات ملكية وكان قليل
الكلام ولم أفهم معظم ما قاله.. ولم يكن يمني شيء مم يقول.. كنت
نقط أود أن أعرف ما علاقة هذا كله بي.. وما كان يمني أكثر أنه
انصل في النهاية.. وكان هذا يكفيني. وذهبت إليه بعد اتصاله مباشرة.
فمور أن دخلت إلى غرفة يجي بالكامب وجدت وجهًا مرهقًا وقد
بدا عليه السهر.. وعلمت أنه لم ينام ليلته أيضًا.. وبدأ لي أن عينيه
كأنها دامعين وليس مجرد إرهاق.

تفحصت غرفته بعيني ولم أكن قد دخلتها من قبل.. فالمرات
القليلة التي كنت أقابله فيها أمامها عندما نكون سويًا في الكامب

كان دائماً ما يطلب أن أنتظره في كافيتيريا وادي حبيبة.. وكنت أشعر أنه يعتمد إيمادي عنها قدر المستطاع.

كانت غرفته صغيرة لا أثاث فيها تقريباً سوى مقعد صغير أمام طاولة خشبية يبدو عليها القدم.. وعليها عدد كبير من أقداح القهوة القديمة.. وعدد من علب السجائر الفارغة.. وعلى المنضدة كانت اللغائف مرصوفة في عناية شديدة وجوارها أوراق أخرى مبعثرة بدت لي أنها ما كانت يعمل فيها على الترجمة.

جلس يحس على الفرائش قبالي تاركاً الكرسي الوحيد كي اجلس عليه، ومألني في لهجة جافة ولم يكن ينظر إليّ:

- احكي لي.. كيف وصلتك هذه البرديات؟

أفلقتني لهجته الجافة رغم توقعي لها، لكنني كنت قد جتته في حين فخرج صوتي مهزوماً وقلت:

- لم نصلي.. إنما أنا التي سمعت إليها.

- لا أفهم.

- الأمر كله كان غريباً من بدايته.. لكن أخبرني أولاً ما الذي وجدته في هذه البرديات وجعلك تتنازل هكذا وتتصل بي؟ ظننت أنك سوف تبلغ عني شرطة الآثار..

- ما زال هذا الاحتمال قائماً.. عندما أعلم كل شيء سوف أحسم هذا الأمر.

- لهذه الدرجة!

- أكره الكاذبين يا ياسمين.. وقد أخبرتك بذلك منذ التقينا.

أهانني رده، فقلت في حدة:

- وأنا لم أكذب عليك يا يحيى.

- هم تفسرين هذه البرديات إذًا؟

- لم أكذب عليك في ذلك.. لقد أخفيت الأمر عنك فقط.

قال في سخرية:

- يختلف الأمر.. حسنًا، وهل كنتِ صادقة عندما قلتِ إنك هنا

في إجازة؟ أم إنك أخفيت هذا الأمر أيضًا؟!

نظرت إليه في لوم شديد وقد ألمني ما ينهمني به ولم أجد لسوالة رفاً فقد كان صائباً في كذبي عليه بشأن السبب الحقيقي لوجودي في الغردقة.. فقلت له:

- السبب الحقيقي لوجودي هنا كان أنت.. ولم يكن في استطاعتي أن أخبرك بهذا منذ البداية وقبل أن أعرفك جيداً.

ودّ في تعجب:

- أنا؟ وما شأني بك؟

- سوف أخبرك.. لكن قل لي أرجوك ما الذي تحتويه هذه البرديات؟ لقد أخبرتك أن جدي روز مانت وهي تحاول أن تفهمها. نظر إليّ يحيى طويلاً وكان كالعادة يمرر كلامي على جهاز كشف الكذب الكامن في رأسه.. ولما تأكد من صدق قولي نهض مثاقلاً، وتناول إحدى البرديات من فوق الطاولة التي كانت أمامي بعد أن أخرجها بحرصي شديد وكأنه يقوم بعملية جراحية.. ثم فرد البردية بلطف شديد فوق الطاولة وأشار إلى مربع مزين داخله أحد الرموز التي قضيت ساعات طويلة في محاولة ترجمتها ولم أستطع وقال وهو يشير لي بمجموعة من النقوش:

- انظري هذه الكلمة «نفرو- رع» وتعني جميلة الإله رع، إلى
قرص الشمس المعبود عند المصريين القدماء.. وهذا المستطيل المطرز
هو الخرطوش الملكي لصاحبة البردية.

أعجبتني طريقته وهو يشرح لي في سهولة ما كان بارعاً فيه..
وتملكني فضول نحو ما يقول حتى كدت أنسى حدثه السابق في
طريقة كلامه وسألت:

- ومن «نفرو- رع» هذه؟

- «نفرو- رع» هي الابنة الكبرى للملكة «حتشبسوت».. أهم ملكة
في التاريخ المصري القديم، وفترة حكمها هي الفترة الأكثر طولاً في
فترات حكم النساء في تاريخ مصر القديمة كله.

- وما هي قصة «نفرو- رع» هذه؟

عاد يحكي لي يجلس على فراشه في تفكير قائلاً:

- لا أحد يعلم إلى الآن.. هذه الأميرة كان من المفترض أنها ورثة
أمها الملكة «حتشبسوت» في ملك مصر.. كانت الابنة الكبرى ومن
دماء ملكية خالصة لأبيها «تحتمس الثاني».. ومن المفترض أنها هي
من شاركت الحكم مع أخيها «تحتمس الثالث»، وكان أنجها لأبيها من
إحدى محظيات والدها.. لكنها اختفت من كل النقوش والبرديات
فجأة وهي بعمر السادسة عشر.. وكانت مقبرتها خالية كمعظم مقابر
الملوك التي نُهِبَت في عصور كثيرة لاحقة.. حتى تمثالها لا يوجد لها
أي أثر تقريباً.. لا يوجد لها سوى تماثيل وهي طفلة مع مربيها وزير
قصر آتون المعلم والمهندس المعماري «سنتموت».

بدأ الفضول يتنامى في داخلي بينما كان يحكي مندمج غمماً وهو
يحكي لي وكأنه يلقي محاضرة لمجموعة من الطلبة.. فسألت:

.. وماذا حدث لها بعد ذلك؟

.. قلت لك.. لا أحد يعلم.. اختفت من صفحات التاريخ..
بخرت مثل الماء.. ومن المفترض أن نقول هذه البرديات ما حدث.
.. وهل قالت شيئاً؟

.. قالت الكثير.. لكنني لن أخبرك بأي شيء قبل أن أعرف الآن
كيف وصلت هذه البرديات إلى يديك.. أنت لا تدركين قيمة هذه
البرديات.. قد ينقلب التاريخ بعد معرفة ما فيها.
تهددت طويلاً ونظرت إليه ثم قلت في صبر:
.. سأخبرك بكل شيء..



قال لي «زين» ونحن على متن القطار المتجه إلى الأقصر:

.. لم نحك لي روز هانم بالتفصيل نص الرسالة التي بعثتها إليها
أختها الدكتورة تريز رحمة الله.. كل ما فهمته منها أنها كانتا على
تواصل طوال سفر جدتك. وأن أختها الدكتورة «تريز» ترجت
قصاصة ما وطلبت منها الذهاب إلى مكان في بالأقصر.. وعادت
جدتك بعد وفاة الدكتورة مباشرة. وكنت خادماً للدكتور «تريز» منذ
جئت إلى الإسكندرية هرباً من شأٍ قديم.. وقد كان لها فضل كبير
عليّ حيث أوتيت ووفرت لي عملاً في «فيلا» أنطوان باشا.. وأوصني
على جدتك قبل أن تموت.. وطلبت مني أن أنتظرها لأنها ستأتي عما
قريب.. وكانت متأكدة أنها سرف تعود.. رغم أنني منذ عملت في
الفيلا لم أسمع عن روز هانم إلا القليل.. وبعد أن جاءت من اليونان
وقضت بعض الأيام في غرفة الدكتورة تريز تفتش فيها، أخبرتني أنها

متسافر إلى الأقصر.. وسألني أن أذهب معها فوافقت على الفور..
رغم علمي بخطورة ذلك على حياتي.. وكان موضوع الثأر هذا
يبرد بعد.

نظرت إلى وجه زين العجوز أنفحصه في فضولي بالغ وهو يحكي
وكان يذكر كل شيء وكأنه كان بالأمس فقط وسألت:

- ظننت أن موضوع الثأر هذا مقتصر على الصعيد ولبس للنون
علاقة به.

فابتسم في طيبة وظهرت أسنانه النخرة وقد بدت عليها آثار
التدخين الطويل، وقال:

- الثأر موجود في كل مكان في مصر.. وموضوع التوبة هذا كان
كذبة اخترعتها لكي أجد أي عمل عندما هربت من قنابل سين
طويلة.

- أتعني أنك لست نوبياً؟

- لا يا مت ياسمين.. أنا قناوي من قوص.. أعني كنت..
ساعهم الله.

ثم صمت طويلاً وبدأ أسى يغزو وجهه بعد أن كان ينهم منذ
دقيقة واحدة فسأله أن يكمل فتابع:

- وصلنا بعد ليلة سفر طويلة إلى الأقصر.. وكان السفر شاقاً تلك
الأيام ليس بسيراً مثل الآن.. كنت قد تجاوزت الثامنة عشرة بقليل،
وكانت روزهانم في ترقب وقلق طوال الوقت.. كنا في شهر مارس..
ولم يكن قلقي من المجهول الذي أذهب إليه مع جدتك تغلباً
للوصية.. لكنني كنت خائفاً من منظرنا الملفت لكل من يراه..

وتبين أن عودتي من الأقصر سالماً لن تكون سهلة لكنني لم أستطع
في أدها تذهب وحدها في سفرها هذا.. وعندما وصلنا أقامت في
بسيون صغير جوار محطة القطار.. وكانت الوقت عصراً.. ووضعنا
خالبنا في غرفتنا ثم توجهنا مباشرة إلى البر الغربي لليل.. وذهبت
جدتك إلى أحد المعابد وأخذت تسأل أحد المرشدين بعض الأسئلة
ثم توجهت إلى إحدى الواجهات الشرقية للمعبد، وكانت ممسكة
حبة لم تركها من يدها منذ نحر كنا.. ففهمت أن هذا هو المكان
الذي طلبت منها الذكورة ترمز أن تذهب إليه.

فلت على حالها هذه حتى حل الغروب.. ولم يحدث شيء ثم عدنا
إلى البانيون.. وفي نهار اليوم التالي ذهبنا إلى نفس المكان.. وظلت واقفة
مكانها لا تتركه.. وأحضرت لها مقعداً صغيراً عندما فهمت منها أن
الانتظار سوف يطول.. وبقينا على نفس الحال إلى نهاية اليوم.. وفي
اليوم الخامس جاءها أحد الرجال ووقف معها لدقائق قليلة وكانا
بهماسان فلم أسمع منهما أي شيء.. لكن جدتك بعدها طلبت مني
أن أذهب معها إلى «نجع الحسينات».. ولم يكن لي أن أرفض لها أمراً..
فعبنا النيل عائدين إلى ضفته الشرفية.. وبعد ساعة كنا في بيت «آل
عواد».. وجلست أنا في صحن الدار مع مسعود الابن الكبير لهم..
بينما بقيت جدتك مع الشيخ عواد الكبير.. وظلنا سويًا لمدة ساعة
خرجت جدتك بعدها وتحركت أنا وهي ومسعود إلى مدافن البلدة..
وغاب مسعود بالداخل لفترة كبيرة حتى كانت الشمس قد قاربت
الغيب ثم عاد بلفافة مطوية ناولها للسيدة روز ووقفنا يتكلمان لفترة
ثم عدنا إلى البانيون.. وقبل أن تصعد إلى غرفتنا أعطتني خطاباً
وطلبت أن أرسله إلى ابنتها في اليونان إذا حدث لها أي مكروه..

وكان وجهها تعبًا ولا يطمئن.. ثم أخبرتني أننا مستوجه إلى سفر آخر بعد يومين.

فسألت زين :

- سفر آخر.. إلى أين؟

- هذا ما لم أعرفه من جدتك أبدًا.

- ماذا تقصد؟

- في اليوم التالي انتظرت أن تناديني لكنها لم تفعل.. انتظرت كثيرًا ثم بدأ قلقي عليها يزيد.. ولم أعرف ماذا أفعل.. وبعد أن طال انتظاري تحجرات ودخلت غرفتها.. فوجدتها غارقة في دماثها وقد فارقت الحياة.. فارتعيت ولم أدري ماذا أفعل.. وكانت اللقائف معها جوار فراشها.. وعندما رايتها عرفت أنها أثير لشيء ما لكنني لم أفهمه.. ولم يكن من أحد أعرفه قد يساعدني في تلك الورطة سوى آل عواد.. فذهبت إليهم مستغيثًا.. ولما علموا وجدتهم وكأنهم لم يفاجئهم الأمر في شيء.. جاء معي مسعود وكان معه رجلان آخران واستأجرا غرف في نفس اليناسيون. ودخلا إلى المكان بحقيبة كبيرة فيها ملأمة ضخمة وطلبنا مني أن أنتظرهما في موقف المحطة بعيدًا عن اليناسيون.. وفي نهاية اليوم جاءني مسعود وأخبرني أنهم أخرجوها هي واللقائف كلها التي كانت معها من الغرفة.. وقال أنها الآن مسئوليتهم وحدهم.. وطلب مني أن أعود حيث جئت.. وقال إن يومًا ما سوف تأتي أيتها لتأخذ الأمانة.. ولم أفهم ما الذي كان يقصده بتلك الأمانة وقتها.. أهى اللقائف أم كان يقصد جدتك نفسها؟. وذهبت إلى محطة القطار وكلي رعب مما ينتظرني وما سوف أجده في فيلا أنطوان من نازلات

حول مصير ابنتهم وما حدث لها... وقبل ذهابي إلى الفيلا قمت
بتنفيذ الوصية الأخيرة التي طلبتها مني جدتك في البانسيون ليلة
رحيلها.

فهمت بالطبع ما يعنيه وقلت:

- قمت بإرسال الخطاب إلى أمي بيلا في اليونان.

- للأسف.. وكان دليل براءتي الوحيد لدى أهل جدتك.. كان
الدليل الوحيد؛ فقد كان مكتوبًا بخط يدها.. ولا أعلم لم تأخر هذا
الدليل كل هذه السنوات؟ وعندما عاد للظهور كنت هاريًا مشردًا
بين تهمة بالقتل وثأر قديم.

تذكرت ما حدث بين بيلا وأبي منذ خمسة وعشرين عامًا.. وقلت
لزين:

- لم تسلم أمي الخطاب بيدها للأسف.. وإنما تسلمه جدي فيليب
ولم يعطه لها إلا عند وفاته.. قالت لي أمي إنه لم يصدق ما كان فيه
وعندما سافر بنفسه إلى الإسكندرية شُيِّت مشجرة بينه وبين خالها
أنطوان.. وكنت أنت قد اختفيت وقتها ولم يستطع جدي أن يصل
إليك.

- وماذا كان يوجد في هذا الخطاب؟

- كانت جدي تطلب من أمي أن تذهب معك إلى حيث نحن
ناهيان الآن.

- ولماذا منع عنها جدك - سامحه الله - هذا الخطاب وأخفاء
كل هذه السنوات؟ لقد عشت هاريًا لسنتين طويلة بسببه.. بعد
أن هددي أنطوان باشا بالزج بي في السجن إن لم أقبل له الحقيقة..

ولم يصدق أي من كلامي فعشت هاربا في النهاية.. وكل ذنبي انسي
حافظت على وعدي لجذتك وللدكتورة تريز.

- لا ذنب لك.. خاف جدي على أمي أن تلقى نفس مصير جيني
وتحتفي هي الأخرى إن عادت إلى مصر.. كان يقول لأمي إنه غشوا
استطاع أن يحرق هذا الخطاب لولا أنه كان آخر خطاب من روز كتب
بخط يدها.. وكان يشعر بتأنيب ضمير شديد تجاهها.

- ولماذا قرر فجأة أن يعطيها الخطاب بعد أن كان قد مرَّ على ذلك
سنين طويلة؟

- لم يقرر فجأة.. كان يحتضر، ولا بد أنه أحس عندها بالذنب
فأعطاه لها. لقد انفصلت أمي عن أبي سنين طويلة بسبب قرارها
العودة إلى مصر كما طلبت جدي.. لكننا لم نجدك وقتها.

- لا أراك الله أياما مثل التي عشتها.. لقد كنت أبيت كل ليلة
منتظرا القبض علي في غبشي.. ولم أستطع العودة لغرقتي إلا بعد أن
مرت كل هذه السنوات.. وكان أنطوان باشا سمح الله قد رحل هو
أيضا.. ووجدت رسالة أمك إلي داخل الغرفة.. وعدت إلى حيائي
القديمة أخدم في أحد البيوت حتى صرت شيخا عجوزا.. ولم أنجب
أن تأتي أنت بعد كل هذه السنوات.

قلت له وأنا شاردة في الطريق أمامي:

- ولا أنا يا زين كنت أنجيل كل هذا الشقاء الذي لاقته جينا
وكل هذا الغموض الذي دفعت ثمنه أنت.

- أدعو الله أن نجد الإجابة هذه المرة.

- لبت هذا يحدث يا زين.. لبت يحدث.. أنت لا تتخيل كم أنسى

لأنهم عرفوا ما الذي جعل جدي تفعل كل هذا وفي النهاية لم تصل إلى
إجابة.

وكنتم أتذكرون جدي أممي الملقى على الفراش وهي غارقة في دمايتها
مثلها مثل جدي روز كما حكى لي زين منذ قليل.. ودعوت الله في
سري أن نجد الإجابة في الأقصر كما قال زين.

نزلت في فندق صغير في شارع رئيسي بالأقصر ورفض
زين أن أحجز له في الفندق، وقال إنه لن يجرب راحة أو نومًا قبل أن
يذهب إلى بيت «آل عواد» ويجده.. وقد مر سنوات كثيرة لم يعد يذكر
عندما ذهب إليه للمرة الأولى.

اخشى زين ليومين كاملين وتركني في ترقب وقلق شديد..
عاد بعدهما مشرق الوجه وأخبرني أنه وجد المنزل وقال إن الحاج
مسعود يتظرني في منزله مع ابنه الوحيد.. وقد صار مسعود شيخًا
كبيرًا لا يتحرك.

رغم فضولي الشديد ورغبتني في معرفة السر وراء كل هذا الشقاء،
إلا أنني كنت في شدة الخوف عندما ذهبت مع زين إلى نجع الحسينات
حيث بيت الحاج مسعود هذا.

كانت بلدة فقيرة رغم ازدهارها، وبدأ أنها لم تعش على وجود
الغريب فيها، على عكس الأقصر التي تعج بالآلاف من الغرباء
يوميًا.. وكان الناس ينظرون إليّ في فضولٍ زاد من خوفي.. وعندما
دخلنا على الحاج مسعود هذا وكان عجوزًا قارب منه السبعين عامًا
أرسلني.. وكان يتكلم في صعوبة، ثوى عمار ابنه الوحيد التواصل
بيننا وبينه.. وبعد عديد كبير من الأسئلة عني وعن روز، وعن نص
الخطاب الذي أرسلته روز إلى بيلا منذ سنوات قال لي الحاج مسعود

إنه هو الذي طلب من روز أن ترسل هذا الخطاب إلى بيلا تلك الليلة، ولما سأله عن السبب قال:

- نحن لا نملك إجابات لا نعرفها.. مهمتنا فقط هي توصيل الأمانة إلى أهلها.

وفشلتُ تمامًا أن أنتزع منه أية معلومة تفيدني، وكان سنه الكبير وثقل لسانه في الكلام ما زادنا الموضوع مشقة وصعوبة.. وبعد أن انتهت كلامنا، قال لولده عمار أن يسلمني الأمانة ثم تحرك بعدما مباشرة.. وطلب مني أن أبعث بعنوانه إلى أكبر بناتي، ولما أخبرته أنني لم أنجب لأنني لم أتزوج، غمر صوته إحباط شديد. وقال لي إن يجب أن أتحرك بسرعة، وازداد خوفي وعاد مشهد أمي بيلا في فراشها إلى ذهني وأصابتنى شفقة على نفسي لفرط وحدتي وأنا أتحرك وسط كل هذا الغموض دون أن يوجد شخص واحد معي أعرفه وأثق فيه.. وطلب عمار أن نتظر حتى الليل كي لا نلفت انتباه أحد في تحركاتنا.. وعندما جاء الليل خرجت مع زين وعمار إلى مقابر القرية.. وبدأ خوفي يزداد وامتلا قلبي رعباً.. وكان عمار رقيقاً في تعامله معي، ولولا وجود زين ما كنت ذهبت معه إلى أي مكان.. وعند المقابر كان الظلام الخالك يزيد المشهد رعباً وقلقاً.

جاء رجل طويل نحيف الهيئة إلى حيث كنا مع عمار وفي يده طوقٌ حديديٌّ به عدد كبير من المفاتيح الصدئة.. وقام بفتح إحدى البوابات وسط المقابر، وعلى ضوء مصباح زيتي خافت لمحتُ شاعلاً للقبر الذي وقفنا أمامه.. وفتح الرجل باباً حديدياً صدقاً، وطلب مني أن أدخل معه فرفضت في حزم وتراجعت خطواتي إلى الوراء.

عنية في زين العجوز، وقد أدركت أنني قد تماديت في الذهاب
مهم وحدي هكذا. وقال عمار: أعطها الأمانة لا تريد منها إزعاجاً.
ثم نظر إلي وقال في خبث ووقاحة:

.. إن تلفي نظرة وداع على المرحومة.

وضحك في خبث وودت لو أسبه لكن منعني خوفي بالطبع..
وبهر الرجل الآخر ودخل إلى المقبرة، ثم غاب لدقائق قليلة عاد
بعداً باللفائف، وكانت مربة باديها عليها الإهمال.. ونظر إليها عمار
في حيرة وقال:

- ما منعني عنكم سوى الحاج سامحه الله.. هذه تساوي ثروة الآن.

وأخذت اللفائف وطلبت من زين أن تتحرك فوراً فقال عمار:

- إلى أين؟ لم يتنه الأمر بعد..

فألت في غلظة:

- ماذا بعد؟ أليست هذه الأمانة؟

فقال:

- ليست كلها.. تنقصك الإجابة.. مازال لدينا لدينا سفر آخر.

- سفر؟ إلى أين؟

- إلى الغردقة.. هذه وحدها لن تنفعك بشيء.

ولم أكن أعرف ما الذي تحتويه تلك اللفائف.. فقلت وأنا المتحرك
مع زين:

- غداً غداً.. نعود وننتقم.

وهربت مسرعة، وقد أقسمت على عدم تكرار هذا التهور مرة
أخرى، وسمعت بردد من خلفي بخبت:
- على راحتك يا هانم.

فلعلته في سري وعدتُ مرتجفة خائفة إلى الفندق بعد أن أخفيت
اللفائف بصعوبة في حفية كبيرة. ولما فتحتها وجدت تلك البرديات،
وبالطبع لم أفهم منها شيئاً.. وفهمت ما كان يقصده عمار الملعون هلاً..
فطلبت من زين أن يذهب للقواء الحاج مسعود بنفسه وليس عمار
ويستفسر منه عن أمر الغردقة هذا.. ولما عاد قال إن الشيخ مسعود
طلب مني أن آتي إلى هنا.



كان يحبى ينصت إليّ في شغف وترقب شديدين ولم ينطق بكلمة أو
سؤال حتى انتهيت من كلامي ولما سكّت سألتني:

- ثم ماذا؟

فقلت له:

- ثم لا شيء.. فعلت كما طلب مني مسعود وجئت إلى هنا..
أخذت أراقبك لفترة طويلة وأبحث عن فرصة للكلام معك..
لكنني وجدتك لم تلمحني في أي مرة أكون معك فيها في الكاسب
وسط السائحين.. حتى شككت أنك تعتمد ألا تلاحظني. ولما التفتنا
في البازار مصادفة وجدتك قد لاحظتني للمرة الأولى بعد شهر من
المحاولة.. فجئت أنا إليك.

قام يحبى من جلسته وبدأ متحيراً وسألتني:

- وما علاقتي أنا بكل هذا؟

.. لا أعرف.. لقد جئت إليك كما أخبرني زين.. وظننت أن الإجابة ستكون عندك أنت بعد أن تترجم هذه البرديات.

فقال يحيى في عجب:

.. البرديات لا علاقة لها بكل ما حكيت، لقد نعمتُ بترجمتها كلها ولم يكن فيها شيء يخصني.. هذه برديات لأميرة مصرية مضى عليها آلاف السنين.

قلت له:

- لم تقم بترجمتها كلها.. لقد ترجمت ما أحضرته أنا لك.

فقال يحيى في لهفة:

- ماذا تقصدين؟

- اللغائف كانت مجموعتين.. وما فهمت من زين أن هذه التي أحضرها إليك هي التي كانت مع جدتي روز.. أما الأخرى فهي التي كانت مع «آل عواد».. وهي معي في الاستوديو بعد أن أخذتهم جيقاً من قبر جدتي روز.

فصاح يحيى:

- أتمرحين.. لماذا لم تحضريهما معاً.. لكننا قد فهمنا الآن ما كان فيهم.

- وما الذي يجعلني أفعل هذا وقد أهتمني بالأمس ونعمتني بالكافية؟ لقد خفت أن تضيع البرديات كلها مني وأنا لم أفهم أي شيء إلى الآن.

صمت يحيى قليلاً ثم قال:

- لو كنتِ أخبرتي من البداية لم أكن لأشك فيكِ يا ياسمين.

- صدقتي كنت أتمنى لو أفعل.. لكنني كنت خائفة.

- خائفة من أي شيء؟
- من أن أفقدك.. لا تدعي أنك لا تفهمني وتعترف مشاعري
ناحياتك كما تكرر مشاعرك تجاهي.

قال يحيى وهو يتأمل حذاءه.

- أنا لا مشاعر لدي لأي إنسان.

- من الذي يكذب الآن.. لا تكرر ذلك.. يمكنك أن تتركني لكن
لا تنكر أنك أحبتي مثلما أحببتك.

صاح يحيى متعجباً:

- أحببتك؟

- ألم تتركك كنت تنظر لي ونحن نرقص سوياً؟

انقب يحيى في عصابة إلى باب الغرفة وتناول معطفاً طويلاً كان
معلقاً على شفاطة الباب ونظر طويلاً في المرأة وبدأ عليه الأرنباك
عندما استدار وقال في حمزٍ شديد:

- من فضلك يا ياسمين.. لقد أخبرتك منذ اليوم الأول.. أنا
رجل مستهلك ولا أصلح للعلاقات.

- لا يهمني إن كنت تصلح أم لا.. أنعلم.. لا يهمني أي شيء سوى
أن أعرف فقط أنك تحبني مثلما أحببتك.

- ومن الذي يعرف أي شيء عن أي شيء.. أنا لم أعرف شيئاً عن
نفسي طوال عمري.. أضعت ثلاثين عاماً لم أعرف فيهم أنني كنت
أحب زينب.. وعندما علمت كانت قد رحلت.. فكيف أعرف عن
حبي لك وأنا لم ألتقك قبل ثلاثة أشهر؟

قمت من جلستي واقفة وصحت:

- وأنا ذهب من حمري ثلاثون عامًا لم أحب فيهم أحدًا.. وعرفت
أنني سأحبك منذ اليوم الأول الذي التقينا فيه..

وكان يحبني ما زال ينظر إلى المرأة ويزداد شروده حتى أحسست أني
سأكلم نفسي إذا تابعت.. لكنني قلت في بأس:

- ماذا تقاوم يا محببي.. لماذا تهرب من نفسك الآن؟ ألم تتعب من
المرب؟ كل هذا الحزن وكل هذه الغربة.. والآن ترفضني رغم أنني
أثبت إليك في رضا؟ ماذا تريد من الدنيا إذا؟ ما الذي تنتظره؟

ولم يرد عليّ محببي أبدًا.. ظل واقفًا في شروود وسكون دون أن ينطق
بكلمة.. ثم تحرك بعدها في سرعة وكأنه يتلافاني، وجمع البرديات
في حرص شديد ورتبها في عناية ووضع فوقها الأوراق التي ترجمها
وطوى الكل في رنة بالغة ثم نظر إليّ في صمت سائلًا أن تتحرك إلى
الاستديو.. فتهددت في بأس وخرجنا إلى السيارة.

لم تنطق بكلمة طوال الطريق من الكامب إلى الاستديو في الفردقة..
وكان الغضب يعلكني وقد أحسنت للمرة الأولى أنني لم أفهمه..
وعند مدخل البناية في المنزل الليبي كان الحارس جالسًا يدخن في
شراعة، ونظر إلينا ونحن داخلان إلى المبنى ولم يعلق بشيء، وبدأ أن
يحسني لم يكن مهتمًا بوجوده.. وعند دخولنا الغرفة ألقى بحبسي بجسده
في تناقل شديد على المقعد.. ووضع اللفائف التي في يده فوق الطاولة
الصغيرة جوار كتب المير وخليفية.. ولم أنتظر منه أن يتكلم أو يسأل
وأحسنت أنه لم يعد يريد مخاطبتي.. فذهبت إلى الدولاب الكبير
وأخرجت منه حقيتي حيث كانت توجد بقية اللفائف.. وقال محببي
وأنا أخيرج البرديات منها بحرص شديد كما وجدته يفعل:

- هذه البرديات شديدة الأهمية وبالغة القيمة الأثرية.. كيف
عوملت بكل هذا الإهمال طوال هذه السنوات؟

قلت معقبة على كلامه وما زال غضبي بادياً عليّ:

- لا تُلَمَّ أحدًا بمجهل قيمة ما يملكه.

فصرف عينه بعيداً عني بعد أن فهم قصدي وناولته اللغائف
الثانية وأحضرت له أوراقاً ليقرم بالترجمة عليه يبدأ.. وكان يتشابه
وعيناه صارتا عمريتين من فرط السهر.. وكنت أعاني مثله.. فقلت
دون اهتمام:

- ساعد قهوة لنفسي.. هل نرغب؟

فلو ما برأسه دون رد فذهبت إلى ركن المطبخ لأصنع القهوة.. وعندما
عدت كان قد بدأ فعلياً في ترجمة البردية الأولى من اللغائف الجديدة..
ناولته القهوة فأخذ منها رشفة سريعة وقال في امتنان:
- شكراً.. شكراً جداً.

وكان الحماس قد بدأ يغزو صوته بعد أن بدأ الترجمة.. ووضع
الفتجان بعيداً خوفاً على البرديات.. وسألته:

- كم سوف تستغرق ترجمة هذه المجموعة؟

فقال في شرود وهو يقلبها وكأنه يبحث عن شيء ما:

- لا أعرف تحديداً.. ربما أربع أو خمس ساعات.. وربما النهار كله.

فأرحت ظهري على وسادة الفراش وتشاءبت في ملل.. وقال بحس:

- لكن من الواضح أن هذه ليست نهاية البرديات.

فقلت:

- ماذا تقصد؟

- التقسيم هنا تحت الخرطوشة الملكية يشير إلى أن هذا هو التدريس الثاني لمجموعات ثلاث.. وكان الآخر هو الأول.. وهذا هو الثاني.. لكن لا يوجد أي شيء هنا عن التدريس الثالث.. هل أنت متأكد أنك أخذت كل اللقائف التي كانت في قبر جدتك روز؟
.. لا أعرف.. هل يكون عمار قد خدعني؟

فقال يحيى مفكرًا:

- لا أظن.. إن كان ينوي خداعًا لكان سرقها كلها من البداية.. نمت من كلامك أنه كان يخشى من غضب والده.. قلت لي ماذا كان اسمه؟

- ممود؟

- نعم نعم الحاج ممود.. لا يهم الآن.. أترجم هذه أولاً ربما وجدنا فيها إجابة على كل هذا الغموض.

ثم عاد يحيى للترجمة واندمج فيها بشغف كبير بعد أن أنهى قهقهته وبدأ أنها أنعشته قليلًا..

بعد ساعة بدأ الملل يتسرب إليّ، وكنت أقاوم النوم بصعوبة شديدة ولما وجدت أن الأمر سيطول قمت إلى الترجمة التي قام بها يحيى للمجموعة الأولى وأخرجتها وجلست أطلع عليها ربما أفهم منها شيئًا جديدًا.. وأخذت أقرأ عن الأميرة «نفسو-رع» وقصتها تلك، حتى انتهيت من القراءة.. وكنت قد فشلت تمامًا في إبقاء عيني يقظتين فغلبني النوم بعد انتهائي من القراءة مباشرة، وكان يحيى يترجم البرديات بانهاك شديد، ولم يعد يشعر بوجودي.. حتى رحلت تمامًا في النوم وحلمت يحيى وهو يقباني في رقة شديدة.

عندما استيقظت بعد نوم عميق ولم أدرك كم مضى عليّ في تلك
الحالة ووجدت بحس هو الآخر ممدداً علي الكرسي ماذا قدمه علي
طرف الفراش وقد راح في النوم هو الآخر.. ووجدته قد وضع غطله
فوق جسدي عندما كنت نائمة.. فنهضت في هدوء شديد كي لا
أوقظه.. ووجدت أمامه علي الطاولة ما قد قام بترجمته.. فمددت
يدي إلى الأوراق في فضول شديد لأكمل ما قد قرأته عن تلك
الأميرة.



(٩)

الزعرانة

الثاني الأوسط من ثلاثة

أنا الزعرانة.. أنا الجبل فوق كل جبل.. أنا التي رضي الإله ملكي وما رضى..
أنا التي تخذت أسمائي وتجلت ألقابي من الشمال إلى الجنوب.. فبذت هذا كله
وسعت مع من آمن بي نحو الشرق..

ولما كان من قومي ما كان، زاد إيماني بنبذي لهذه الحياة وكل ما فيها من خيب
وأضت في غرارة نفسي أنني لا بد راحلة.. إنما أظفر الإشارة من سيد الآلهة..
وأظفر المباركة من معبودي الأبدى «رع» العظيم.

أنا الأميرة «نفر» «رع» ابنة المقدسة دوماً «ماعت» - كل - رع - حنشبوت..
أنا الزعرانة.

أعدم الحارسان والضابط المكلف وكبير الحرس بالقصر.. ودفن الجلادة
في بطنهم كثيراً قبل أن تقطع رؤوسهم.. ولم يفلح التعذيب معهم في انتزاع أي
اعتراف منهم بمن أمرهم بدم السم لي.. كان الكل ينكر معرفته بأي شيء عن

الكأس المسموم بعد أن ثبت فعلاً ما وُضِعَ فيه من سم كاد أن يقضي عليّ.. لولا أن تدخل «حور» في اللحظة الأخيرة.

انقلب القصر رأساً على عقب بحثاً عن أي خيط يؤدي إلى معلومة ثبت تورط «إيست» في تلك القفلة.. وكان من الواضح أن من فعل ذلك أُنْهِنَ فعله جيداً..
لإما أن ينتهي التحقيق إلى شخص ميت.. أو إلى شخص نفذ أمراً من شخص أصبح ميتاً.. وأصبح الوضع يدعوا إلى السخرية الشديدة.. وما زاد من السخرية أن «تحتس» نفسه كان يزعم فرّق التحقيق.. ورغم أنه كان جلياً للجميع أن الشكوك كلها كانت محرم حوله وحول «إيست».

قالت الملكة بعدها له «سمنوت»:

- لم يعد هناك وقت لتضيعة.. لن أنتظر حتى أجد ابني وقد هلكت إحداهما..
والكهنة متورطون في ذلك.. وأيت هذا أم لم تره.

وكان «سمنوت» مصرّاً أن الموضوع مقتضياً على «تحتس» وحده.. خاصة بعد انتشار خبر قتل مشروع زواجنا المقدس.. وتعمل حصوله على الشرعية الكاملة لاعتلاء العرش وحده. وقال «سمنوت» لأمي:

- ألهم جيداً جلالتك أن يسمي الملك إلى ذلك.. أو أن يتم ذلك بيد من «إيست» وحدها.. لكن ما دخل المعبد وكهنته في ذلك؟ لماذا يلوثون أياديهم وشرهم بدماء مولائي «نفرو- رع»؟

قالت الملكة:

- لا أظن أن «تحتس» له يد في هذا.. أعلم أنه خائف وغازب منذ رفضت زواجه.. لكنه قائد كبير في الجيش الآن.. ورجل ذو عزة وشأن.. إن أراد بها شراً لدخل عليها عند عها وذبحها ثم خرج علينا برأسها.. ليس الخدوع أسلوبه ولا

المائة من خصاله.. دماء أبه الملكية تسري في عروقه دغماً عنه وعن رأس الأنف
والله..

وجدت أمي تتحدث عن ذبجي وكأنني بكرة أو ماشية عاقر لا قيمة لها ولا
لن.. قلت في حق:

- هل أصبحت الآن ذبيحة تحتفون بها ينكم على من سينال حظه في ذبيها.
فقلت أمي في رفق:

- هوب على نفسك يا بختي.. إنما نحاول أن نتأكد من الفاعل حتى لا يتكرر
ما حدث..

- وهل سيتكرر ما حدث؟

- في الغالب لن يبدأ من حاول حتى يصل إلى هدفه.

- وما الهدف من التخلص مني؟

- العرش يا زعفرانة.. العرش.

- أليس العرش له تحتس.. سواء تزوجنا أم لم نتزوج؟ لم صار التخلص مني

أمرًا يسهل عليه الوصول إلى العرش؟

هنا تدخل «سنحوت» مفسرا:

- رجودك إلى جواره كدرجة ملكية كان يمنحه شرعية قوية في الانفراد بالعرش

نفسه، منحاً مولائي الملكية جانباً.. ورفضك مع إبقاء الملكية واسية عليه لعام أو

عامين يقلقه بشدة.. أو أنه يخلق من هم وراؤه ويتعارض مصالحهم مع جلاله

الملك.. أما التخلص منك فإنه سوف يدفع بالملكة إلى أمرين لا ثالث لهما.

قلت:

- وما هما؟

إما التنازل عن العرش له وإنهاء الوصاية عليه.. وإما ترشيح أختك «ميريت» بدلاً منك لتشاركه الحكم.. وكل الأمور تدفع إلى تفضية جلالتها عن العرش.

- وما المانع في أن تشاركه «ميريت» في الحكم أو أن يتزوجا؟ أنا لا أرى في الأمر أي ضائقة.

وهنا صاحت أمي بغضب:

- قلت لك لا، هذا أمر لن يكون ما دمت حية.

- ولم؟

لم ترد أمي على سؤالي.. فنظرت إلى «سنموت» مستغرة فقال:

- يبدو أن أمك يا بني ي ترى خطراً من توليها سرياً حكم البلاد.

- خطراً؟! على من؟

قالت أمي:

- على البلاد نفسها.. وعلى أختك.. وعلىك يا ابني.

- ولماذا بمعاملين معهم جميعاً على أنهم أعداء لنا.. ألم تقولي بنفسك إن الحرب

قد ولت وانتهت؟ لماذا تبحثين عن الأعداء الآن حولك؟

- أنت صغيرة حاملة يا بني.. ولا تسعين العالم من حولك.. الحرب لا ينتهي أبداً.

ثم أضافت:

- وفي الحرب.. من يعرف عدوه يكسب نصف هذه الحرب.. ومن يعرف

قدراهم يكسب نصفها الآخرهما كان ضيقاً.. وفي بعض الحروب قد يكون العدو

هو أقرب الناس إليك.

ونظرت إليّ في إشارة لفصدها فقلت:

.. ولا يكون هو نفسك،

لمعني في حدة بعينيها وتدخل «سنموت»:

.. جلالتك... صغيراً لا تفقد شيئاً بذلك،

قلت بغضب:

.. بل أفقد كل ما أقول... لماذا لا يكون ما نحن فيه الآن من خوف وزرّ

وقلق لن ينتهي إلا بموتٍ بسبب الطمع في الحكم؟ لم كل هذا التآمر والترقب

والتمائل؟ من أجل ماذا؟ العرش؟! ولماذا يجلس شخص واحد على العرش يستأثر

به لنفسه؟ لماذا يجب أن يكون الحاكم ملكاً؟ لماذا لا يكونون ملوكاً وأمرأاً وبلاء

ونشراً من عامة الشعب؟

لأجأني أبي بضحكة عالية طويلة أطلقها وأدارت لي ظهرها منصرفة إلى

كرسيها، ووجدت «سنموت» يتسم في تحفظ وقالت أبي بعد أن أنهت محادثتنا

من قولي:

.. أي خوف تطيق به يا نفرو- رع؟ أنظنين أن أهل طيبة و سائر الأقاليم سوف

يديون بالولاء لمجموعة من الناس العاديين دون ألقاب ملكية أو نسب إلهي؟ ألم

نعرف شيئاً عن شعبك بعد؟ يا طفلي الصغيرة البريئة.. الناس هنا لا تؤمن إلا بالملك

الفرعون.. لا تدمن بالولاء إلا لملك القوي الأوحده. ثم نظرت إلى «سنموت»

وقالت مكحلة:

.. ولا تسجد إلى للإله وأبائه.

وعلمت أنني لن أصل إلى شيء يجدي، هذا وكل ما أقول بالنسبة لها هو مجرد

تخريف لصغيرة لا تخطه شيئاً في الحياة.. فسكتُ عن الكلام.. إلا أنها لما رأت من
صحتي هذا عادت لتقول في رفق:

- أكثر ما يمزني يا بني هو أنك أصبحت تتحدثين بلغة المنصب عن عالم
بلاد.. ألم تري بنفسك ما فعلته للناس والبلاد طوال حكمي إلى الآن.. لم يعد يوجد
بيت واحد في طيبة لا يدعو للملكة لما أصبح فيه هو وأهله من نعيم في عهدي.
دانت لنا الأرض كلها من حولنا بالطاعة وانتهى عهد طويل من الحروب والدماء..
امتلأت خزائنا بالذهب وامتلات المخازن بالمؤن والغلال.. حتى صرنا نبنى من
المخازن أضاف ما كانه منذ أحوام. ألا يعني لك هذا شيئاً؟.. ألا ترين في أمك
شيئاً سوى الملكة الطاغية؟. ولا تجددين فيها الحاكمة الأمينة التي خدمت شعبها رغم
ما كانت عليه البلاد بعد الحروب الطويلة من ضعف وفقر؟

- أنا لا أنكر أيّاً من هذا.. بل أقره وأسط به وأعرف ما هو أكثر منه.. أنا
لست أعيش في وطن آخر يا أمي.. ما أتكلم عنه هنا هو الثمن مقابل كل هذا.
انظري إلى أين انتهى بنا الأمر.. الحرس المكلف بحماية ابنتك خان أمامه.. وحاول
تخلي أي أمان سيجي.. بعد هذا؟ كسبت العرش وخسرت الأمان؟ وولاء كهنة
المعبد اتضح أنه وهمي.. إلى أين تذهب بعد الآن؟ هل نعتزل الحياة كي نعيش في
أمان.. أم سنقضي عمرنا ننظر خلقنا في انتظار المنتصر المسموم الجديد.

صمتت والدتي في حينها وفكرت قليلاً ثم قالت موجهة الحديث لي ولصغرتي:
- الحرس أمرهم سهل.. سوف يغير طاقم القصر بالكامل.. وأنت يا «سنمت»
من ستختارهم بنفسك هذه المرة.. وإن شئت رأيي.. حاول أن تلح على «تخصم»
في تغيير حرمه هو أيضاً.. انطيانة قد تطوله رغم أنه قد يبدو للعامة أنه المستحب
الأول منها.

وقال «سنموت»:

«وهل سيقبل بذلك جلالتك؟»

«في الغالب سيقبل.. أنا أعرف ما يفكر فيه.. لقد قلت لكم.. إنه قائد بارع في الجيش وليس قاطع طريق».

«أمر جلالتك..»

«أما الكهنة..»

ونظرنا إليها في ثوب منتظرين قرارها بينما أخذت تهرق دموعها في نوز، ثم قالت لـ«سنموت»:

«أما الكهنة يا «سنموت» العزيز.. فلا توجد فرصة أفضل من الآن للضغط عليهم. أصابع الاتهام كلها تشير إلي جنب مع «إيست»، وسوف يفعلون أي شيء. وقبلون أي تهمة يطرحها القصر.. محاولة لإثبات نواياهم الخسنة تجاه ملوكهم.. وقد نويت أن أستغل هذا بأفضل صورة ممكنة.. وهذه في النهاية مشيئة علما من «أمون» الإله ولا يد لي في ذلك».

فقال «سنموت»:

«إذا فقد الآن الأوان جلالتك.. ليتقدس اسمك يا سيده الأرض».

ولم أفهم ما كانوا يتحدثان عنه.. وقد بدا لي أنه أمر يبدو له منذ فترة فالتفت مستغرة:

«هم يشكلون يا أمي؟ أي تهمة بموت وتقصدين؟ ما هي مشيئة أمون تلك؟»

فالتفت أمي وهي تعاشي النظريتي:

«ستعرفين كل شيء في حينه يا زعفرانة».

- في حينه؟ مثل العامة؟

- إنما أحافظ عليك يا حبيبي.

ثم التفت إلي واقتربت مني حتى صارت أمامي مباشرة وقالت وهي تعظرني

عيني طولًا:

- صدقيني.. يومًا ما سوف تعرفين وفهمين كل شيء... ألم تحوي أنت منذ قليل

أن الإنسان قد يكون عدوًا لنفسه؟

ف نظرت إليها ولم أرد.. وبقيت هكذا حتى أشارت إلي بالذهاب قائلة:

- والآن.. اتركيني مع «سنموت».. سوف نحدث في أمور لا نريد أن نشغل

قلبك الرقيق هذا بها.

فانصرفت في صمت.. وعدت في خوفي إلى الجناح الجديد الذي كدت أن أقتل

له. وقبل أن أدخل غرفتي وجدت «ميريت» في انتظارتي وكلها ترقب وفضول

لتعرف ما جرى بيني وبين أمي و«سنموت» في الديوان الملكي فدعوتها إلى غرفتي

وحكيت لها.

كانت «ميريت» قد بدأت تكبر، وصار عقلها يعمل في سرعة وتخف وزحمته

من أمي بالطبع.. وكانت قد أصبحت تتطرق بلسان أكبر من سنها بكثير.. وتظل

تضمر المؤامرات وأحاديث الكهنة كلها وتحللها لتستخرج ما سوف يدور في طية

جبل حدوده.. كما أنها اعترفت لي منذ فترة أنها عندما انتقلنا إلى القصر بأنها قامت

بمزعج بعض العمود الخاصة لها لتعرف كل ما يدور داخل أسواره دون أن تترك

من غرفتها.. وقالت لي وهي تمزح وقتها.. أنها تعتبرني أهم عن من تلك العمود

المتخصصة.

بعد أن حكيت لها ما دار بيني وبين أمي وسنموت قالت «ميريت» في سرور:

.. أتترين يا زعفرانة أن أمتنا كانت تمشق الصيد منذ الصغر، وكان أبونا
«نخمس» الأكبر العظيم هو من عليها الصيد؟
.. وما شأن ذلك بما حكيت؟

.. شأنه شأن كبير.. أنا فقط لا أصدق أن «إيست» تمسك هذه المرأة على
أن تمر تلك المؤامرة.. وواضح للجميع أن «نخمس» ابن آيتنا يحشرك ويحبك..
والرجل لا يؤذي من أحب وإن رفضه الحبيب ما دام في منزلة أقوى منه..
ونخمس قوي.. قوي جداً يا نفرو.. القادة جميعهم في الجيش الآن يدينون له
بالولاء.. ورجل في مثل قوته.. لن يفعل هذه المظالمات التي لا تليق إلا
بالنساء..

.. لم أفهم ما ترمين إليه إلى الآن..

.. حسب ما تنصرونه أمي وما تخضرن من مفاجأة هائلة للشعب.. فإنها وحدها..
ثم صمت «ميريت» ولم تكلم.. فقلت أستعطقها:

.. إنها وحدها ماذا؟ أتصدين أنها المستخيدة من تلك المؤامرة؟ أجنبت يا
«ميريت»؟

قامت «ميريت» متجهة إلى باب الغرفة بموي الخروج وقالت بحب:

.. أنا لم أفعل مثل ذلك بالطبع.. لكن أتترفين القول أن أفضل شرك يصنعه
الصيد لمرسته هو ما يتركه لصنعه هي بنفسها لنفسها..

ثم قالت قبل أن تغلق الباب وترحل:

.. لقد أجادت الملكة اللب بكهنة المعبد بشكلي غير مسبق.. وإني لأشفق
عليهم..

ثم أُلقيت الباب خلفها وعادت إلى غرفتها.. وتركتني وحدي أفكر في كل هذا
انحرف الذي قاله حتى ضاق رأسي، وكادت روحي أن تزهق من كل هذا الجور
الخالق من المؤمرات والدسائس وانخداع الذي صار يمتلئ به القصر..

فهمت إلى نافذة غرفتي وفتحتها وأخذت أنظر إلى الليل وإلى بستان القصر
وأفند «حور» الذي كان أول ما تراه عني فيها كل صباح.. وأخذت أذكر ملامحه
وأترد فيها ثم أفكر في السر الذي جعله يدعي كونه أصم طوال هذه السنوات
العديدة.. وابسمت رهنماً عني عندما تذكرت كيف كنت أتحدث أمامه كل ليلة
في حرية وأحكي له عن أدق تفاصيل روحي وعن هامي به وبجسده الرائع وزائحه
المطيرة دائماً.. لكنني لم أجِد في نفسي حرجاً.. بل اشتفت له أكثر وقد صار يعرف
ما كان في نفسي من عشق له.. وصرت أتمنى لو كان موجوداً حولي الآن كي
تتأجج وتسميني صوته الذي أفضده رغم أنني لم أسمع سوى مرة واحدة فقط..
إلا أنها كانت كهيئة بصلق روحي به أكثر.. بعد أن أنقذها من تلك الخطيئة اللدنة،
مر أسبوع مشحون بالزيارات الطويلة لكهنة المعبد وزيارات أخرى لقادة
الرحلة التجارية المتجهة إلى «يونت» وقد صار الركب في تأهب شديد ويخطر
الإشارة في أي وقت للذهاب إلى بلاد الرب.. وكان واضحاً أن الملكة قد قررت
إطلاق الرحلة البحرية بعد انتهائها مباشرة مما كانت تعده للمجد والكهنة والبلاد
كلها.. وصرت أترقب ما سوف يحدث مثل الجميع.. وأقضي الليل في ساجدة
صامتة إلى «دع» أسأله أن يعيد إلى «حور» بأي طريقة.. وقد بدأ قلبي ينفطرياً
بعد يوم عندما طالع غباه.. وفي الليلة الأخيرة من نفس الأسبوع جاءتني لمرىة
مضطربة على نافذة الغرفة فزنتها في البداية صوت الرياح المشتدة في خارج القصر..
لكنها تكررت بشكل أكثر انتظاماً ففهمت إلى النافذة أفتحها ونظرت خارجاً فلم

أجد شيئاً غير طبيعي.. وكان الحرس الجدد في مكانهم تحت شرفتي.. لكنني وجدت
عدداً من الحصى المستخدم في تدريبات الرماية للصبيّة اللّذين كان يُجرى إعدادهم
لترقى الرماة عندما يبلغون سناً مناسبة.. ووجدت إلى جوارها لغة صغيرة من زهور
البسج مظفرة بأعواد رقيقة من زهور اللّوتس.. فاختلج قلبي في صدري وعرفت
أنه «حوره» ورحت أبحث عنه في الحديقة لكن مشهد الحرس الوقظ أكّده لي أنه
كان قد وضعها قبل فترة.. ربما أثناء راحتهم.. كما أن الحصى هذه توجي إلى أنه
يجدني مكان بعيد عن هنا.. ربما يقف مبتعداً عن سور القصر.. وقد كان «حوره»
رباباً ماهراً السهام ويستطيع أن يصوّب على نافذتي من أي مكان.

بنت لفترة في مكاني محتضنة الزهور إلى «صدري» ربما كان يداني.. وجاء الهواء
بارداً وطيباً لطّف من روحي وغسلها بدماء تدفقت من قلبي النابض بسرعة من
نوبة إلى «حوره».. ثم عدت بعد ذلك وأغلقت النافذة واحتضنت الأزهار حتى
لم وهي بين ذراعي.

في اليوم التالي احتشد الجميع في معبد آمون تعميذاً لأوامر الملكة ولطلب الكهنة
أجساداً حيث جرى الكلام في البلاد طوال الأيام السابقة لليوم عن الإعلان الحام
والقرار الذي سيتم اتخاذه في المعبد.. والذي من أمّره سوف يعم الخبير على المصريين
جميعاً.

تمنى النبلاء ورؤساء الدواوين وقادة الأفرع في الجيش دعوات غير مقبولة
للغرض الحضور إلى المعبد.. ولم يكن من أحد في طيبة ولا مصر كلها بإمكانه أن
يطلباً مباشراً من المعبد وقد صدر في هيئة أمر يطاع. ودخل المدعوون الرحمون
إلى الصالة الرئيسية للمعبد.. بينما احتشد عدد هائل من عامة الشعب ومن الجنود
بالجيش في الخارج.

وسطت جلالتها الجهة اليمنى من الصلاة بحيث بقيت جالسة أمام المدحون بهما وعن يمينها وسارها حاشيتها وكبار القصر.. واحتل الكهنة المنصة بالطبع واتخذ كبير المرتلين مكانه البارز أعلى المنصة في الجهة المقابلة للنافذة الرئيسية تجاه الشرق.. فكانه مكانه الأكثر بروزاً في الصلاة كلها.

وقام الكاهن المرتل رافعاً يده في إشارة آمرة إلى كل من في القاعة بالتزام الصمت حيث سيبدأ الكلام.. فسكن الجميع وتعلقت أنظارهم جميعاً به.. ونظرت إلى أبي فوجدتها الوحيدة التي لم تنظر إليه.. إنما كانت تتابع وجوه الحضور وتقل ناظريها إليهم في تركب.. وكان «تحتس» ابن أبي جالساً قبالتنا وسط قادة الجيش يتابع في قلبي بادٍ رغم صمته الشديد.. قال الكاهن الأكبر:

- «الصلاة لك يا رب.. الصلاة لك يارب السماوات وبأ خالق الكائنات.. يا من كنت قبل أن يكون الجميع.. ومنذ البدء..»

ثم التفت إلى الحضور محرّكاً بصره متقللاً بعينه ليتأكد من انتباه الحضور.. ومجّست عنه على مكان أبي وتابع قائلاً:

- «يا سادة القوم.. يا من يورثكم بكونكم أبناء هذه البلاد المقدسة التي رُميت عنها الآلهة.. علو عليكم الآن نص النبوة التي نطق بها الإله آمون.. في العام التالي من حكم جلالة الملك «تحتس الأول».. أمام قصر رأس القناة عند المقر الملكي لجلالته..»

ازداد انتباه الجميع واسمعت أعيانهم عندما أعلن الكاهن المرتل بأنه سيُنطق عليهم تلك النبوة التي يقول إنها حدثت في عهد جدي لأبي «تحتس الأول» عندما كانت أبي لا تزال طفلة.

قال الكاهن في ترحم:

«وكان أن خرجت الملكة في وقتها وفات لهيئة الإلهية وهي ساجدة؛ يا لها من طريقة تتجاوز النبوءات المعتادة.. يا من تنكر دائماً في كل شيء... ما الذي تريد أن يفتن لكون؟ قل لنا لتنفذ مشيقتك.. فكان أن أشار الإله «أمون» العظيم إليها أن تنهض من عبودها لتتحرك مع مركبه المقدس ناحية مقام «ماعت»^(١) العظيم.. فتحركت.. وكذلك تحرك النبلاء خلف جلالاته..»

ثم سكن الكاهن المرتل حيناً والتفت إلى حيث يجلس النبلاء.. وكان جميعهم مندوهين تملو وجوههم الدهشة مم يسمعون.. ولا يكادون يطيقون صبراً لسماع باقي الحكاية والوصول إلى نص النبوءة التي تنبأ بها أمون في ذلك الوقت.. وأكمل الكاهن:

«وبعد أن دخل كافة رجال البلاط وعلى رأسهم كانت جلالة الملكة إلى المكان المقدس والمقام العظيم لـ«ماعت» في صالة التضامات بالمعبد قام جلالة «أمون» إله الكون.. وبعد أن وضع الملك «تحتمس» المتدبل الأوزعدي.. ومد يده المقدسة على كتف جلالته الصغيرة..»

وهنا أشار بانظريه في وضوح إلى أمي ولبت عليها قليلاً ليؤكد ليصبح من كان يخدم بكلمة جلالته.. ثم أعاد الجملة الأخيرة مكملاً:

«ومد يده المقدسة على كتف جلالته الصغيرة.. وعلى ذراعها.. وأخذ جلالة الملك يتأملها.. وكانت متلائمة.. وكان تاجها عظيمًا مزدوجاً يحكم بالعدل.. مرضعاً في كبرياء الأحياء... ثم قال جلالاته ناطقاً باسم الإله الأعظم وسيد الآلهة: ...»

وصمت الكاهن ناظرًا ببصره ناحية السقف المرتفع للمعبد قبل أن ينطق نص النبوءة التي قالها سيد الآلهة:

^(١) إلهة تمثل بيثة سيدة تملو رأسها ورشة النعام رمز العدالة وإلهة الحق والعدل والنظام في الكون عند القدماء

- «أقبلي إلينا أينما العظيمة» (٧) .. يا رائدة الجبال كوني أمامي أضحك إلى ذراعي
لتشهدي ملوك العرش .. ولتضدي مظاهر الوفاق والمُلك .. لترداد عظمك في
القصر .. فتكوني عظيمة بسحرك .. تحية بمرأتك .. ملكة للأرضين تضربن على يد
المترددين .. فتظهر جبهتك المزدانة بسلطان التاجين .. ولتغري لأنت أنت وريدة
«حورس» الذي سلك القيادة .. أمام عروش الآلهة .. أيها النبلاء جميعاً .. يا
من ترأسون الشعب .. هذه ابنتنا .. «حنشبوت» .. لتحياء .. هي وارتقي في الملك ..
وهي من سوف تجلس على عرش مصر بكل تأكيد .. ومن سوف تصدر الأوامر
للناس في القصر وخارجيه .. وسوف تسمعون لها .. وتطيعونها .. فهي من مستودع
جميعاً .. هي ابنتنا «ماعت - كا - رع - حنشبوت» إلهتكم التي ستعيش للأبد ..
وستحارب الآلهة لنصرتها كل يوم .. هذا أمر جلالتي وأوامري سيد الآلهة جميعاً ..
ثم انتهى الكاهن المرتل من سرد نص النبوة كما نطق بها سيد الآلهة آمون عند
رأس القناة منذ سنوات .. نظر الكاهن مطلقاً برأسه إلينا يمناً وساراً ثم استراح إلى
مكان مجلس أمي الملكة الساكنة في وقار .. وقد سكن كل من حولها تماماً بعد أن
أعلنها سيد الآلهة بنوحيه تلك ملكاً إلهاً يعيش للأبد ..

قامت في وقارها الذي على شأنه بعد تلاوة نص النبوة وتحركت في عزة
ومخوخ إلى حيث كان الكاهن المرتل يقف .. فأحسني رأسه في إجلال عظيم لها ..
وترك المنصة واتزوى جانباً إلى جوار بقية الكهنة .. وعمت أمي وجهها ناحية الضوء
المنبثق من النافذة وصاحت منادية:

- الصلاة لك يا رع .. يا من أنت في عياتك رب السماء ورب الأرض .. هني
القوة .. هني الحكمة .. أرسل بورك إلي ..

ثم انضمت إلينا جميعاً بنوة ثم إلى كهنة المعبد ونظرت في حزم وقسوة بادية ..
(٧) بتصرف من النص الأصلي

لمنوا جميعاً إلى الأرض سجداً يقبلون الأرض حولها تحت قدميها.. ثم تبعهم رؤساء الكهنة ثم النبلاء ومن وراءهم قادة الجيش والحرس.. سجد كل من كان بالقاعة.. ولم يبقَ سواي أنا و«تحتمس» الذي كان يحقن الوجه معدوماً.. لكنه ركع في نالوساغراً ثم نظر ناحية الأرض.. وسجدت أيضاً وراءه.. ومن ذا الذي يبروه على عاتقه ما جاء به آمون سيد الآلهة في نبوءته.. وسمننا الملكة الإلهة التي تابعت مابداته من قسما:

.. سامكون سيأة من عند جلالته.. أملاً الأرض من خيراته.. وأملاً مخازن النيل في طيبة.. أزود المذابح في المعابد وأعزز أوضاع الكهنة.. كل في منصبه.. أحرص على تنفيذ القوانين كلها.. ليستمر الحكم أخيراً في البلاد.. وليعم السلام الأرضين في عهدي.. وليصبح المستقبل مشرقاً لمن بعدي.. ولأنتقل كافة الرموز الملكية.. كما أمر جلالته.. تنفيذاً لوصاياها العليا.

ثم سكن حديثاً وبدأ الساجدون مترددين بين مراسلة المعبود أو محاولة سرقة الفلن لا سوف يتم من مراسم التبرج الملكي.. والتف الكهنة جميعاً حول الملكة وقام كبيرهم بوضع تاج الفرعون الملكي المزدوج ثم ركع الكهنة أمامها بعد أن قلوا وقال كبير الكهنة في تهليل:

نحن الذين نمر بكبرياتك ووفارك الملكي.. وقد منحت القدرة على قيادة الأحياء للأبد.. مثلنا فعل رع.. يا من تعيشين للأبد.

ونروا سجداً مرة أخرى ثم قامت الملكة لتمشي أمام الجميع معطنة سلطانها الجديد نحو المسبوق على الجميع.. ونادى الخراس في الخارج على الجميع المحتشدة أمام المعبد معلنين النبوءة والبدا في طقوس إعداد الإله الملك الجديد «ماعت كا رع» -«حشمتوت».. فنهال الجميع داخل المعبد وخارجه.. ورقص من رقص وسجد من سجد..

وتباركوا جميعاً متضامين بالإله الفرعون الجديد الذي يحيا بينهم.. والذي يعيش للأبد.. والذي هو.. أمي!!

عدت مع من عادوا بعد انتهاء أمور المعبد إلى القصر.. بينما توجهت أمي للملكة الإله إلى الجربة الطقسية حول الحائط ثم بعدها توجهت إلى أعمال التطهير التي يجب أن تمر بها كمالك متوج في المياه الخفية.. كي توهب الحياة والحياة والصحة والاستقرار كما يعد رب المياه المقدسة في بحيرة «مورس»^(٨).

ووجدت الشعب في طيبة وقد جن فرحاً.. كانوا يرقصون كن ذببت رؤوسهم من فرط الخمر.. وسكرت أرواحهم فرحاً.. وظلوا على هذه الحال بين الرقص والصلاة والاحتفال في أرجاء القصر وخارجه.. قبل وبعد عودة أمي وانتهائها من الطقوس الملكية.. وظلوا يرددون الأغاني والحكايات حول المعجزة الإلهية التي حدثت لهم.. والتي حتماً ستعم عليهم بالخير كما وعدهم سيد الآلهة آمون.

وكان مستشارو الملكة مستعدين أتم الاستعداد لاستقبال هذه الفرقة فظفروا احتفالات شعبية ومراسم رقص وعروض ومسابقات رياضية وألعاباً شارك فيها الضباط من الجيش والعامّة جنباً إلى جنب.. وعادت الملكة بعد ليلتين لتجلس على عرشها ملكة فرعون منفرداً في حكمه مباركاً من آمون وكهنته وكبار موظفي الدولة.. ولكي تضمن ولاء الجيش قامت بالإبقاء على «نختمس» إلى جوارها في الحكم بشكل صوري.. وإن كان واضحاً للجميع الآن من الفرعون الحاكم الأمر والنهي.. وانتهت اضطرابات من يحكم مصر بشكل نهائي.. وفي الليلة الثالثة لحكمها الجديد.. كنت جالسة في جناحي أفكر فيما حدث.. ولا أتخيل كيف نظمت هي و«سفنموت» كل هذه الأمور بمباركة من الكهنة ونحت رضاهم؟ وأين كنت نودة آمون الإله هذه كل هذه السنوات؟ ولماذا لم يظهر إلا الآن؟ وكان رأي

(٨) بحيرة فارون حالياً

يتصل من كثرة الأسئلة.. وأكثر ما كان يسبب لي اضطراباً.. هو ذلك الطيف
 الذي رأيته وأنا خارجة من المعبد عائدة إلى القصر.. وكانت له عنان مثلها مثل
 عني «حور» لكنه كان يضع رداءً دقربه نفسه من فوق ركبتيه إلى رأسه.. فلم يظهر
 به لي إلا عينيه.. وكان ينظر إليّ بقوة وكنت متأكدة أنه هو حور بنفسه.. ولولا
 خوفي عليه أن يحدث له مكروه لكنت أمرت الحرس بحمله إليّ.. ونفيت جالسة
 طوال الليل أنتظر الزهور التي لم تعد تأتي منذ أيام.. وصار الحرس حول القصر
 انشغلاً مضاعفاً.. بعد أن صار الجيش بنفسه مسئولاً أمام آمون عن حماية ابنته!
 أرسلت الملكة في طلبي وأنا في غرفتي أفكر في «حور» ومصر غداً عني وكيفية
 الوصول إليه.. وعندما تأهبنا للذهاب إلى الديوان لللاقة أي أخبرني وصيغتها أن
 الملكة تنتظري في جناحها الملكي.. ولم يسبق أن استقبلت الملكة أحداً منا أنا أو
 «سميت» في جناحها الملكي أبداً.. ولم يعطأ سوى أبي.. ويعمل على أمور العتابة
 به عدد مختار بعناية لا يدخلونه أبداً.. وإنما تترك لهم أي ما تريد العتابة به في غرفة
 جارة مخصصة لذلك.. فلا يدنس جناحها المقدس أي إنسان.. وكان الفضول
 بأفني لمعرفة سبب هذا التغيير الكبير.. ذهبت إليها ودخلت وحدي إلى مخدعها..
 وكانت جالسة تنجد في صمت.. فوقفت مكاني فأدباً حتى نعتني.. ولما قامت من
 جلسنا من فوق الوسائد الناعمة المتناثرة أرضاً.. أقبلت إليّ وقالت وهي متبهجة:

- كيف حال ابنتنا الجميلة؟

- بخير حال جلالتك.

نظرت إليّ بعينها في لوم وأشارت يدها إلى المكان الذي لا يوجد به غيرنا،
 قلت لي فهم:

- بخير حال يا أمي.

لأبليت تحتضني في رقة ولقائني في جيفتي وسألتني أن أجلس فقد تبعت من الصلاة.. جلستنا.. ثم قالت:

- مالي أراك تحضن إقامه خيطة داخل لغرك الجهل هذا؟

وكانت صادقة.. فقلت في حرج:

- لم يسبق لي أن أرى إلهاً يتجبد إلى آخر من قبل.

وكدت أن أضحك لكنني كتمت صوتي في صعوبة بالغة.. وكسّمت هي غضبها وقالت:

- هل أراك معترضة على مشيئة آمون سيد الآلهة يا زعزاعة؟

- ليس لي من موافقة أو اعتراض يا أمي.. هذا شأنك أنت والكهنة وشعبك. فصاحت:

- وشعبك من بعدي.. لا تلحقني أنك وارثتي في الملك.

- ألم تكن قد انتهينا من هذا يا أمي؟

- الأمور اختلطت الآن.. استمر الاضطراب الذي كان يا بلقي.. فقد أصدرت

أوامري الجديدة لكونك الزوجة الملكية لهتحتمس.. لست مجبرة على معاشرة.

لكنكما ستتمكنان جنباً إلى جنب من بعدي.. وسيضمن المجد حمايتك وحماية

مقامك المقدس من بعدي.

لم أرد، وكنت أعرف من «سنموت» ومن «ميريت» أيضاً ما تحدثت عنه..

لكنه لم يكن يعني لي أي شيء في الحقيقة.. لتصدر أوامرها كما تشاء.. لكنني لن

أجلس على عرش جاء إلي بهذه الطريقة مهما حدث.. ولما رأيت من صمعي ما

كان، تعاملت ضميراً على أنني أقبل بالمرسوم الملكي هذا.. قامت من جلستها وقالت:

..الآن.. ما أرسلت إليك من أجله.. هو أسر لا يخرج أبداً عن جدران هذه
الغرفة هما كان.. لا لجارية ولا محبوب ولا حتى لصغيريت «أختك» هو أمر يجب
أن تلمح عنه الآن حتى تحولي حراسه وحمايته من بعدي. وقامت إلى ستر جانبية
عرضة احتلت الجدار بالكامل فأزاحتها في صحوة بالغة حتى بدا خلفها ممر مخفي في
الظلام.. وقامت بإشعال النيران من شمعة في الغرفة أضاءت بها مشاعل جانبية في
للر الصخر الضيق والذي كان ينتهي إلى جدار وضع أمامه صندوقاً خشبياً صغيراً
وجواره صندوق آخر أكبر هماً زين كلاهما بأعين حورس الرائدة وكان كلاهما
عكس الثاني بقلبين كبيرين.. وطرحت حولهما برديات صغيرة وأقنصصات ورقية
كان بعضها مرقعاً، وكان بعضها عددٌ من الصلوات والتراتيل التي كنت لا أعرفها
ولم يسبق لي أن سمعت أيّاً منها في المعبد.. وقفت في دهشة أنظر إلى ما أوتيتي إياه
أبي وقلت سائلة في تردد:

..ألمارسين السحريا أمي؟

فقطرت إلى في عتاب ولوم شديدين وقالت:

..بالطبع لا..

ثم تقدمت إلى الصندوق الأكبر وتحسسته يدها في شغف وتهدت متابعه:

..إنما أسرته.. مثلها مثل عائلتنا دوماً.

والتفت إليّ مفسرة وقالت وهي تشير إلى الصندوق الكبير:

.. هنا تكمن نعوص وصايا وأسرار التاسوع المقدس كما دونها آباؤنا وأجدادنا

من قديم الزمان.. منذ بدأ النطق.. من يملكها يملك الحكمة.. ومن يملك الحكمة
يملك العالم كله.

إذا أنت تعلمين بالسحر.

- لماذا تصرين على عدم الفهم.. هنا يكن السحر وطرقه وأسراره ومفاتيح الشر.

وكانت تشير إلى الصندوق الصغير الآخر.. فسألتها:

- ولماذا إذا تجمعين بين الاثنين؟ وما شأن الملوك بالسحر وأسراره؟

- قلت لك.. لا أحكم به.. إنما أحرسه.

- إذا لم تكن بأسرار الناسوع المقدس.

هزئت رأسها في يأس وقالت بتنهيد:

- يا بنيتي.. كفناك ظلها لأملك. أنا أكثر من يحبك في هذه الدنيا.. أملك لا

نحتاج إلى قوة عليا كي نتحكم.. إنما أنفذ الوصية وأبقى على الأمانة.. وأحفظها من

الأيدي الخائنة المترصة.. لكن أتمرن بماذا أحكم؟

- بماذا ؟

تحركت من أمام صومعتها السرية هذه عائدة إلى مخدعها وقالت:

- عطيني الحياة أن للإنسان أعداء ثلاثة.. إما العلة.. وإما فقر الحال.. وإما

نفسه.. وأنه إذا اتصر على نفسه سحر الطبيعة تلذمته.. فاستعان على فقر الحال..

وإذا ما اتصر على فقر الحال.. صادفته العلة.. فإن تجاوزها بصبر بلغ الحكمة.. وأنه

إذا بلغ الحكمة.. ملك الدنيا بما فيها.. فشيء وأنشأ وعلا ولم يتكبر.. فهم الكون وإليه

اتقى.. فقال الحيانين وصار ملكاً بمنى.

وقالت سائلة وهي تنظر إلي بعين في عيني:

- أنظنين أن الملوك لا يسكنون سوى القصور؟!

- ولم كان التحايل على القصر والكهنة إذا مادمت لملكين كل هذه الحكمة؟

- يا بنيتي.. قلت لك.. إن مصر لا تقبل إلا ملكاً.. ضحي إنساناً واحداً على

الأرض وسيقوم بزراعة عشرات الأراضي.. ضحي عشرة أفراد وسيزرعون مئات الأراضي.. لكن ضحي مئة واحد منهم دون ملك عليهم وسوف يقتلون بعضهم بعضاً على ما زرعه الأولون.. إنما نحن الطير والشر جعمان في ناموس قديم قديم.. لا ينهه إلا خالقهم.

وحيث لوقت قصير وبدا أنها انتهت مما دعيتي إليه، ثم قالت وهي تشير إلى هرمزة السرية:

«أما وقد عرفت عن الصندوقين.. فقد صرت مسؤولة من بعدي عن خلفهم.. هذا ما دعيتك بسببه.. هذه أمانتك التي سوف تحميها طوال عمرك. فت من مجلسي واتجهت إلى الباب لأنصرف فقالت بسجب:

«أن تودعي أمك حتى قبل رحيلك؟»

نظرت إليها وللمرة الأولى قلت لها في لوم شديد:

«ألم تخكري بحكمتك العظيمة هذه ما الذي سيجري علينا على يد «تحتمس» ربيته بعد أن تذهبي أنت إلى نعيمك الأبدي؟»

«قلت لك سيد الكهنة هذا الأمر.. وسوف نجد لهذا حلاً في حينه».

«أنظنين حقاً أن «تحتمس» سيصبر علينا إذا ما رحلت.. وأنه سوف يعمل حسباً للكهنة؟ بعد أن يكون قد ضاع منه العرش كل هذا العمر؟»

وصمتت أبي هذه المرة ولم يكن من ردّ لديها.. فقلت لها وأنا راحلة في حتى نخرج صرقي محتشماً:

«لتستدري هذا بحكمتك سريعاً.. فربما لا يسفنا الوقت.. ولتستدري الآلهة ربما ساعدتك في هذا أيضاً».

ثم انصرفت عائدة إلى غرفتي وكلّي غضب من الأسرار التي أطلعني عليها أمي
وحلفتني أسامتها دون رغبة مني في ذلك.. وازداد يقيني بأنني حتماً تاركه هذا القصر
قريباً.

عند امتحالي من جناح أمي إلى جناحي الخاص مررت في ممر مكشوف بين
المينين، وكان الليل قد حل، وكانت نافذتي ظاهرة من بعيد فوق البستان الصغير
الذي كان يرعاه «حور» قبل أن يحضني ذلك النهار المشتم.. ثم شئت إلى الحديقة
وانتبه الحرس لقدومي فأمرتهم بالانصراف للوقوف مع بقية الحرس الآخرين خلفي..
ورحت أصفد البستان الصغير أبحث عن رائحة «حور» بين زهوره.. واستد لي
الحزن الشديد وبدأت عيناï تدمان بجلست على إحدى أرائك الحرس.. ونظرت
إلى النجوم بعيداً في السماء ثم أسقطت رأسي بين يدي ورحت أتهد في حزن
وروحدة.. حتى جاء صوت «منعموت» من خلفي سائلاً بهدوءه الشديد:

- مالك يا بنتي.. هل صار اجتماعك مع جلالة الملكة إلى أي سوء؟

لم تواتني القوة لأرفع رأسي منتبهة لما يقول.. فرددت من بين حزني الشديد:

- صار إلى ما صار إليه.. لم يعد شيء يعني في هذا القصر.

فوضع يده فوق كعفي ورفع يده الأخرى ذقني حتى لمع الدموع في عيني فقال
بقلبي بالغ:

- مالك يا زعفرانة؟ ماذا بك؟ احكي لي يا طفلي الصغيرة.

قلت بين بكائي:

- ضاع قلبي مني.. ذهب لا أدري إلى أين.

- وهل تحصن عن قلبك هنا تحت قدميك يا حبيبي؟

ثم استدار وجلس جوازي وتابع سائلاً:

أول لي يا طفلي الصغيرة، يكاد قلبي أن يفسر عليك كلما ضمت راحة
الوحدة هذه ضوح من قلبك كل يوم.

راحة الوحدة؟ وهل للوحدة راحة؟

يا حبيبي.. إن كان للحرف راحة.. وللحزن راحة.. وللشوق ألف راحة..

كيف راحة الوحدة؟ وهي مزج من هذا كله؟

أملت كلامه وقلت:

ماذا أفل إن كانت وحدتي هذه قد أصبحت مشيئة الآلهة بمنين؟

يا بني.. لا تغلبي جلالة الملكة.. تعرفين أكثر مني عن حبها لك وخوفها

عليك؟

دائماً ما تدلح عنها يا «سنموت» الحكيم.. لكن قل لي.. وأنت من تحذني

عن وحدتي.. مالي أراك غارقاً في وحدتك أنت منذ كنت تحلني وأنا صغيرة في

هدبي.. أين أحبتك يا «سنموت» الحكيم؟ أين عشيرتك ووفاءك؟ أين أصدقائك؟

هل هموا جميعاً من هذا الذي تعيش فيه ؟

أطرق برأسه إلى الأرض وبدأ حزنٌ يغزو وجهه.. ثم عاد شاخصاً ببيهره إلى

السما حيث كانت أعين رجع الحافظة متلاثة هنالك.. ثم قال وهو ما زال ينظر إليها:

رحل من رحل.. وأبسط من أبسط.. وسرقني العمر حتى صرت ما صرت..

وتهد طويلاً ثم أكمل:

وكان العمر كلما مر تخففت شيئاً فشيئاً من أحمال الحبين.. وحلت بدلاً منها

أوزار ذواهم.. ولما طال الطريق.. ووجدت خطاي فيه قد قلت.. وظهري فيه

قد لان.. نظرت معي ولم يكن شيئاً معي.. فطست أن يزد الذكرى أهل وأبقى من

عمل صاحبها.

وكانت عيناه تلحان من دموع احتبست فيما.. ولما لاحظت نظرتي إليه قام من
مجلسه جوارى وقال لي:

« ابعثي بنفسك عن قلبك الذي ضاع منك يا بنتي.. ولا تنتظري ذلك من
أحد.. ولا تحركي نفسك لمخالب القصر.. فهي لن تنهدأ إلا بعد أن تنتهي منك..
ومم بالرحيل فاستوقفته سائلة في غير ابداء لاهتمام:

« ألم تطورا أي شيء بعد عن ذلك الصبي.. أعني الذي كان يدعي الصمم؟
فابتسم بين دموعه التي جرت رغماً عنه على خده وقال:

« لا شيء.. محدد بعد.. لكن أغلب الظن هو ما قاله البيت الذي جلبته منه.. هو
أحد أحفاد «كاموس» الراحل أو أحد الملوك السابقين.. سأعطيك إذا تأكدت من
شيء.. لا تقلقي يا صغيرتي الجميلة.

ثم ودعني بابتسامة طيبة ورحل.. وعدت بعدها أنظر إلى أزهار البستان التي
بدأت تذب من قلة العناية بها بعد هروب «حور» ثم عدت إلى غرفتي بمحاسني..
وقفت في الثالثة أكل مراقبتي للنجوم واستقبلت بي الوحدة من جديد وعادت
تضرم قلبي فقلت أناجي «حور» في توسل: «يا نوري الذي حل سريعاً ورحل
سريعاً.. عد إلي.. أنتع ناغلري بوجهك الجميل.. وطمئن قلبي الذي لم يهدأ منذ أن
رحلت.. عد إلى حبيبك التي وهبتك نفسها ذات مرة فأبيت إكراماً لمرتها.. رغم
ما كان بادياً من حب في عينيك اللتين كنت تماجيني بهما.. عد إلى حبيبي فأنا
أشتاقك ولا أعلم كيف أبحث عنك.. عد إلي أو دلني كيف أجدك».

ثم أطلقت ناظرتي ومسحت دموعي التي أفلتت مني وناديت على إلهي المهرب
رع قائلة: «هيني إشارة من لدنك تصبرني على شوقي وأيامي.. فلإني وحيدة..»

وجدت لأتام وأزيد من توسلاتي لرج كي يندرفي «حور» في أحلامي..

وعندما صحت من نومي ولت بفتح شرفي وجدت ثاجاً من الزهر مزبناً
ببضج.. ووضعت زهرة ذهبية رفيقة لم أرَ مثلها في حياتي كلوالة في مقدمة
الهاج.. فارعدته في فرج وعاد قلبي إلى صدري من جديد.

وطئت من «مدينت» أن الملكة قد أصدرت مرسومًا ملكيًا في صباح اليوم
بقتل «سنموت» الحكيم منصب مدبراً لبيت آمون الرب.. وعدت أسترجع ما لاله
لي «سنموت» ليلة أمس.. وخطرت إلي فكرة مبهمة وكنت متأكدة أن مبردي
رج هو من أوصى إلي بها، فسللت له شاكرة كرمه ورعايته.

بعد شهر جاءت الأخبار بحملة بالبشارة من بونت.. وقد اقتربت السفن من
سواحل الأخضر العظيم.. وأخذ الكهنة يترقبون الهدايا والمنح العظيمة التي وعدتهم
بها الملكة من جراء القيام بتلك الرحلة.. وأخذت البلاد ترتدي مظاهر الانهاج
متظرين التحيرات الكثيرة مثلهم مثل الكهنة.. وقد اتجهت أنظار الناس وقلوبهم
نحو الملكة ويتهل لها في تضرع بعد أن شكك المترهبون من حاشية «إيست»
وأهلانها في جدوى هذه البعثة التجارية الضخمة وإمكانية نجاحها وعودتها سالمة
من تلك البلاد البعيدة الغريبة..

توصلت إلى أمي الملكة أن تتركني أذهب مع الموكب الذي سترسله لاستقبال
الفرج الأول من الرحلة العائدة من بونت عند سواحل الأخضر العظيم.. فأبت
وخافت علي.. لكنها قبلت في النهاية مشرطة علي أن أذهب أولاً في بعثة صغيرة
إلى شبه جزيرة القيروز مع «عتمس» بصفتي الزوجة الملكية له.. على أن يرافقني
الحرس الخاص الذي يعينه «سنموت» بنفسه.. وكانت بعثة صغيرة لتفقد المناجم

المدة الموجودة هناك.. ولإرساء حكم «نخمس» الملك على الحدود والأقطار
البعيدة التي أحبُّ هو مسؤولية العناية بها لميله الشديد للحرب ولطاردة البارزين
الشعدين على الحكم..

وافقت رغماً عني في النهاية أملاً في أن يتركني الملكة أخرج من بين أسرار
هذا القصر.. فارتدت عني فوق رأسي التاج ذا الرشمين الطويكتين.. ورافقت
«نخمس» في بعض المراسم التقليدية التي أكرهها.. وكنا نفرق مباشرة بعد انتهاء
هذه المراسم ولم أذعه يمضي أو يفرد بي حتى عدنا إلى طيبة.. ومكثت ليومين اثنين
ثم تحركت إلى المرفأ الذي شيد على ساحل البحر حيث كانت السفن العائدة من
بونت قد اقتربت.. وصرت أتردد بين القلعة الصغيرة التي بناها المهندسون حديثاً على
ساحل البحر، وبين انليم في المرفأ التي نصبنا الجالية للنبلاء الذين حضروا معهم
عدد من كهنة المعبد ركنية مسلمة من الحرم.

صرت أفكر في طريقة تسمح لي بالتخلص من الرقابة الحرجة المفروضة علي في
القلعة وفي النخبة التي اخترتها قبالة الساحل.. واستغرقت في النهاية على التحرك
عندما تصل أول السفن.. وفور أن ينشغل الجميع بالحديث عن الطيريات والعيائب
التي قد تأتي بها.. وعندما اثشر خبر اقتراب أول السفن من المرمى المنصص لها
على ساحل البحر وبدأ المهرج يفرزو المكان واندفع معظم الناس إلى المرمى وأرتبك
الحرم وتهرب عددٌ منهم تاركاً خدمته وذهب مع مَنْ ذهبوا، عدت في حرم
شديد إلى خيمتي ألمم أشيائي لأفر هاربة.. وفور أن دخلت النخبة وجدت امرأة
تضع عباءة من عباءات الجوارى على جسدها وتوليقي ظهرها.. فسألتها في صوت
مرتبك من رآها المظيف:

من أنت.. وماذا تفعلين في خيمتي؟

لكن أن استدارت إلي وألقيت عباءتها أرضاء.. فوجدته «حرو» وقد كان
منفياً.. فأنمت عيناى دهشة ورئس قلبي فرحاً وألقيت بنفسي بين ذراعيه..
ورحت إليه.

يحيى

أنهيت الترجمة للبردية الثانية.. ولم أصل إلى شيء وتأكدت من وجود بردية نالسة كما هو مذكور في التقدّمات في بداية البرديتين.. شككت أنه في الغالب قد سرقها أحد أبناء مسعود.. وقد صار شيخاً كما حكيت باسمينا.. وتجارة الآثار المبروقة في مدن الأقصر وأسوان لا تهدأ ولم تنتهِ أبداً.. وبرديات أصلية وملكية كهذه يدفع فيها المولعون بجمع التحف والآثار مبالغ طائلة.. لكن ما جعل قلبي غير مؤكد هو ما الذي يجعل السارق يأخذ بردية واحدة ويترك الأخريات؟ ما أهمية الثالثة عن الأولى والثانية كي يتركها هكذا؟

نظرت إلى ياسميننا النائمة كالطفلة من فرط السهر والإرهاق ويبدو أنها امتثلت للنوم سريعاً وهي تقرأ ترجمتي للبردية الأولى. قمّت إليها وسحبت الأوراق برفق شديد من يدها كي لا أوقظها.. ووجدت يدها باردة بشدة وكانت آخر لبالي ديسمبر والبرد صار شديداً، ففردتُ أحد أغشية الفراش من تحت قدميها

في حرمي وقمت بتغطية جسدها وفتحت هي عينيها ونظرت إليّ بصعوبة، ولم تلبث أن عادت للنوم في ثوانٍ دون أن تلاحظني. ابتسمت لبراءتها الشديدة ولم أدر بنفسى إلا وأنا أطبع قبلة هادئة فوق جبينها، ثم عدت أشرد فيما قرأته في البردية الثانية وأفارقه بما درسته من التاريخ. وكان كل ما وصلنا في الكتب يتوقف عند اللحظة التي انقضت فيها الأميرة «نفرو- رع» بين العام الثامن والعاشر لحكم والدتها الملكة حتشبسوت.. وكل الآثار والتماثيل التي شيدت لها كانت لها وهي بعد طفلة صغيرة بين يدي مربياها ومهندس القصر ذائع الصيت «سنموت».. وكان آخر ما وصلنا من أخبار عنها هو نقشٌ وُجدَ في سرايط الخادم^(١) ببناء في مناجم الفيروز القديمة أن ذاك.. وكان النقش يجمع بين الأميرة نفرو- رع وأخيها من أبيها.. وقد ذكرها النقش على كونها الزوجة.. في الغالب كانت هذه هي الرحلة التي حكى عنها الأميرة في تلك البردية والتي قامت بها نفيذاً لرغبة أمها الملكة..

سافر بي التفكير إلى تلك الحقبة الزمنية البعيدة منجاوراً مشات السنين التي تفصل بيننا.. وكنت مشتبهاً بنشوة كبيرة لم أعدها في حياتي منذ قمت بدراسة التاريخ.. ورغم تعمي البالغ لم يهدأ رأسي عن التفكير فيها.. وأخذت أتساءل بيني وبين نفسي عما يكون قد آل إليه مصير البردية الثالثة.. وقد كان من الطبيعي أن تكون في مقبرتها الملكية.. إلا أنها كانت قد سرقت بالكامل مثل معظم المقابر الملكية في وادي الملوك.. ورحلت أفكر وأفكر حتى غلبني النوم.

^(١) تقع في جنوب غرب شبه جزيرة سيناء ويوجد بها معبد حتحور

في الحلم جاءني «سنتموت» وكان جالساً مع جدي في صالة بيتنا القديمة.. وكانت إلى جواره زينب وهي طفلة وكان يمشط لها شعرها في هدوء ونعومة.. ولما انتهى خلع شيئاً كان يرتديه حول عنقه وأعطاه لي.. ولما نظرت فيه وجدتها قلادة علق فيها مفتاح الحياة.. وكانت زينب تنظر إليّ وتبتسم وهي تلملم شعرها. واستيقظت فجأة من الحلم ووجدتني قد نمت مكاني على الكرسي أمام الفراش.. وكانت ياسميناً قد صحت من نومها مرتدية ملابسها كاملة ووافقة أمام المرأة تعدل من تصفيفة شعرها.

حاولت أن أستعيد تركيزي وقد فقدت الصلة بعالم الواقع بسبب الحلم الأخير بـ«سنتموت» وزينب.. ولما تأكدت من صحوي سألت ياسميناً عن الوقت فأخبرتني أن المساء قد حلّ منذ فترة وتجاوزت الساعة التاسعة.. ولما نظرت إليها ثانية ووجدتها تعدّل من هندامها وهيئتها أمام المرأة سألتها في فضول:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

فردت بمرح:

- سأقوم بتوصيلك.. أنا لا أستقبل غرباء في غرفتي!

فاجتني قولها الغريب هذا ولما وجدت الدهشة قد غمرت وجهي ضحكت وأشارت إليّ قائلة:

- كان يجب أن ترى وجهك الآن.. أمزح معك يا بحبي.

ثم اقتربت وقالت برفقة:

أعلم أنك كنت سترحل فور أن تستيقظ كي لا نظل وحدنا في

القرية.. ففكرت أن أستيقبك قليلاً وفكرت أن نذهب لنسهر قليلاً في المارينا.

ونظرت إلى عينيها، وكانت قد زيتها بكحل مثل الذي كانها في مرس القرية بالأمس فقلت:

- أرى أنك قد أعجبتك زينة نساء القرية.

- نعم.. وجدت عيني أكثر جمالاً في الكحل.. لا أعلم كيف لم أجرب ذلك من قبل.. هل أعجبتك؟
- نعم.. جداً.

ثم أمسكت يدي وقالت وهي تنظر إلي:

- أرى أنك قد تفهمت إخفائي أمر البرديات عنك.

- بشكلٍ ما.. لكن كان من الأولى أن تخبريني من البداية.. ولا تركبني للشك هكذا.

- أنا آسفة.. والآن هيا قم واغسل وجهك.. الوقت تأخر والمارينا تغلق معظم الكافيهات فيها مبكراً منذ بدأ الشتاء.

- أوبة مارينا الآن يا مجنونة.. لن أفعل أي شيء قبل أن أفهم سر هذه البرديات.. ألم تقرني البرديات الأولى؟

- قرأتها هي والثانية أيضاً وأنت نائم.. لكن لم أفهم شيئاً.. بالناسية.. ما هو التاسوع المقدس هذا؟ فهمت من حكاية الأميرة أنه شيء كبير ذو شأن.

نسميه تاسوع هيلوبولس المقدس.. نوع ما من تحالف لكبار الآلهة القديمة التي عبدوها.. تحكي الأساطير القديمة عن دورهم

في بدء الخلق وماهية الصراع الأزلي بين الخير والشر.. كان له أشكال عدة وله نظائر في ثقافات أخرى.. التاسع المقدس الذي تحدثت عنه الأميرة والذي كانت ترعاه أمها الملكة هو ما يسمى التاسع العظيم.. فقد كان يجمع بين المعبود الأهم لديهم وهو «رع» جنبًا إلى جنب مع ست وإيزيس وأوزوريس أصحاب الأسطورة الشهيرة.. وخمسة آخرين من أهم الأرباب لديهم في ذاك الزمان.

هزت ياسمينا رأسها في فهم، وكانت يدها ما زالت ممسكة بيدي.. سحبتها في لطف وتمججت بذهابي إلى الحمام لأغسل وجهي وقلت لها:

- ما وصلني وفهمته من البرديات هو أن حتشبسوت الملكة كانت تقوم على حابة لطفوس أو صلوات نخصهم.. جنبًا إلى جنب مع الصندوق الآخر الذي تحدثت عنه الأميرة في البردية.. صندوق أسرار السحر المحرم.

وجاء صوت ياسمينا وأنا أغسل وجهي.. ماثلاً في ممرود:

- أنظن أنه موجود؟

- ماذا تقصدين؟

- أعني هذا السحر واللعنات وكل هذا الذي كانت تحكي عن الأميرة «نفرو-رع».

خرجت لأجفف وجهي وسألتها منشقة فأحضرتها إلي وهي في نفس شرودها وقلت لها:

- ربما.. وربما لا.. هذا عالم كان مليئًا بالأسرار بداية من بناء

الإعرامات والتفان علوم معقدة مرتبطة بالرياضيات والطبيعة
والنجوم والفلك وأسرار التحنيط.. لا يوجد ما يمنع وجود السر
ب. الحزين هو أننا لم يصلنا منها فعلاً إلا الفتات.. بينما ضاع منها
ما ضاع على مر عصور طويلة قضت حروبها وثوراتها على ما بقي
من تلك الحضارات.. فلم يبقَ منها إلا المعابد والتقوس.

وعادت باسمينا لتهدر رأسها في نفس الشرود.. وقالت:

- لكنني أصدق أن هذا السحر كان موجوداً..

قلت: ربما. الآن كل ما يشغل بالي.. أين ذهبت البردية الثالثة؟

- بحكم عملك السابق.. أين نظنها قد ذهبت؟

- أكثر شيء أظنه، أنها موجودة في غرفة الدفن الخاصة بالأميرة ولم
تكن مع البرديات الأولى والثانية.. المشكلة أن غرفة الدفن المزعومة
لقد.. سرقت منذ زمن.. هذا إن كانت غرفتها من الأساس وليست
بمردئوبة.. وربما كانت البرديات الثلاث في الغرفة التي سرقت في
الماضي.. ووصلت البردية الأولى لجذمتك بشكل أو بآخر.. لكن بظل
السؤال: لماذا لم تكن البردية الثالثة موجودة مع مسمود وآل عواد
من البداية؟

أخذت باسمينا تتمشى في الغرفة وتفحص البرديات بيديها
وتقلب فيها وقالت وهي تنظر إلى البردية الثانية:

- المروض كله معقد ومرهق.

- ربما لو ذهبنا إلى بيت «آل عواد» للاستفهام أكثر.

- ربما لكن ليس الآن.. الآن عليك أن تعزمي على فهوة في
المريضا.. وسأسمع لك أن تغزل في قلباً.. وربما أساعك.

وكانت تبسم وتنظر إليّ بطفولتها التي تظهر بين حين وآخر..
تهدت في صرٍ على إلحاحها للذهاب إلى المارينس الآن.. وقلت:
- هل أنت فعلاً لا يهمك الموضوع إلى تلك الدرجة.. ألا ينفذك
الفضول حتى لمعرفة ما وراء هذه البرديات؟

سكنت حركتها تمامًا هذه المرة وغادرتها روح الطفلة التي كانت
منذ دقيقة.. وعادت عينا ياسمين القوينان اللتان تقتحمان روحي
فرد أن تنظر إليّ في عيني وقالت وهي تقترب:
- كان يهمني أن أعرف في البداية.. والآن قد عرفت ما وراءها..
لم يعد شيء بهم.

- وما هو وراءها؟

- وراءها أنت يا يحيى.. أن أجذك.

واقتربت أكثر.. وقالت:

- لا تدرك الراحة والطمأنينة التي شعرت بها اليوم عندما قمت
من النوم ووجدتك نائمًا جوارى على المقعد.. للمرة الأولى في حياتي
أجرب إحساس الأمان هذا.

ثم أراحت رأسها على صدري ولفست ذراعيها حول عنقي في
قوة وتابعت في همس:

- وأنا لن أتنازل عن هذا الإحساس ما حييت.

ووجدتني أطوقها بين ذراعي وأضمها إلى أكثر وأكثر.. وغمرني
سكينة لم أكن أعرفها منذ رحلت زينب.. فتركت نفسي للسكينة
نغمري وترى على روحي.. لكن جزءًا عنيذًا من عقلي كان هناك..

مع البرديات القابعة على الطاولة فجاورها علامات استغهام كثيرة..
وسعرت باسمينا بشرودي .. فقالت وكان صوتها خافتًا تمامًا:

- ماذا الآن.. لماذا تقاوم.. ماذا تريد أن تثبت أيضًا؟

قلت وأنا أضغطها أكثر:

- لا.. لم أعد أقاوم.. فقط يأخذني الفضول بشأن البرديات ولا
يريد أن يتركني وشأني.

- دعك من كل هذا الآن.. لا شيء يهم الآن سوانا..

- لو أعرف فقط ما علاقتي أنا بكل هذا.. ولماذا قصدي
معمود تحديدًا؟

- وما أدراك.. يمكنك أن تسأله بعد ذلك.. هذا هو ما أخبرني
بازين.. وعمار والملثم الذي كان معها.

- الملثم.. أي ملثم؟

- الرجل الثاني الذي حضر مع عمار عند مقبرة روز.. الرجل
الذي كان يملك المفاتيح الخاصة بالمقبرة.

انتهيت لما تقول ودار في رأسي ظن غريب فأبعدتها بهدوء عن
صدري وسألتها وأنا أنظر في عينيها بفضول شديد:

- وكيف كان يبدو هذا الملثم؟

- قلت لك من قبل بما يجي.. كان شكله مهيبًا في الليل ولم ألمح
له وجهًا، كان يضع عباءة بيضاء هائلة على جسده ويلف معظمها
حول وجهه فلم أر منه أي شيء.

قلت وقد بلغ فضولي متناه:

- عبادة بيفاء.. وملثم؟

- نعم.. كان الوقت ليلاً، وكان يبدو واضحاً في عباءته تلك وكان منظره مرعباً.

عدت لأجلس على المقعد أفكر ورأسي تتناوبه مشات التفسيرات لوصفها لهذا الملثم.. وعدت لأسألها:

- ما الذي قاله لك مسعود تحديدًا بشأن قدومك إلى هنا؟

- لم يقل لي إنها قال لزين.. وزين هو الذي أخبرني.

- نعم نعم أفهم.. أعني ما الذي قاله لك نصًا؟

- قال زين.. اذهبي إلى الغردقة.. إلى وادي حبيسة، وابحثي عن كبيرهم الذي يعمل هناك هو الذي يملك الإجابة على أسئلتك. قمت مرة واحدة من فوق المقعد وقد فهمت أخيرًا وصحت:

- كبيرهم.. كبيرهم.

وسألتني باسمينا:

- ماذا؟

- لم يكن يقصدني يا باسمينا.. لقد كان يقصد الشيخ ياسين.

ونظرت إلى البرديات مرة أخرى، وقلت بعد أن أدركت كل شيء..

- الضربح!!

انطلقت السيارة في الطريق بسرعة داخل الممر الجبلي في الطريق

إلى القرية.. وكانت الظلمة حالكة وكانت ياسميننا تقول:
- ألم يكن من الأفضل أن نذهب في الصباح.. أرى الطريق بصموية.

فرددت:

- لقد رأنا عارف صباحًا وأنت تدخلين إلى غرفتي.. وإن صح ظني فهم يعرفون الآن بأمر البرديات وبكل شيء.. لا يمكنني القامرة والانتظار حتى الصباح.
- الطريق سيء جدًا.

- لو كنت حكيمة لي منذ البداية بالتفصيل ما كنا تأخرنا هكذا.

التفت إلي ياسميننا وقالت بتحفظ:

- وكيف لي أن أفهم من كان يقصد زين.. كانت معي برديات مكتوبة باللغة الهيرغليفية.. وكنت أنت خبيرًا باللغات وتعيش في وادي حبيبة.. ما الذي يجعلني أفكر في شيخ قبيلة بدوية يقطن الجبال؟

أشرت إليها أن نتبه إلى الطريق وقلت:

- في الغالب هم ليسوا بدوي.. أظن أنهم أقرباء لبيت «آل عواد» بشكل أو بآخر.. على الأقل الشيخ ياسين وولده.

ثم عدت أنظر إلى الطريق وأفكر في البرديات.. لو صح ظني فقد عرفت الأميرة الزعفرانة مع «حور» هذا عبر ساحل البحر الأحمر ونزحتهما شمالًا على خط الساحل.. واستقر بها المقام بين الجبال.. وربما عاشت هناك حتى دُفنت فيها أصبح بعد ذلك قرية الجبل.. لكن لا يمكن التأكد إلا برؤية ذلك بنفسي.. وفلت لي ياسميننا!

- أتعلمين.. لو أننا على صواب، فنحن على بعد خطوات من أهم كشف تاريخي في العصر الحديث.. ربما أكثر أهمية من مقبرة «توت عنخ آمون» نفسها.. ستكون هذه مقبرة ملكية بكر لم يدنسها إنسان من قبل.

نظرت إليّ باسمينا وقالت في ابتسامة خبيثة:

- الآن كل ما أصبح يهمك هو المقابر والاكتشافات.. لا تسر أنه لولا فهمي الخاطئ لكلام زين لما تقابلنا من البداية.

ثم عادت تنظر إلى الطريق.. وكنت أبسم فقد كان كلامها صحيحاً.. فلولا ما حدث لكنت قابعاً الآن في غرفتي أنفاسم وحدي مع صمت الجبال من حولي.

وصلنا القرية بعد نصف ساعة من القيادة المتهورة لياسميننا.. وزاد يقيني أننا على الطريق السليم عندما لمحت قبل مدخل القرية بدقائق من بسمونهم غفارت الصحراء مرتين متتابعتين.

دخلنا القرية وكانت مظلمة بالكامل ترقد في عمّة الليل.. ولم يكن هنا أي مصدر للإضاءة سوى نور خافت مصدره مسجد للقرية جوار المقام.. وكانت هناك إضاءة خافتة أخرى مصدرها مصباح صغير نسب أحدهم من عُرس الليلة البارحة.. طلبت من باسمينا أن تتوقف أمام المسجد مباشرة في الساحة التي كان فيها العُرس.. وقبل أن أخرج من السيارة قلت لها:

- انتظريني هنا، ولا تخرجي من السيارة مهما حدث ولا تركبي ابوابها مفتوحة.. وكوني متأهبة للحركة في أي وقت.

نوترت باسمنا بعد ما قلته لها من تحذيرات وسالت:

- ايو جد خطر ما؟

- لا.. لا أظن.. لكنه احتياط.. نحن لم نفهم كل شيء بعد.. وربما

بتنا نخطئ في ظنوننا.

ثم أخذت بردية واحدة من البرديات التي وضعتها في حفية السيارة ولم آمن أن أتركها في الاستديو ولا في غرفتي بالكامب.. ولم أكن أستطيع تركها من يدي وقد كنت أدرك قبحتها الكبيرة.. ثم دخلت إلى المسجد.. وكان الشيخ ياسين هناك كما توقعت. أمام المنبر الصغير للمسجد وكان جالساً يقرأ في صوت خافت.. وصدق على ما كان يقرأ ونظر إليّ في صمتٍ وقلت:

- السلام عليكم..

فرّد بهوياً شديداً:

- وعليكم السلام والرحمة.

وأغلق المصحف أمامه ثم سأل:

- لماذا تأخرتم هكذا يا ولدي.. نتظركم منذ الصباح.

فاجاني رده هذا.. وقلت في رأسي في الغالب قد أعلمه عارف
بتحركنا.. ثم سألته:

- تنتظروننا؟ من الذين ينتظروننا؟

- أنتظرك أنا.. وولدي يزيد ومن كان يتبعكم.

ثم همض من مجلسه وقام بتهدة الإضاءة في المسجد إلى أنصى
درجة ممكنة.. وبدأ يقترب.. فسألته وأنا أشير إلى البردية في يدي:

- أتعرف شيئاً عن هذه يا شيخ ياسين؟

فقال بعد أن اقترب مني ونظر إليهما.. ثم تناولها من يدي وأخذ يتفحصها بين يديه ويقاها.. ثم أعادها وولاني ظهره وانجى إلى خارج المسجد وقال:

- طيلة عمري وأنا أنتظر اليوم الذي أعرف أي شيء عنها يا ولدي.. أي شيء.

ثم تابع وهو يخرج من المسجد، وكنت ما زلت في مكاني:

- ثواني لأوقف يزيد ابني ثم أعود إليك.

ونظر إلى سيارة ياسميناء وقال في لوم:

- يمكنك أن تطلب من السيدة القدوم.. نحن قوم مسالمون يا

ولدي ولا خوف منا.. أنت تعرفنا منذ زمن!

ثم تركني في المسجد وخرج.. وبقيت واقفاً في مكاني وقد تأكدت ظنوني جميعها ولم يبق إلا أمراً واحداً كلياً فكرت فيه وجدته مبالغاً فيه.. لكن لم يكن لدي شك في أمر آخر.. وخرجت إلى باب المسجد وأشرت إلى ياسميناء أن تنتظر.. وطمأنتها بإبسامة كانت مرتبكة.. ولاحظتها ياسميناء فازدادت توترها خاصة بعد أن عاد الشيخ ياسين ومعه يزيد ولده.. وكان بادياً عليه الضجر وقد أخرجناه من بيت عروسة الجديد.

كان يزيد يحمل في يده بضعة أعواد غليظة من جذوع الأشجار المقلمة في نهايتها رأس مطعم من جريد النخل.. يبدو أنها تستخدم كمشاعل.. وكان الشيخ ياسين في يده زجاجة صغيرة وحلقة معدنية

مدقة بهما مفتاحان كبيران في طرفيها.. وأشار إلى الشيخ ياسين وإلى ياسمين فخرجتُ من المسجد وتوجهت إلى ياسمين التي كانت ترانق وقد بلغ قلقها ذروته.

خرجت من السيارة وتبعنا الشيخ ياسين ويزيد إلى الساحة الجانبية.. حيث كان يوجد الباب الخلفي للدخول الضريح.. ولم أسأله لم لم ندخل من باب المسجد.

أولج الشيخ ياسين أحد المفتاحين في الباب الخشبي العتيق، وظل يحاول فتحه لكنه لم يفتح.. وقد بدا أنه قد مرَّ عليه زمن لم يمْ أحد بفتحه.. ثم أخذ يزيد منه الزجاجة وسكب بعض ما كان فيها من زيت للتشحيم داخل القفل.. ثم حاول مع الباب مرة أخرى.. وظل الباب يقاوم دفع يزيد والشيخ ياسين فانضمت إليهما وبقينا نحاول حتى استجاب القفل ثم فُتح الباب أخيراً. وفام الشيخ ياسين بإشعال أحد الجذوع التي كانت في يديه.. ثم مدَّ ذراعه إلى الداخل والمشعل في يده.

كانت غرفة صغيرة أدركت من موقعي أن جدارها المقابل للباب هو الجدار الذي يفصلها عن الضريح.. وقد عزلت عنه بهذا الجدار فقط، وكان في منتصفها باب خشبي صغير يصل المقام بغرفتنا هذه مباشرة. ولم يكن من باب آخر من ناحية الداخل الخاص بالمسجد.

قام الشيخ ياسين بإخراج المفتاح الثاني من الحلقة التي كانت في يده، وأولج المفتاح بالباب ففتح مباشرة دون مقاومة مثل الباب الأول.

وكانت الإضاءة الخضراء القادمة من الغرفة الكبيرة التي تحتوي
الضريح نجاء المجد تساعد على الرؤية بشكل كبير.. ودخل الشيخ
ياسين ويزيد.. ودخلت خلفهما ومن ورائي ياسمين.

كان يتوسط شاهد الضريح من الداخل صندوق خشبي فوق
مفرش كبير من القماش من نفس اللون الأخضر الصادر من
المصاييح ومن نفس لون الجدران الخشبية للضريح من الداخل
والخارج.. وكان الصندوق غويها كشاهد ضريح للناظر من خارج
المقام.

قام الشيخ ياسين ويزيد بدفع الصندوق من مكانه فتحرك في
يسر تحت دفع يديهما.. وبعد ذلك قام يزيد بطي السجادة التي
كانت تحت فوجدنا حلقتين معدنيتين لباب صغير يفضي إلى أسفل
الضريح.. ومدَّ يزيد يده إلى الحلقتين المعدنيتين اللتين كانتا في الغطاء
الباب الأرضي وجذبهما إلى الخارج بقوة شديدة حتى فتحه.. فظهرت
لنا درجات عدة تقود إلى ما هو كائن تحت الضريح.. وقال الشيخ
ياسين في صوته الهادئ دوماً:

- انتظروا دقيقة أو دقيقتين ليتجدد الهواء بالداخل.. لم يُفتح هذا
المكان منذ زمن بعيد..

والتصقت بي ياسمين وبدأ الذعر على وجهها وهمست:

- ما الذي يوجد بالداخل.. أهذه مقبرة؟

فاومأت بالإجابة.. ثم قلت للشيخ ياسين:

- منذ متى وأنتم هنا؟

- سنين عدة يا ولدي.. سنين لا يعرف أحد عددها.

.. وهذا الضريح بالطبع مجرد تمويه

- في هذا الزمان ضريح.. في زمان سابق كان معبدًا صغيرًا يسكنه راهب.. ومن قبله ربما كان كهفًا.. لم يعد أحد يذكر ما كان عليه.

فسألته:

- والغربة؟ أأهم من البدو فعلاً؟

- من البدو ومن الصعيدي.. من النوبة ومن القبائل الليبية ومن الواحات.. من كل مكان.. لم نرفض شيئًا جاءنا.. ما دام قد جاء في سلام.

- ومن يعرف عن الضريح؟

- أنا وولدي يزيد فقط.. ومن قبل أبي وجدي وأبوه وجده.. كنا نقل الأمانة بعضنا إلى بعض.. ونسلمها دون أن نعرف ما بها.. وكل ما نعرفه أننا نتظر سيدتنا وقت أن تأتي.

وكان ينظر إلى ياسمين التي لم تكن تفهم شيئًا فألته ياسمين:

- سيدتكم من؟

وقال الشيخ ياسين:

- أحسست بذلك عندما رأيتك بالأمس بصحبة الدكتور.. رغم أننا باتينا الكثير من الغرباء.. وكل حياتنا وأكل عيشنا وسط الغرباء والأجانب.. إلا أن شيئًا ما في صدري أنبأني أن الوقت الذي طال انتظاره قد جاء.. وأكّدت لي ظني ما أخبرني به عارف عندما رآكها صباح اليوم.. فجلست أنتظر كما طوال النهار.

وعدت إلى أسئلتي رغم أن باسمينا لم تكن قد فهمت شيئاً بعد،
وقلت له:

- أكان عارف يعلم بأمر الضريح؟

- لا.. لكنه كان يتبع العيون التي تراقب الطريق.

- تعني.. عفاريت الصحراء؟

فرّد وهو يتنسم:

- هو ما أعنيه.. كان من أسموهم بهذا الاسم هم أبناء عمومتنا

في نجع الحسينات قديماً.. ولم تكن المدينة قد زحفت علينا قبل ذلك.

فقالت باسمينا وقد بلغ فضولها نهايته:

- أنا لا أفهم شيئاً.. عم تتحدثون جميعاً؟

فقلت لها وأنا أتناول المشعل من يد الشيخ ياسين:

- ستفهمين كل شيء بعد أن ندخل.

فسألت في ريب:

- ندخل إلى أين؟

فقال الشيخ ياسين:

- إلى جدتك يا ابنتي.. إنها تنتظرك منذ قرون.

واتسمت عينا باسمينا عن آخرهما فربت على ظهرهما برفق،

وقلت:

- لا تخافي، أنا معك.

فقال الشيخ ياسين:

- إظن أنه من الصواب أن تدخل سيدتنا وحدها أولاً.

قلت في حزم:

- لن تدخل إلى أي مكان وحدها بعد الآن.

راخذت يدها وأمسكت بها في قوة فقال الشيخ يامين «ما تراه»
وانسح لنا الطريق إلى مهبط الدرجات من تحت أقدامنا.. ودخلت
أولاً وتبعني ياسميننا ومددت المشعل أمامي وناولني يزيد بضعة
مشاغل احتياطية أخرى من التي كانت معه.. وقالت ياسميننا:

- ماذا يعني بكلمة «سيدتنا هذه»؟

فضغطت على يدها بقوة أكثر وقلت:

- سنعرف كل شيء الآن.. لا تخافي يا ياسميننا.. أنا معك.

ولم تكن من مرآة في المكان حتى ألمح زينب فيها.. إلا أن روحها
كانت حولي في كل مكان.. واقسم إنها كانت تبسم.



(١١)

الزعرانة

الثالث الأخير من ثلاثة

أنا الزعرانة.. أنا الجميلة فوق كل جميلة.. أنا من انتظرتك طويلاً وكلّ أمل أن
يعرضني مرآك عمّ لفته في حياتي.. جلست وحدي أدون لك حتى يأتي اليوم الذي
تدخلني علي فيه.. فتهدأ روحي وتستقر إلى نيميها الأبدى
أنا أمك يا حبيبي.

أموت شوقاً إلى رؤيتك الآن ومعرفة ما صرت إليه من جمال بعد أن أصبحت
بافمة هكذا..

لم أكن أطرق صبراً أن أراك بينما أنت ما زلت تلهين في مرح طول الوقت
في بطني.. وأشعر أنك تكلميني مثلما أكلبك كلما وضعت يدي فوق بطني أنفوس
حركتك داخلي.. وتدمع عيني كلما علمت أنني لن أكون موجودة عندما تأتي كما
علمت من منسوت الحكيم.

لكفي غير حزينة.. رغم كل ما حدث.. فأنا غير حزينة.. بعد أيام قليلة

من الآن سوف أجتمع بأبيك «حور» في حياتك الأبدية التي سبقتني إليها..
دعوني ننظر لك هناك سوياً.. بعد أن تنصني بحياتك هنا في العالم الأرضي.

آه يا حبيبي لو أنك رأيت أباك الجميل.. كانت له ذراعان فربما يمكنه أن يصل
لحذاءهما دون أن يتعب.. ولقد نعمت معه أيما نعيم، ولولا ما جرى.. كانت عنك
مزيانة أول شيء في هذه الدنيا عندما تأتين إليها بنورك.. ولطالما كان مرآة جميلة.

بأني ستسوت أُنِّي لي أن أعرف بأنك فتاة؟ وأنت جميلة؟

وكيف لا تكونين كذلك وأنا أحلم بك كل ليلة.. وأراك طويلة يافعة.. جميلة
منيرة كوجه محبوبتي الحبيب «رع» العظيم.. وقد ورثت جمالك من أبجل الفرسان
في طيبة وأكثرهم شجاعة.. حور الجميل.

آه يا حبيبي لو كنت رأيت وهو يحتضني أمامه فوق جواده القوي ولحن نغم
من مسكر الشاطئ عند البحر تلك الليلة منذ سنوات بعيدة.

كنت أشعر وأنا بين ذراعيه على سرج الجواد أنني ملكة.. ملكة حقيقية لا
زعم الأرض أمامها كسائر الملوك الذين أتوا على طيبة.. إنما كنت ملكة تبسط
الأرض أمامها كي تنعم فيها بحريتها للمرة الأولى دون قيود.. دون حراس القصر..
وأعين الملكة.. ودسائس «إيست».

ملكة بين يدي ملكها.. على سرج جواد أبيض قوي سريع يرق بنا فوق الرمال
على شاطئ البحر.. لا يتوقف ولا يتعب.. ولم أسأل «حور» عن وجهتها وأنا معه.
لقد كان يكفي أنني معه.. وما هو دون ذلك بالنسبة لي لم يعد يهمني في أي شيء..
وصلنا بعد يوم وليلة إلى حيث كان أهل والدك الطيورن يعيشون.... كانت بلدة
صغيرة هادئة.. تبعد عن البحر أقل من نصف يوم فقط.. وعلمت من «حور» عندما

وصلنا أنهم من تبني من نسل «كاس»^(١٠).. وقد طردوا من رحمة «أحس» بعد أن وثق بعض الكهنة بطمع بعضهم في الحكم.

الكهنة يا حبيبي.. إيه من الكهنة.. رأيتم بصبي وهم يتصّبون جدتك إلفا بين الآلهة.. طمعا في بعض الذهب والبخور القادم من بونت.. وخوفاً من بطش الملكة بهم بعد أن أُلصقت بهم نعمة التآمر على تلي دون أن يفهموا كيف حدث ذلك.. هرب من تبني من نسل «كاس».. وجمعوا شتاتهم واستقر بعضهم هنا جوار البحر.. وبقي بعض للول منهم في طيبة.. عيوناً تراقب ما يحدث فيها.. وكان حفظك السميد وحذية الإله رع لي.. أن كان والدك أحد هذه العيون التي نسلت إل القصر.. فقط كي أضع في هواه.

كان لوالدك أخوان كبيران.. تطوع أحدهما بالعودة إلى طيبة كعين جديده تأتي إليهم بالأخبار متى احتاجوها.. وبقي الآخر معنا هنا ضمن الحماية.. وطلب مني والدك أن أخفي هويتي عن أهل القرية البسطاء.. خوفاً من جواسيس إيست ونحتمس المتفشرين في كل أنحاء البلاد.

تزوجنا أنا وأبوك في اليوم الثالث لوصلنا القرية.. ولقد بارك رع العظيم زواجنا.. فحشت مع أمك أجمل ما عشت في حياتي.. في تلك البقعة المباركة من الأرض التي من عليها رع بأعين الماء التي جرت تحت الأرض رغم كل هذه الصحراء الواسعة التي تحيط بها من كل مكان.

طلعت من النساء في القرية الزراعة وأحببتها.. وعلمني والدك الصيد حتى أتقنته.. ووجدت نفسي أخيراً في تلك الحياة البسيطة الهادئة.. حتى كدت أنسى من كنت..

(١٠) الفرعون الأخير من الأسرة السابعة عشر حكم حوالي من ٣ إلى ٥ سنوات فقط تنول أثناء حربه مع للكسوس عام ١٥٤٠ ق.م

نراثنى فعلاً فبنت.. ولم أكن أتذكر ما كان لي في الماضي من حياتي السابقة إلا
 عندما كان همك «آمن» آخر حور الأكبر يأتينا بالأخبار من طيبة كل حين وحين.
 طرت أمي الملكة ثورة كبرى بعد اختفائي.. وثار «تحتس» ثورة أكبر بعد أن
 نهض عرش القبل بهروي وعودة شرعيته للحكم من بعد أمي إلى الاهتزاز ثانية.
 لمضطت أنشطته في الجيش.. وبدأ وكأنه يعد العدة لغزو طيبة نفسها. وانهمكت
 أمي الملكة وبإشراف «سنموت» في بناء معبدها العظيم على الضفة الغربية للنيل..
 وانهمكت أنا في سعادتي المتجددة مع «حور».. ولم أعد أهتم لما أصبح يحدث
 في طيبة كل عام.. ولم يكن يحد أي جديد.. ارتدت أمي الملكة ذللاً مستارة
 وملابس الملوك الرجال حتى تأكل للناس أنها ملكاً لها. وصارت بجني المزيد من
 المعابد بمساعدة «سنموت».. وشيد «تحتس» المزيد من الكاثب ويجند الشباب
 من أهل طيبة وينشأ مصانع أكثر للسلح.. وكأنهما قد دخلا في صراع وتحدٍ كبير
 عل من سرف يكون أكثرهم مجداً في التاريخ بعد رحيله.. وكان المستفيد الأكبر
 من هذا كله هو الشعب.

زادتهم حملات أمي التجارية تراء وزادتهم حملات «تحتس» العسكرية أماناً
 وقوة.. وأحسست يعني وبين نفسي أننا قد ربنا جيماً بهروي هذا من ذلك الصراع
 الذي لم يكن ليقتبي إلا بالدماء.

لكفي في النهاية.. ذهبت مضطرة بنفسي إلى تلك الدماء.

مرت سنوات من السعادة لم أكن أتخيل وجودها.. ولم يكن يكرر من تلك
 السعادة إلا تلك الأوقات التي كنت أشتاق لها لأصبح أماً.. وأهل داخلي ذرية
 له «حور».. وأهبه لمرساناً شجعاناً مثله.

كنت أنضايق قليلاً في بداية الأمر.. وعندما مر العام الخامس على درون حمل أصبح الأمر هاجساً يكرر علينا صفو حياتنا البسيطة الهادئة.. فحسرت أكثر حدة وأبكي لأهون سبب.. وكان «حور» يعلم بما يدور داخلي.. لكنني لم أكن أحتمل فكرة أن يتزوج من أخرى كي نهيه ذرية من بعده يرثون أرضه التي نزعها سواي.. ويساعدونه في جمع ثمارها ويقفون إلى جواره بعد أن يشيخ في السن.. ويحضرُونَ جلسة التحنيط الخاصة به.. ويقومون عليه الصلوات ابتهاًلاً وطلباً للسلام في رحلته المقدسة بالعالم الآخر.. وكان «حور» يلومني كلها أُنيت على ذكر هذه الأفكار أمامه.. ويقسم لي بكل الآلهة أنه لم يفكر أبداً في الزواج من أخرى.. ولن يفكر في ذلك حتى نشيخ سواً ونذهب معاً إلى عالم الأبدية.. لبيتنا «أوزو» ذرية من لدنه.. وكان دائماً ما يقول لي «أنتِ ملكتي وسيدتي.. ولا أجزؤ على التفكير في غيرك ما حييت».. فكنْتُ أخبره أنني صرت ملكة حقاً عندما أخذني بين ذراعيه ذلك اليوم أمام شاطئ البحر.. وأخذت ألح عليه فأحضر الأطباء سراً من طيبة وقاموا بفحصي كثيراً وقالوا إنه لا يوجد شيء يحرمنا من هبة الأبناء سوى أن هذه هي مشيئة الآلهة.. واقترح أحدهم أن نزرع معبد آمون في طيبة تأدية للصلاة وتهديةً للقرابين وطلباً للبركة.. فازداد حزني وهمي.. وصرفهم «حور» إلى طيبة مرة أخرى بعد أن قام بنفطية أعينهم كما جاء بهم خشية أن يعرف أحد على مكاننا.

في يوم بين العام الثامن والتاسع من زواجنا جاءني زوجة «آمن» بوجه فرج وأخبرتني أن واحدة من العرافات مشهورة بالبركة والقُداسة ستزور القرية بعد أيام.. وأخبرتني أنها كان لها باع معروف في رفع العقم عن المرأة باسترضاء الآلهة بعض الصلوات الخاصة التي تعرفها.. وبعض الخلطات من الأعشاب والمقابر التي كانت تجلبها بنفسها من معابد «آمون» المنتشرة في البلاد.

فبت أنظرها في ترقب شديد.. وقد بدت أملاً كبيراً تعلقت به وآمنت في داخلي أن معجزة ما قد تحدث على يدها وبركة قد تحمل علي من إرضاء الآلهة. وطلبت من زوجة «آمن» ألا تدع «حور» يعلم عن ذلك شيئاً.. وقد خفت عليه من التعلق منلي بالأمل دون تأكيد من إمكانية حدوثه.. فهما ادعى أُمامي أنه لا يتم بهذا الموضع.. كنت متأكدة أنه يرق شوقاً إلى رؤية أباء له مثل أبناء إخوته الذين يقضي معهم معظم النهار.

جاءني العرافة في غياب «حور» واشغاله بأمور الزراعة.. ومكثت معي النهار بأكمله.. ضراً لي من الصلوات التي تعرفها وتسقيني من أعشابها المختلفة.. وقالت لي: - رائحتك كلها شوق إلى الذرية.. وسوف يهلك آمون ما تبخن بعد أن تجزلي له العطاء.

لم أجزل عليها ولا على آمون بأي شيء أمتلكه.. وطلبت منها أن تمر علي كلما كنت قرية من القرية.. فبقيت تزورني تسقيني من أعشابها وتقرأ علي الصلوات والابتهالات المقدسة لآمون وشجرة من الآلهة جميعاً.. وتأخذ مني ما تطلب دون أن أناقشها.. وتعددت زياراتها وزاد بأسني وطالت نوبات بكائي ومثلك مني الحزن حتى كدت أن أياس منها.. وفي النهاية بعد أعوام ثلاثة من الزيارات والصلوات والأعشاب والبكاء.. انقطعت دمائي الشهيرة وبدأ بطني بالتكور والابتهاج. فبقيت وحدي في غرفتي أصلي شكراً لآمون لثلاثة أيام متصلة.. وابتهج وجه «حور» وعلدت اجسامته التي كنت قد نسيتها.. وقال لي وهو يضحك:

- يبدو أن تلك العرافة لم تكن مخادعة في النهاية.

قلت له لما وجدته يعرف بأمرها:

- اسكتت بحرف بأمرها؟

- أبظنن أن عريباً قد دخل بيتي ثلاثة أحرام دون أن أعرف عنه شيئاً؟ كنت أعرف بالطبع.. وكنت أخاف عليك من الصلح بالأمل دون جدوى لكنني لم أتنا أن أفضيك وقد رأيتك تبدلين لما كل غالٍ ثم لكنته.

ثم مال على بطفي وقبلها واحتضنني.. وكنت أنت يئنا يا حبيبتي.. ليتك كنت تسمعن مناجاة لك وهو يحكي لك كل ليلة عن يومه الشاق الطويل في أرضه.. ويحكى لك عن الأيام التي قضاها يعزل في من خلف سور القصر وأنا أناجيه في حرفتي.

في زيارة لتلك العرافة عندما كانت تشرف علي أثناء حلي وقد كسبت ثقة الجميع بعد حدوث الحبل قالت من بين ثورتها معي:

- الأمور في المعبد صارت مزعجة وأصبح إحضار الأعشاب المقدسة مكلفاً جداً هذه الأيام.

وكنت أعرف طريقته الملتزمة هذه قبل الصدم في طلب المزيد من الأموال فسألتها:

- ولم ذلك ماذا جد في طيبة؟

- منذ مرض الملكة الأخير ورقدتها في فراشها منع «تحتس» الملك البشاش البحرية التي كانت تقوم بها.. وصارت السلع أكثر غلاء.. خاصة الأعشاب المقدسة التي كان يحلبها المعبد دائماً تحت رعايتها وإشراف «سنموت» عندما كان مدير أعمال بيت آمون قبل أن يعزله «تحتس» من منصبه.

ارتعدت أوصالي وارتجفت قلبي فور أن أنت على ذكر مرض أبي.. وكنت أظن

أي إن تكبر أبداً أو تشيخ وقد تركتها آخر مرة وهي في أوج قوتها وبها.. وسان
هرلة:

.. حولي لي ما الذي أصابها؟

فالت:

.. داء عضال حارّ معه الأطباء والكهنة.. ينش في وجهها وبأكله.. حتى
إنها لم تعد قادرة على تناول الطعام.. يقولون في المعبد إن آمون الإله قد نحل عنها
فأصبحت منبوذة لدى الآلهة جميعها.

قلت وقد أصبحت الدموع واضحة في عيني:

.. وأين ذهب «سنموت» وابنتها «ميريت»؟

.. لقد عزل «سنموت» منذ فترة كبيرة بعد أن أصبح «تحتمس» هو الأمر
الناهي في البلاد.. لكن الأميرة «ميريت» هي التي نعجب لأمرها في طيبة. منذ
أصبحت الزوجة الملكية تركت قصر والدتها الملكة وتقيم مع زوجها «تحتمس»..
ويقول الناس في المدينة إنهم لم يرونها مع أنها مرة واحدة منذ أكثر من عام أو يزيد.
ظفرت الدموع من عيني حزناً على ما آل إليه حال أبي في النهاية. وبعد أن
انصرفت العرافة وقد أجزلت لها العطاء، طلبت من «حور» عندما عاد من الحقل
أن يأكد مما قالته لي العرافة.. فوجدته يعرف كل أخبار طيبة لكنه لم يكن يخبرني
بأي شيء.. وعندما لمته على ذلك قال لي في حدة:

.. ولماذا تهتمين بأمرها الآن؟ هل نسيت أنها كانت ستقدمك قرباناً للإيقاع
بكهنة المعبد؟

لمرددت عليه من بين دموعي:

- لكنها أمي في النهاية.. وقد تركها انخوة كلهم كي تبقى مصيرها وحدها.
- يمكنك أن تعطي من أجلها إذن.. وترجعها الآلهة رغم ما كانت ستفعله بك.
- الصلاة وحدها لا تكفيني.

- ماذا تفعلين؟

قت من فرائشي وقلت له وأنا ما زلت أبكي:
- أعني أنني أريد أن أراها.. ولو مرة واحدة.. أريد أن أودعها.. إنها أمي.
قال في حزم:

- هذا لن يكون.

ثم تركني وانصرف، وبقينا على خلافنا هذا لأيام.. في كل ليلة أتوسل إليه أن يبرئنا بطريقة نذهب بها إلى أمي.. فتارة ما كان يخضب.. وتارة ما كان يبرئني ورفضه بخوفه علي من الظهور في طيبة وخطورة ذلك على حياتي.. وصعوبة الدخول إلى القصر وإلى مخدع الملكة نفسها والذي لم تعد تستطيع أن تفارقه كما علمت من العرافة.. إلا أنه في ليلة جاء إلي وأنا في فرائشي أبكي أمي مثل كل ليلة وقال لي إننا سنذهب في الصباح إلى طيبة.. ولما سأله لم قد استجاب إلى رغبتي أخيراً قال:
- لم تعد طيبة مثلاً تركاها.. ولم تعد الملكة ملكة.. لم أصدّق نفسي عندما حكى لي أنني.

- وما الذي قاله لك؟

- لم يعد من حراس بالقصر.. فقط بعض الخدم القلائل الذين رفضوا أن يتركوا الملكة وهي تختصر.. وقد بدأت أعمال تدمير وهدم لمعابد الملكة التي شيدها لها

«مشتت».. ويبدو أن «تحتس» يحاول أن يمر كل ذكرى لها عندما تموت كي
يسلمها كل الشعب.

ظنني نوبة بكائي وازدادت حدة، واقترب مني «حرور» وجلس جوارني ثم
احتضني في قوة شديدة وأخذ يطمئني حتى هدأت.

ووصلنا طيبة بعد بضعة أيام من السفر الهادئ خوفاً من الطريق على حجلي الذي
كان في شهوره الأخيرة.

عندما وصلنا طيبة وجدتها مدينة غير تلك التي كنت أعرفها.. لم تكن أقل
جمالاً أو أكثر فقراً.. لكنها كانت غائبة متوزرة.. وقد أصبحت الشوارع كلها
مدججة بالعربات العسكرية الجديدة التي ابتكرها «تحتس» للجيش.. وعند كل شارع
وكل زاوية عدد مهيب من الجنود الواقفين في تأهب.. ورغم أنه لم تكن هنالك
أي توترات أو تمردات داخل طيبة أو خارجها.. فقد كان الجيش في أوج مجده
وأقوى حالاته منذ عهد الملك «ميناء».. وعندما اقتربنا من قصر أبي.. فهمت ما
كان يقصده «آمن».

كانت البوابات مفتوحة على مصراعها لا يوجد أمامها حرس كما كان في
الماضي.. وقد تهدم معظم السور الخارجي له.. فدخلنا القصر دون أن نجد من يسألنا
عن هويتنا أو وجهتنا.

في الداخل كان خادمان عجوزان يجلسان في بستان القصر القديم.. أو ما كان
بستاناً في السابق وقد صار أرضاً جرداء ذبل ومات كل ما كان بها من أزهار..
وسأل أحدهم عما زبده فقال له «آمن» الذي جاء معي ومع «حرور» أنه طيب

أرسلت في طلبه الملكة.. فوصف لنا مكان مخدعها دون أن يقوم من مكانه.. وقال إنه هناك طيب آخر معها في غرفتها.

وعندما دخلت على أمي وجدتني ملقاة على فراشها في تلك الغرفة التي كان محرما على أي إنسان دخولها.. وكانت نائم بشدة وثمكت يدها بيد «سفنموت» الجالس بجوارها وقد ادعى أنه طيب هو الآخر.

صرخت حزنا فور أن رأيته وارجمت عليها أقبل يديها ووجهها، ورحت أبكي في حزن ولوعة على ما صار إليه حالها.. وجذبني «سفنموت» من يدي وقد صارت بحالم أكثر عندما احتضنتها.. جلست بجوارها وأمسكت يدها ورحت أبكي في صمت.. وقال «سفنموت»:

- مخاطرة كبيرة أن تأتي إلى هناك بفلسك يا بطني.. أعين «تشمس» و«إيست» في كل مكان.

- لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من رؤيتها.

فراح يتم في غفوت:

- لكن هذا خطر.. خطر كبير عليكم.

ورحت أقبل يد أمي وأنا أبكي فوضعت يدها على خدي ونظرت إلى بطني الباردة.. وبانت ابتسامتها من بين أظفارها بصعوبة شديدة وقالت بوهي:

- كنت أظن دخولك علي كل ليلة يا حبيبي.. لماذا تأخرت هكذا؟

ولم أستطع أن أرد عليها.. فقالت:

- لكنك في النهاية جئت.. وهذا خير من لا شيء..

ومدت يدها إلى رقبته وأمسكت القلادة التي كانت في عنقها ولم تكن تنزعها أبداً.. وأخرجت منها مفتاحاً صغيراً وأشارت إلى الستار التي كانت فوق الجدار وأمام الممر المؤدي إلى الصومعة الصغيرة.. وهنا صاح «حور» ولم يكن قد تكلم منذ جئنا:

- لا يا «حور».. لا شأن لنا بهذا..

لومته أمي بنظرة غضب رغم ضعفها الشديد وقالت:

- أتحب أن تضع «إيست» و«تختس» أيديهما على الصناديق.. هذه الأمانة ملكها وحدها.. وهي من ضروري.

- لا أمر لك عليها.. ألا يكفي ما فعلت بها؟ أنسيب أنك حاولت أن تقدمي لها السم كي تورطي الكهنة في قتلها؟

- وهل كنت تظن أنني سوف أعرض حياة ابنتي للخطر؟ كان ترياق السم معداً قبل السم نفسه.

نظرت إلى أمي وأنا لا أصدق أنها تقول هذا أمامي وعيني كلها لوم. وقبل أن أنطق بأي كلام عادت ومدت يدها إليّ بالمفتاح الوحيد للاد كان موجوداً بالقلادة وقالت:

- لا وقت.. الصندوق الصغير مفتوح.. به بعض الفئات قد أخرجتها لأقرأ بعض ما فيها ربما ساعدني على التخلص من تلك اللعنة التي حلت بي.. أجمعها كلها وضعها فيه.. أما الآخر فتركه كما هو لم يفتح بعد.. ولا تقوي بفتح أيهما إلا مضطرة.

وهنا عوى طائر بصوتٍ غريبٍ حادٍ خارج القصر فانتبه «حور» واندفع إلى النافذة وقام بفتحها وصاح:

- هذه إشارة «آمن».. هناك حرس قادمون.

واندفع يسحبني من يدي فصرخت أُمي، وحاولت أن تنهض من فوق فراشها وقالت:

- الصناديق.. لا تحركي الصناديق.. الأمانة يا زعفرانة.

فتناولت المفتاح منها في سرعة وهب «سنتموت» يساعدي واتجهت بسرعة إلى حيث كانت الصرصة وأخذت الصندوق الأصغر.. وعاد صوت الطائر مرة أخرى فصرخ «حور»: «أسرعا.. لا وقت».. وانضم إلينا وقام برفع الصندوق الكبير مرة واحدة وملأت على الأرض أحاول جمع ما تنثر من الصندوق الصغير ونمضنا جلبة في ساحة القصر فأسرع «حور» إلى الشرفة ونظر منها مرة أخرى وصاح:

- لا وقت لدينا لقد حاصرونا.

وجذبني من يدي في غنابٍ وهرعنا إلى خارج الغرفة ولم يترك لي فرصة كي أجمع كل ما كان ملقى على الأرض من هوائف.. ولا حتى أن أقبل أُمي قبل أن يخرج.. وفور أن نخرجنا من الغرفة سمعت صوت «إيست» قادمة من ردهة القصر: «أريدنا حية».. فلم نعلم إلى أين نذهب فنأدى علينا «سنتموت» هامساً وهو يشير يده:

- الجهة الأخرى.. في نهاية الرواق يوجد مخرج خلقي لا يعرف عنه الحرس الجديد أي شيء.. خلف تمثال الملكة.

فرحت أركض مع «حور» إلى نهاية الرواق حتى وجدنا التمثال الذي كان يقصده ووجدنا خلفه باباً صغيراً فتحة «حور» بصموية وهو يحمل الصندوق الكبير

في يده ووجدنا درجات تهبط بنا إلى أسفل ووجدنا أنفسنا في النهاية خارج القصر
وأمام البستان الصغير الذي كان يعمل به «حور» قديمًا.. وقال لي:
«لقد أصبحنا في الجهة الخلفية للقصر.. و«آمن» ينتظرنا في الجهة المقابلة معه
الليل».

ثم أخذ يفكر ويدور حول البستان بحثًا عن مخرج وأشارت إلى تهدم كبير في
سور القصر من الناحية الجانبية.. فرحنا نركض إليه وكانت خطواتي شديدة البطء
بسبب حملي والصندوق الذي أحمله.. وكان «حور» يجرني جرًّا وهو يركض.. وفور
خروجنا من سور القصر أطلق «حور» من فمه ذلك الصوت الذي كان يصدره
«آمن» منذ قليل وانتبه إلى صوته عدد من الحرس الذين احتلوا شرفات القصر بحثًا
عنا وأقبل «آمن» على جواده وهو يجر جوادًا آخر وأخذ الحرس يطلقون سهامهم
نحونا وفور أن اقترب «آمن» أمسك حور بلجام الجواد الحر وساعدني على امتطائه ثم
ناولني الصندوقين فوق بعضهما وركب خلفي وأصاب أحد السهام ذراعه وانطلقنا
فارين من حول القصر قبل أن يلحق بنا الحرس.. وفور ابتعادنا عن القصر قال
«آمن»:

«لن نستطيع الخروج من المدينة هكذا.. الجند منتشرون في كل الطرقات
سنذهب إلى منزل أحد العيون ولن نضرك حتى يصبح الحروب ممكنا،
ذهبنا إلى بيت ريفي فقير لا يمتد عن القصر إلا قليلًا.. وفور دخولنا جلست
أنضمم مكان السهم الذي أصاب «حور» في ذراعه وقال لي إنها ليست إصابة
خطرة.. وعندما رآها صاحب العين تكلم وجهه وهمس إلى «آمن» بشيء لم أسمع..
وفي المساء دخل «حور» في حى شديدة رافقه حتى الشروق.. وعلمت من «آمن»

أن «نحتمس» كان قد جعل جنده في المدينة يستخدمون السهام المسرمة.. وعندما اصصف النهار أخذ «حور» يتعلق بكلام غير مفهوم وينادي على أشخاص غير موجودين.. وبعد أن غاب عنا ريع في المساء.. كان قد أخذ «حور» إلى جواره.



آه يا ابنتي لو يعرفن ما لاقته أمك من أيام قاسية من الحزن والوحدة بعد أن فارقني أبوك وحبيبي ونور أيامي التي ذهبت مع ذهابه.

أحسست في تلك الأيام أنني كنت أموت كل يوم.. لكنني لا أبعث في الحياة الأخرى ونعيمها الأبدي.. بل كنت أبعث كل يوم في نفس الجحيم.. وأظل أنظر وأنا على فراشي في القرية إلى الصناديق التي من أجلها ضاع مني زوجي وحبيبي.. وألحن «نحتمس» و«إيست» و«ميريت» والعرش.. بل صرت ألحن أبي نفسها.. فلولاها ما كان «حور» قد ضاع مني وتركني أفجع مرارة فقدته.. وقد يئست يا حبيبي ويئست أنا أيضاً معك.. وقد كان حرر هو كل أهلي ومن بقي لي في هذه الدنيا. وفي الزيارة الجديدة للعرافة أخذت أتوسل إليها أن تبحث لي عن أي شيء يترفع عني حزني ويصبرني على مرار الفقد.. وما إن دخل علينا «آمن» ورآها حتى قام يجرها من شعرها وألقاها خارج المنزل.. وقال إنه لولا جبهتها من البداية ما كنا ذهبنا إلى طيبة.

اختفت العرافة لفترة طويلة، وقبل أن يحل موعد الولادة جاءني منسلة ذات ليلة.. وكان الحزن ما زال في مكانه لم يفارقني. وهمست في أذني أنها أعدت لي مجموعة من الأعشاب المقدسة جلبتها من معبد بعيد من معابد آمون القديمة. وناولني قنينة زجاجية صغيرة بها سائل كان شديد المرارة لم أستطع أن أشربه إلا بعد أن

أمرت على عاولة كاملاً.. وقالت إنه له من الأسرار المباركة التي سوف تذهب
بمزي بعيداً عني.. وعادت بعد يومين ومعها نفس القنينة.. وبعد أن تناولتها كلها
رُحْتُ أتعذب من مرارتها، وفور أن انتهت وتهايت هي لتخرج من المنزل هجم
عليها «آمن» وصار يسبها وهو يجرها للخارج وهو يصرخ «ملعونة» وصرخت العرافة
بصوت شق سكون الليل ثم سكنت بعدها.. وعلت أن «آمن» قد قطع رأسها
بسهفه.. وكان قد رآها منذ أيام وهي خارجة من قصر «نحتمس». وفي صباح اليوم
التالي بدأ التزييف من كل جسدي..

كان تزييفاً شديداً في البداية رحمت بعده في إخماء طويطة وأهنت في المساء..
لم عاد مرة ثانية في صباح اليوم الجديد.. وأخذ ييجي.. كل نهار، تارة يكون تزييفاً
شديداً، وتارة يتقطع بعد فترة قصيرة.. وصرت شاحبة أنتظر الموت كل يوم..
وطلت أن «إيست» قد استخدمت ما وجدته من اللقائف التي سقطت مني من
الصندوق الملون وأنا أهرب من القصر.. وصرخت في «آمن» أن يهت عن
«سنموت» ويحضره إلي بأي طريقة..

غاب «آمن» لثلاثة أيام ثم دخل علي بعدها وكان معه «سنموت»، وكان
«آمن» قد وجده بعد بحث قصير حتى لقيه في مقبرته يشرف على إنهاء تجهيزاتها وقد
أيقن أن وقت رحيله قد اقترب.. وعندما دخل «سنموت» علي ووجدني في تلك
الحالة من الضعف والشحوب وحكيت له ما كان من أمر العرافة والسائل المر
الذي عاولته.. اكفهر وجهه وأبدى حزنه لما سمع.. وقال إن هناك من قام بعمل
لعيلة لعني أنا وفرتني من بعدي..

قال «سنموت» أن «إيست» قد أرادت أن يمتك لي وصديقي لا أن يتخلص

مني مباشرة.. وجلس يتהל ويضرع إلى الآلهة أن تعافني مما أنا فيه. ثم طلب من «آمن» أن يتركنا وحدنا.. وبعد أن رحل «آمن» سألتني «سنموت» عن الصندوقين.. وكنت أحفظ بهما تحت فراشي ولا أتركهما يغيبان عن عيني.

ففى «سنموت» الليلة كلها يقرأ كل ما طالته يداه فى صندوق وصايا الناس المقدس.. ورفض أن يمس الصندوق الآخر وقال إنه ملعون وكل ما فيه ملعون مثله.. وبعد أن انتهى وضع يده الباردة على جبينى وصار يقرأ من إحدى اللقائى.. وكنت لا أفقه شيئاً مما يقول.. وبعد أن انتهى تنهد فى صبر وقال:

- لقد لعنت بتعويذة شر وكره ولا يفل الشر والكره إلا الخير والحب.. وأنت خير يا حبيبتى وابنة خير.. وسأحاول معك ما استطعت.. لكن المكان هنا أصبح غير آمن.. منرحل جُراً إلى قرية مهجورة مجاورة فى داخل الجبل.. رأيتها وأنا قادم إلى هنا.. ربما استطعنا الاختفاء عن سبيعتهم «تحتمس» أو «لاست» بحثاً عنك، ورحلنا جُراً كما قال، ولم يخبر أحداً بمكاننا سوى «آمن» خوفاً على من جند «تحتمس» الذى كان يقترب.. وعادنى النزيف فور أن وصلنا وكان قد اختفى الليلة الماضية.. وقال «سنموت»:

- التلاوة ربما أبطلت جزءاً من تأثير اللعنة.. لكنها بالتأكيد لم تنهها.

ثم عاد «سنموت» يفتش فى الصناديق مرة أخرى.. وكان ما انتهى إليه كئيلاً وحزيناً.. قال «سنموت»:

- إما أنت.. وإما ما فى بطنك.. لقد بدأنا صلواتنا لكن ما صنع لك كان أقوى من مقاومتنا له.. كان كرمًا خالصاً لا يرفعه إلا حباً خالصاً.. مهما مر الزمان.

لوضعت يدي دون شعور على بطني ورحلت أضحك إلي أكثر وأنت مازلت
داخلي.. ولم أنتع بكائي.

وظل «سنتموت» معي يحاول كل يوم أن يجرب كل ما يعرفه أو يصل إليه
من صندوق التأسع المقدس.. لكن التزييف كان يروح ليلة ويحيي ليلة أخرى.
لأستسلمت لقدري في النهاية.

وفي ليلة جاء وجهك الرائع النبيل يزورني في أحلامي.. وأخذ يزورني كل
ليلة. فمشقتك قيل أن تكوني.. وبعد عدة أيام من رؤيتي لك في أحلامي.. دخل
«سنتموت» علي ذات نهار ووجدني أبسم.. وكنت أفكر فيك. وقلت له لقد
عمرني البهجة:

- إنها صبية يا «سنتموت».. صبية جميلة وغاية في الجمال.. لقد عشقتها.

ورحلت أبكي يا حبيبي.. لكنني كنت أبكي من بهاء منظرِكَ الرائع.. وربت على
بدي «سنتموت» الطيب.. وطلب مني أن أكتب إليك.



كان الوقت قد حان.. وبات قدومك وشيكًا بين لحظة وأخرى يا حبيبي..
وكنت أعرف أن نوبة التزييف هذه المرة ستكون الأخيرة.. وطلب «سنتموت»
أن يعد عملك «آمن» بحيث لا يدفني فيه.. لا يعرف أحد مكانه، ولا حتى «سنتموت»
نفسه. وقال إنه سيعمل بنفسه على حفظ جسدي حتى نعودي إلي بعد أن تصيري
بألمة وغوية لتتردي أمامك التي تركتها لنا جدتك. وعاهدني ألا أغتحي ذلك
الصندوق الملعون مهما كان.. فهمنا يا حبيبي هي أن نحفظه لا أن نتطلع على ما
فيه.. وقد رفض «سنتموت» تمامًا أن أقوم بحرقه. وقال إن هذا قد يجرر الشرور التي

حبست داخله.. وقد رأيت ما جرى لجدتك عندما حاولت الاستعانة به.. ولقد قرر
سنتورت أن يأخذك بعد أن تصلي إلى هذه الدنيا.. ولكنه رفض أن يأخذ الصناديق
معه.. وقال هذه أمانة لا يقدر هو على حملها.. ولا يحملها إلا من وكّلت له.. ورفض
أن يأخذها معه حتى تكبري وتسردينها.. ولا أن يأخذها أي إنسان آخر سواك..
وقال أنها ستحفظ معي في مكان مقبرتي.. حتى تأتيين إلي.

دونت لك يا حبيتي ما جرى لي وما كان من أبي وأخوتي كي تعلني مثلما علمت
ما يدور في هذه البلاد.. وما يؤدي إليه في النهاية.. دونت لك كي تبصني عن الحب
حتى يجديه خالصاً نقياً.. فتذهب عنك هذه اللعنة.

سأدعك ترحلين مع «سنتورت» ومعك رسالتي الأولى.. وسيعهد هو برعايتك
في مكان في الشمال بعد عن هنا.. وسيكون مع الرسالة الأولى قصاصة يمكن
تطخين فيه بأبناء عمومتك بعد أن يشتد عودك ويقوي بأسك بعد أعوام من الآن..
وسينتظرونك في الأيام الأولى من الشهر الأول من الربيع كل عام أمام المعبد
الجنائزي لجدتك الملكة الراحلة.. أو ما سيتبقى منه بعد أن يخرب فيه «تحتمس»
قدر ما يستطيع.. وحتى تصبحين قادرة على حمل هذه الأمانة سيكون مع أبناء
عمومتك -ومن يخلفهم- البرديات الثانية كي تعرفي عليهم بها.. ويعرفوا عليك
برسالتك.. وبعد أن تبدأ مطاردة «تحتمس» لك تماماً.. وسأأخذك أبناء عمومتك
بعد ذلك إلى مكالي الذي سأعظرك فيه.. والذي لن يعطه أحد سواهم.. ولتساعني
يا حبيتي على كل هذا الشقاء وكل هذا التعقيد.. لكنني لم أكن لأسمح لأحد غيرك
أن يحصل على تلك الصناديق وما بها من أسرار.. وقد مات والدك وأصابني هذه
اللعنة بسبب محاولاتي للحفاظ عليها من أن تقع في أيدي خبيثة.. وسيكون معي ما بقي
من أسرار في تلك البردية الأخيرة.. وفي مقامي الأخير.

سأنتظرك يا حبيبي وأظل أنجوك يوم أن تدخلين علي بعد أن صرت جميلة
بالمة.. تأخذين الأنظار من جمالك وورقتك كما أحلم بك دائماً هذه الأيام. أراك
تدخلين علي وقد وجدت حباً خالصاً يطهرنا من هذه اللعنة إلى الأبد. رمعت
فارسك المخلص. يحبك ويردك إلى أمك وحبيبك التي تنتظرك هنا ومعها من
الأسرار ما سوف يحارب العالم كله لأجل الحصول عليه.. أسرار الآلهة المقدسة..
وكنوز الأرض المخبأة.. أسرار عائلتنا ومن سبقوها، أسرار التحنيط القديم.. وأسرار
الموت.. لكنني تركت لك هنا ما هو أجمل من ذلك كله يا حبيبي.. تركت لك
أسرار الحياة.



(١٢)

خاتمة

عزيزتي بيلا:

كان الوقت قد مر.. وحل نور قوي بالخارج.. وكنا نقبع في ظلام طويل أنا وبجبي لم نكن لنعرف له نهاية إن لم نلتقي.

كانت حياة قاسية ووحيدة.. لكننا وجدنا في وحدتنا الصبر.. ووجدنا من صبرنا الحكمة.. وهدتنا حكمتنا إلى بعضنا في النهاية. أرى نورًا قويًا بالخارج.. وأرى حياة طيبة تنتظري.. لم يعد بهما فيها الخوف من نزيف جديد.. أو المعاناة من الوحدة والحزن.

لم أعد أبحت أو أفكر إن كان ما قالته جدتي الزعرانة عن اللعنة حقيقياً أم أنه محض أساطير.. لقد تركت لي الرسائل وظلت تنتظر قدومي كل هذه السنوات كي نجدها في النهاية أنا وبجبي.. وكل ما يهم الآن أننا وجدناها بعد أن وجدنا أنفسنا.

لم أعد أخشى شيئاً بعد الآن.. ما دامت يد بجبي في يدي.. وقد بعضنا سورتنا من جديد.. وتلبستنا أرواح غير الأرواح.. أكثر جمالاً وعذوبة.. وأكثر قدرة على حب الحياة.

أراه وهو مقبل عليّ.. أرى فيه النور والدفء.. وأرى في عينيه
حبًا خالصًا بعد كل ما عاناه من وحدة.. أرى فيه الأمل.. وأرى فيه
الصحة والرفقة.. أرى فيه ذلك كله.. بل وأجل منه.

إبتك الحبيبة: ياسميننا

تمت

أحمد سلامة

على هامش الرواية



سنموت يحمل الأميرة نفرو رع - المتحف المصري

- في عام ١٤٨٥ ق.م وُلدت
الأميرة نفرو رع لأبيها الملك
تحتمس الثاني ووالدتها الملكة
حتشبسوت. وهما من أهم ملوك
الأسرة الثامنة عشر
- توفي الملك تحتمس الثاني
تاركًا ابنتان هما نفرو رع، وميريت
رع. وكان له ابن آخرًا من إحدى
عظيماة وهو الملك تحتمس الثالث.
- تولت حتشبسوت الرماية
على تحتمس الثالث الذي كان
صغيرًا.

- عين المهندس ستموت مسؤولًا عن رعاية ابنتها نفرو رع.
وكانت علاقة ستموت ونفرو رع كما تبدو من تماثيلها العديدة
علاقة أبوية شديدة الحميمة.

- نصبت حتشبسوت نفسها ملكًا لها على مصر استنادًا إلى
نبوءة آمون ودونت نصوص هذه النبوءة على جدران معبدها.
وبعد أن كانت وصية على الحكم، أصبحت هي الملك الفرعون.

وظلت تحكم حتى وفاتها وقد بلغ عمرها ٥١ عامًا. وكانت من أطول فترات الحكم لامرأة على عرش مصر.

- بعد وفاتها كُشِطت أسماؤها من على المعبد وهشمت بعض تماثيلها وجرت عمليات تخريب عديدة لاسمها وذهب أغلب الظن إلى انتقام تحتمس الثالث منها بعد أن حرّمته الملك لسنتين عديدة. وذهبت ظنون أخرى إلى أسر وملوك لاحقين بعد تحتمس الثالث.

- تميز عهد حتشيسوت بالرخاء الاقتصادي وازدهار التجارة والبعثات التجارية العديدة والتي كان أشهرها الرحلة التاريخية إلى بلاد بونت. والتي دونت هذه الرحلة وتفاصيلها على جدران معبدها بالدير البحري.

شيد المهندس ستموت للملكة حتشيسوت معبدها الشهير بالدير البحري. وقدم ستموت تصميمًا جديدًا متفردًا للمعبد الجنائزي لحتشيسوت وأشرف بنفسه على إنشائه. وكان التصميم يختلف بشكل كامل عن تصميمات المعابد الأخرى لدى قدماء المصريين.

- بعد تولي تحتمس الثالث ملك مصر أقوى إمبراطورية في مصر استمرت لسنوات عدة وكان من أقوى الحكام الذين أتوا على مصر في تاريخها. وكان يتمتع بعقيدة عسكرية لم يسبقها إليه ملك من قبل. وصلت حدود الدولة المصرية في عهده إلى نهر الفرات شرقًا، وإلى ليبيا غربًا. وإلى ساحل قبرص شمالًا وإلى منابع النيل جنوبًا.

- جرى الظن أن تحتمس الثالث قد تزوج إحدى الأميرتين

بنات حثشبوت حفاظاً على الملك. وكانت المرشحة الأولى هي
الأميرة نفرو رع. ووجدت نقوش تتحدث عنها بصفتها الزوجة
الملكية له وعاهلة مصر العليا والسفلى، إلا أن اسمها تم محوه
وحل مكانه اسم والدته الملك بعد ذلك.

- لم توجد أي أخبار تتحدث عن الأميرة بشكل مؤكد بعد
عامها السادس عشر. ويظن بعض علماء المصريات أن من تزوجها
الملك تحتمس هي الأخت الصغرى ميريت رع، وأن نفرو رع ربما
تكون ماتت في ذلك السن.

- حتى وقت قريب جرى الظن أن الملكة حثشبوت ماتت
مقتولة. إلا أنه تم التحقق من مومياء حثشبوت وهي تبدي
علامات موت طبيعي كان سببه الأغلب هو السرطان.

- شيد مستنموت مرداباً لم يكتمل يربط بين مقبرته بالدير
البحري وبين معبد الملكة حثشبوت.



الزعرانة

هنا موقعٌ مختلف، جيبان التقيا صدفةً.. لا هما يعرفان بعضهما ولا هما غريبان عن بعضهما! مُرتبطان رغم كل تلك الغربة.

"يحيى الطيب" خبير الآثار المصري الذي يحاول الهرب من حكايات الحبيبات القديمات، ومن لعنة كسرة القلب ومرارة الوحدة في نهاية كل علاقة، فيهرب إلى الصحراء بحثاً عن سرٍ قديم.. و"ياسمين" الفتاة اليونانية التي جاءت إلى مصر هرباً من لعنة تصيبها كلما اقتربت من الرجال. فحاولت اللجوء إلى صحراء مصر ومعها سرٌ قديمٌ، وفتاح لكل ما يبحث عنه يحيى. يلتقيان صدفةً، أو هكذا ظناً، لتبدأ رموز كل الشفرات تُحل وتتشابه أيضاً، هكذا الأمرين معاً!

أحمد سلامة

طبيب وكاتب وروائي مصري، تخرّج في كلية الطب عام 2011، يعمل طبيباً لأمراض الباطنة. عضو إدارة تحرير سلسلة "مدونات مصرية للجيب"- أول سلسلة كتب للمدوّنين المصريين، مستشار للتحرير والنشر. قام بتحرير العديد من الكتب الأدبية لعددٍ من الكتّاب والمؤلفين على مدار سنوات، صدرت روايته الأولى "محطة الرمل" عام 2013 وصدر منها طبعات عديدة حتى الآن.

